٢

شخصيات لا تُنسى ..

سمير سواني



شخصيات لا تنسى ..

" الجزء الثانى "

بقلم

سمير سوانى

اسم الكتـــــاب : شخصيات لا تُنسى .. (جزء ٢)

بقلـــــــــــم : سمير سوانــــــــى - القاهــــرة

الناشــــــــر : سمير سوانــــــــى - القاهــــرة

الجمع والتنفيذ : مؤسسة بيتر للطباعة والتوريــدات

١ ش جمعية الشباب - عين شمس الشرقية (ت : ٢٤٩٠١٠٦٥)

www.peterprintes.com

E-mail : info@peterprintinges.com

رقم الإيداع : ٢٠١٠/١٣٠٠٥

الترقيم الدولى : 0 -9087 - 17 - 977

تليفون : ٢٥٧٧٦٩٦٩

محمول : ٠١٢٨٨٢٠٠٨٧

E-mail : samir.sawany@yahoo.com

www.samirsawany.do-talk.com

تقديم

" شخصيات لا تُنسى .. "

نعم .. لازال التاريخ يذكرها .. والإنسانية أيضاً .

إنها قصص واقعية ، تتناول حياة رجال معروفين ومجهولين حقق بعضهم شهرة واسعة ، على حين مات بعضهم الآخر مغموراً . ومع ذلك كان لهم دور بارز فى أحد الجوانب المؤثرة على المجتمع البشرى والإنسانية .

" شخصيات لا تُنسى .. "

به قصص خاصة بالمرأة من واقع الحياة أو من سجل التاريخ . تعكس واقع النفس البشرية للمرأة بكل ما فيها من الإيجابيات والسلبيات ، قد تتعاطف أنت معها ، أو قد ترى نفسك من خلالها ، أو أحداً من المحيطين بك ، كما أنها قد تكون مثلاً أعلى أو تحذيراً وعبرة ..

" شخصيات لا تُنسى .. "

من كل بلاد ودول العالم القديم والحديث - ضحوا ، بذلوا ، ثابروا ، عانوا ، كافحوا ، إنتصروا ، إكتشفوا ، إخترعوا ، إبتكروا - أصحاء أو معاقين - لازال التاريخ يذكرها .

إن الذين كافحوا وناضلوا وتعبوا من أجل الإنسانية كانوا يجتهدون دائماً إلى تحقيق هدف معين غير عابئين بما يوضع أمامهم من عوائق وبما يلاقونه من صعوبات ، ولو ألقوا بالاً إلى ردود فعل البشر ما إستطاعوا الإستمرار فى طريقهم ، ولكنهم أصموا آذانهم عن نقد الآخرين لهم وسخريتهم منهم ، وواصلوا جهادهم وإصرارهم حتى النهاية .

فتحققت أخيراً أهدافهم وأفادت الإنسانية بكفاحهم ، وسُجلت أسماؤهم وأعمالهم فى سجل الخالدين .

" شخصيات لا تُنسى .. "

كتاب مكون من جزءين بمحتوى سبعون شخصية عالمية من النساء والرجال

فــى شــتى المجــالات العلميــة والأدبيــة والإجتماعيــة والإنــسانية والفنيــة والطبيــة والرياضية والبطولية والمعجزية ... إلخ .

وإستقينا مادة هذا الكتاب من مجلة " هو وهى " بـدءاً مـن أواخـر الـسبعينيات حتـى أوائل التسعينيات .

سمير سوانى

شخصيات لا تنسى ..

(١) فلورنس نايتنجيل



حاملة المصباح

في هذه السنوات الأولى من حياتي على الأرض لم أجد شيئاً يستحق أن أعيش من أجله ! . لم أعد أرغب في شئ سوى الموت ، فهو السبيل الوحيد لخلاصي من هذه الحياة ! . لقد جربت الرحلات والأسفار ، جربت الصداقات التي نشأت بيني وبين الناس ، جربت كل شئ فلم أجد شيئاً ..

يا إلهي ، كيف يكون مصيري ؟ .. ماذا أنت صانع بي ؟ ..

فلورنس نايتنجيل

الهدوء يسود أرجاء المستشفى ، كل شئ نظيف ، تشتم رائحة المواد المطهرة التي تم غسل جميع الردهات بها ، كل شئ مرتب ولامع ، نباتات الزينة ترحب بك في الممرات ، كل ما حولك يوحي لك وأنت تزور مريض بها ضرورة السير على أطراف الأصابع ، والهمس عند الحاجة للكلام .

والممرضات في أرديتهن البيضاء يتنقلن من سرير إلى سرير ، ليرعين المرضى ، وينفذن أوامر الأطباء ، وهن يبذلن جهوداً كبيرة ، وتراهن دائماً هادئات ودودات ، يعملن كل ما في وسعهن لجعل حياة المرضى أكثر راحة ، وأقل ألماً ..

وعندما يغادر الإنسان المستشفى ، يبقى في ذاكرته ما لاقاه هناك من مهارة الأطباء ورعاية الممرضات . ولكن المستشفيات لم تكن دائماً في مثل هذه الحال . ولم تكن الممرضات على مثل ما هن عليه الآن من نظافة ومعاونة وسلوك حسن . في الماضي كانت المستشفيات مختلفة تماماً عما هي عليه الآن ، وكان

الناس يخافون دخولها ! .

أما السبب فى هذا التغيير العظيم الذى حدث فى نظام المستشفيات ، فيرجع بصفة رئيسية إلى فتاة شابة ، إسمها " **فلورنس نايتنجيل** " وكانت تسمى أيضاً " **حاملة المصباح** " لأنها أضاءت الطريق بكفاحها .

ففى سنة ١٨٢٠ ، كان السيد نايتنجيل وزوجته والدا فلورنس - يقومان بجولة فى أوربا . وفى مدينة فلورنسا بإيطاليا ، وضعت الأم طفلة أطلقوا عليها إسم " فلورنس " وهو إسم المدينة الإيطالية باللغة الإنجليزية .

وكان للوالدين إبنة أخرى عمرها سنتان وقد سمياها " بارثينوب " أو (بارثى) . وبعد مولد الإبنة الثانية " فلورنس " عادت الأسرة كلها إلى وطنها فى إنجلترا .

كان الوالدان من الطبقة الراقية . ولكن يبدو أنهما كانا على غير وفاق مع بعضهما . كانت الأم سيدة جميلة ، مرحة ، تتصف بشئ من الأنانية ، وتحب الحياة الممتلئة بالمباهج والأشياء السارة .

أما الأب فكان رجلاً لطيفاً طيباً ، ولكنه كان مقتنعاً بقضاء أيامه فى صيد الحيوانات وصيد الأسماك ، أو فى قراءة الكتب والسياحة فى مختلف البلدان . وكان ثرياً ويفضل حياة التأمل والهدوء .

وبعد أن نمت الوليدة " فلورنس " وأصبحت طفلة صغيرة .. عاشت حياة بعيدة عن السعادة . كانت مختلفة عن البنات الصغيرات اللاتى يماثلنها فى العمر فى أشياء كثيرة .

والغريب أنها كانت لا تشعر بالسعادة ، برغم أن بيتها كان حافلاً بكل المسرات . فلديها ولدى شقيقتها مجموعة من الخيول والكلاب والقطط والطيور الملونة . وكانت فلورنس تشعر بأن كل هذه المسرات لا تهمها ، وترى أن الحياة فى بيت أبيها ليست الحياة التى تريدها لنفسها .

كانت تتمتع بقدر كبير من الجمال والخيال ، وكانت تهرب دائماً إلى عالم الأحلام .. وكانت تؤلف قصصاً تحكيها لنفسها ، وكانت تعطى لنفسها دور البطلة فى تلك القصص .. ولشدة إنغماسها فى عالم الخيال ، أصبحت تحس بعدم وجود أية علاقة تربطها بأمها .

وكانت الأختان " بارثى " و " فلورنس " تتلقيان دروسهما فى البيت على يدى الأب وإحدى المعلمات التى كانت تحضر إلى البيت لتعليم البنتين . وكان الأب يدرس لهما أصول اللغة والتاريخ . ولاحظ الأب منذ البداية أن " بارثى " غير مقبلة على تلقى الدروس وأنها كانت تفضل البقاء مع أمها فى غرفة المعيشة ، وذلك على عكس " فلورنس " التى كانت تفضل البقاء مع أبيها فى المكتبة لتلقى المزيد من العلم والمعرفة . وكان لهذا الإنقسام الذى حصل فى الأسرة نتائج غير سارة .

ويمكننا الآن أن نعرف الكثير عن المشاعر والأحاسيس الداخلية التى كانت تعتمل فى نفس " فلورنس نايتنجيل " لأنها كانت حريصة - منذ صغرها - على كتابة أفكارها ووصف مشاعرها . كانت تصب على الورق كل ما كان يدور بعقلها وكل ما يعتمل فى صدرها . وكانت تكتب على كل أنواع وأشكال ومقاسات الورق وقصاصاته . ومازال الكثير من هذه الوريقات محفوظاً حتى الآن ، ويمكن قراءة ما دونته فلورنس من أفكار ومشاعر فى هذه السن المبكرة ثم بعد ذلك فى مختلف مراحل عمرها .

• • •

وفى سن السابعة عشرة ، حدث شئ هام جداً فى حياتها .. شئ يشبه ما حدث من قبل للفتاة الفرنسية " **چان دارك** " . ففى إحدى الأوراق التى كتبتها فلورنس فى هذه السن نقرأ ما يلى : " **فى ٧ شباط (فبراير) ١٨٣٧ ، سمعت صوتاً ينادينى من السماء ويدعونى كى أكرس حياتى لخدمة الله** " .

ولم يكن الصوت حلماً من الأحلام ، وإنما كان صوتاً حقيقياً وصفته فلورنس بأنه كان صوتاً عالياً ينطق الكلمات بوضوح .

وربما نقول إن ذلك ليس غريباً بالنسبة لفتاة يافعة فى السابعة عشرة من عمرها وتعيش فى عالم من الخيالات والأحلام . ولكن فلورنس بعد أربعين سنة من هذا التاريخ كتبت فى مذكراتها أنها سمعت هذا الصوت أربع مرات خلال حياتها .

ولكن هذا الصوت الذى دعاها إلى أن تكرس حياتها لخدمة الله ، لم يوضح لها كيف تقوم بهذه الخدمة ، أو ما هو نوع هذه الخدمة بالضبط وكيفية ومكان أدائها .. وكانت فكرة التمريض بعيدة تماماً عن عقلها فى ذلك الوقت .. برغم أنها

كانت تحرص تماماً على أداء دور الطبيب لعرائسها ودماها ، كما كانت تعتنى بصحة حيواناتها وطيورها ، وتعطف كثيراً على الرضع والأطفال الصغار .

وكتبت فلورنس أيضاً ، أنها أصبحت تحس بالسلام النفسى بعد سماع هذا الصوت ، وأنها على يقين من سماع هذا الصوت مرة أخرى .

مرت سنوات عديدة قبل أن تتضح الأمور . وكانت سنوات كئيبة صعبة .. لقد سافرت إلى أوروبا فترة ، ولكنها كانت لا تستريح إلا فى لندن . برغم ما فيها من التعس وسوء التفاهم بينها وبين أمها وأختها .

وحدثت مناسبتان جعلتاها تؤمن بأن طريق حياتها هو الخدمة فى المستشفيات والعناية بالمرضى ؛ فقد مرضت جدتها لأمها فقامت برعايتها . كما مرضت سيدة عجوز أخرى كانت تخدم فى المنزل لمدة طويلة ، فقامت برعايتها هى الأخرى . ثم بدأت ترعى المرضى الآخرين من أهالى القرية التى كانت تعيش فيها .

وتعلمت فلورنس من هذه التجارب شيئاً هاماً ، هو أن التمريض أمر قاصر على النساء فقط ، ويجب على السيدة أو الفتاة التى تمارس التمريض أن تكون طيبة وعطوفة ولا تمل من مساعدة المرضى .

وقد إقتنعت فلورنس أيضاً بضرورة أن تكون الممرضة مؤهلة ومدربة على القيام بواجباتها وأن تعرف أيضاً متى وكيف تقوم بهذه الواجبات .. ولكن الأهم من هذا كله هو كيف تحصل هى نفسها على مثل هذا التأهيل والتدريب .

وفجأة خطرت بذهنها فكرة تتعلق بحل هذا الموضوع . فهناك على مسافة غير بعيدة عن بيتها توجد إحدى المستشفيات ؛ ومدير هذه المستشفى صديق لعائلتها ، وأن عليها الآن أن تطلب من العائلة أن تسمح لها بالعمل فى هذه المستشفى لمدة ثلاثة شهور تتعلم فيها التمريض .

وما أن أعلنت فلورنس رغبتها هذه لأسرتها حتى هبت عاصفة عاتية من التعس . فقد إستاء الأب وتكدر صفوه . فهل بعد كل هذا الجهد الذى بذله فى تعليمها .. وكل هذه السياحات فى أوروبا .. وكل هذه الملابس الجميلة الفاخرة التى إشتراها لها من باريس .. تأتى هذه الشابة الغريبة وتقول إنها تنوى أن تصبح ممرضة .. ؟! . أما أمها فقد وقع عليها هذ الخبر وقع الصاعقة .. أصابتها نوبة من الغضب ، ثم إنفجرت باكية ..

يا للمسكينة فلورنس .. لم يعد هناك أحد فى صفها .. كلهم أصبحوا ضدها .. لقد أحست بالضياع ، فقدت شجاعتها . وكتبت تقول فى هذه الفترة :

" لم أعد أجد مبرراً لإستمرار الحياة .. ولن أجد شيئاً آخر لأعمله .. إنى أقل شأناً من التراب .. ولا شئ على الإطلاق ... " ! .

وقد يكون من السهل أن نلوم والدى " فلورنس " لوقوفهما ضد رغبة إبنتهما ، ولكن يجب ألا نتسرع فى الحكم عليهما بذلك . ففى سنة ١٨٤٥ ، كانت المستشفيات من الأماكن المخيفة .. مملوءة بالقذارة والفوضى ، ومزدحمة بالمرضى والآلام ، وتنبعث منها روائح كريهة لا تطيقها الأنوف .

وهناك نحو خمسين أو ستين سريراً متجاورة بين كل منها مسافة ضيقة لا تتجاوز نصف المتر ، وجميع النوافذ مغلقة . وكان المرضى من أفقر الفقراء الذين يعيشون فى أفقر أحياء المدينة . وكثيراً ما كان المرضى يتصارعون ويتشاجرون فيما بينهم ، ويتعاطون الخمور ، وكثيراً ما كان البوليس يتدخل لفض المنازعات وإقرار النظام بالمستشفى ! .

وبالإضافة إلى كل هذه الأشياء السيئة ، هناك أسوأ الأشياء على الإطلاق .. الممرضات ! .. وهن نساء جاهلات لا يعرفن شيئاً عن التمريض .. أخلاقهن سيئة .

وتقول فلورنس إن رئيسة الممرضات فى إحدى المستشفيات الكبيرة ، ذكرت لها أنها لم تر طوال حياتها ممرضة لا تشرب الخمر حتى تسكر وتفقد وعيها ! .

ومرت ثمانى سنوات بعد أن أعلنت فلورنس رغبتها فى العمل كممرضة ووقوف أسرتها ضد هذه الرغبة .. وكانت سنوات صعبة ، لأنها مازالت مصرة على العمل كممرضة . والتفرغ كلية لهذه الخدمة .

وخلال تلك السنوات ، لم تغب المستشفيات عن ذهنها أبداً .. قرأت عنها كل ما وصلت إليه من الكتب والتقارير . وتعلمت من المرضى مظاهر وصفات الأمراض التى كانوا يعانونها . وكانت تقوم فى الصباح الباكر - حتى فى أيام الشتاء الباردة - لكى تواصل قراءاتها عن المستشفيات وأحوالها السيئة المتردية ، ولكى تزيد من حصيلتها من المعرفة بمختلف أنواع الأمراض ، ثم تنضم بعدئذ إلى أسرتها لتعيش معهم الحياة العائلية العادية .

وبينما كانت الأسرة فى زيارة لألمانيا فى إحدى المرات ، وبدون إذن من والديها ، عملت فلورنس فى إحدى المستشفيات .. وكانت فى كل يوم تزداد معرفة وخبرة بأحوال المستشفيات وأحوال المرضى . وفى الوقت نفسه كانت تزداد وثوقاً بنفسها ويقيناً بأن الأمل فى تحقيق رغبتها ليس بعيد المنال .

وفى ربيع عام ١٨٥٣ ، دعيت فلورنس للإشراف على ملجأ للعجائز من النساء الفقيرات اللاتى لا يملكن أجر العلاج بالمستشفيات . وكانت الجماعة التى تدير هذا الملجأ قد قررت نقل هذا الملجأ إلى بيت آخر ، وكانت فى حاجة إلى متطوعة لتقوم بهذا العمل ، ولتصبح مشرفة عامة على الملجأ .

وبدون موافقة أهلها ، إتفقت فلورنس على أن تقوم بهذا العمل دون مقابل ، ولكن بشرط أن توافق الجماعة على تنفيذ ما تراه وتقرره .

وكان أبوها قد خصص لها خمسمائة جنيه سنوياً كمصروف شخصى لها . وقد ساعدها فى أن تبدأ عملها الشاق على الفور .

أصبحت الآن تقوم بمئات الأعمال بهمة ونشاط ودون كلل من العناية بالمريضات إلى تلبية طلباتهن العديدة المتنوعة ، إلى إعداد الطعام ، وتسوية الأسرة والفراش ، إلى وضع الفحم فى المدفأة إلى آخر تلك الأعمال الشاقة . ولكنها مع ذلك كانت راضية وسعيدة بها .

وقد وصف بعض الأصدقاء حالتها فى تلك الفترة بأنها كانت شابة فارعة القد وجميلة ، تشع بهجة وأملاً ، ترتسم على وجهها إبتسامة عذبة حلوة ، وتحمل مشاعر الود للجميع .

أما السيدات المريضات فى هذا الملجأ ، فقد أحببنها حباً جماً . وقد عبرن عن هذا الحب فى بعض الخطابات التى أرسلنها إليها .. وهناك خطاب يقول :

" يا أعز إنسان وأطيب إنسان .. الآنسة نايتنجيل .. إنى أرسل إليكِ بعض سطور من الحب ... " . وهناك خطاب آخر يقول : **" شكراً لكِ .. لقد كنتِ شمسنا المشرقة التى تحنو علينا ... " .**

وبالإضافة إلى هذا الجمال والصفات الودية التى تميزت بها فلورنس نايتنجيل ، كانت تتميز أيضاً بعزيمة صلبة ، ولها قدرة فائقة على جعل الناس يتعاونون مع بعضهم وينظمون أعمالهم على خير وجه .

وكل ما قامت به فلورنس نايتنجيل حتى هذه اللحظة ، كان مجرد إستعداد لعمل كبير ينتظرها .. وكانت هناك أحداث كبرى على وشك الوقوع .. أحداث كان لها فيها دور هام لا ينسى ..

• • •

نشبت الحرب بين إنجلترا وروسيا . وأرسل الجيش البريطانى إلى القرم على البحر الأسود لمحاربة الجيش الروسى . وكان مقر قيادة الجيش البريطانى فى قرية " سكوتارى " وهى قرية كبيرة تقع بالقرب من إستانبول بتركيا .

وكان الجنود الإنجليز يحاربون بشجاعة ، وكان ينقصهم الكثير من المستلزمات ، بينها الخيام ، ويشكون من قلة الطعام ، ومن عدم وجود الأطباء أو الرعاية الطبية اللازمة لجرحى المعارك . وكان آلاف من هؤلاء الجرحى يسقطون دون أن يهتم بهم أحد ، وكان أغلبهم يموتون بسبب الإهمال فى معالجة جروحهم . فقد كان هؤلاء الجرحى يرقدون على الأرض فى صفوف طويلة دون أى طعام أو ماء أو علاج .

وسقوط الجرحى فى المعارك الحربية يعتبر شيئاً معتاداً فى الجيوش . ولكن الشعب الإنجليزى لم يكن يعلم شيئاً عن الحالة البائسة التى يعانى منها جرحى الجيش البريطانى فى حرب القرم ، إلى أن قام كاتب مشهور - من إحدى الصحف الهامة التى تصدر فى لندن - بزيارة لميدان الحرب ، ورأى الأحوال السيئة فى المعسكرات والمستشفيات الميدانية ، فوصف الكاتب كل ما رآه من أهوال ، ونشرت جريدته قصصاً مخيفة تقشعر منها الأبدان .

كان الجرحى يجبرون على الإنتظار لمدة أسبوع على الأقل قبل أن يفحص الطبيب جروحهم . وكانت هناك ما لا يمكن معالجتها بسبب عدم وجود الأربطة ، أو بسبب عدم وجود من يقوم بربط هذه الجروح .

وبمجرد نشر هذه المقالات فى الجريدة اللندنية ، غضب الشعب الإنجليزى غضباً شديداً .. وثارت عدة تساؤلات : لماذا هذا النقص الشديد فى الأطباء وفى المعدات الطبية .. ومن المسئول عن هذا الخطأ الكبير . وأخذ الشعب يلوم المسئولين فى الحكومة . وكان من ضمن الملومين شخص يدعى " سيدنى هربرت " وكان يشغل وظيفة حكومية هامة ، وكان فى نفس الوقت صديقاً " لفلورنس نايتنجيل " .

كان هذا الصديق يعلم أن فلورنس تعرف الكثير عن شئون المستشفيات وطرق رعاية المرضى ، فأرسل إليها خطاباً مفصلاً يعرض فيه أفكاره ، وذكر فيه :

" إن المستشفى الميدانى فى " سكوتارى " فى حاجة شديدة إلى ممرضات .. لأن الجرحى هناك يعانون كثيراً من عدم الرعاية .. وإنى أعرف أن هناك عدد لا بأس به من السيدات والآنسات يرغبن فى التطوع كممرضات ، ولكنهن لا يعلمن أى شئ عن التمريض وليس لديهن أية فكرة عن المستشفيات ، أو عن الواجبات المطلوبة منهن .. وإنى أعرف أن هناك شخصاً واحداً فى إنجلترا كلها يستطيع أن يقوم بحل المشكلة . هو أنتِ .. أنتِ وحدك تستطيعين أن تختارى هؤلاء الممرضات وتوجهيهن الوجهة السليمة لأداء عملهن على خير وجه .. وأنا أعرف أنها مهمة صعبة ، فما رأيك .. هل تقبلين القيام بهذا الواجب ؟ . وإنى على يقين بأنك ستقررين الأمر بحكمة .. وأدعو الله أن يكون جوابك بالموافقة ! " .

لبت فلورنس الدعوة .. وقامت بعمل كل ما فى وسعها لضمان نجاحها ، وإجتهدت لإعداد أول فرقة ممرضات وأعدت لهن ثياباً خاصة موحدة الشكل ورمادية اللون وخالية من الجمال أو الأناقة اللافتة .

ولما علمت أمها وأختها بأن الحكومة قد إختارت فلورنس لهذه المهمة الصعبة ، أسرعت الأم والأخت إلى لندن لمساعدتها فى إتمام إعداد الفرقة .

• • •

وصلت الفرقة إلى إستانبول ، ثم إلى المستشفى الميدانى للجنود الإنجليز الجرحى . إلا أن فلورنس ورفيقاتها صدمن فى الحالة السيئة التى وجدت عليها المستشفى ، إذ علمن أن عدد الجنود الجرحى الذين يموتون بسبب الأمراض التى أصيبوا بها فى هذا المستشفى ، أكثر من عدد الجنود الذين كانوا يموتون بسبب ما أصيبوا به من جروح فى المعارك الحربية ! .

لكن لم يرحب الأطباء إطلاقاً بوصول هؤلاء الممرضات وكانوا يقولون دائماً : من أحضر هؤلاء الممرضات ؟! .. وماذا يمكن أن تفعل مجموعة من النساء وسط الجنود الجرحى ؟! .

وظل أطباء الجيش على رفضهم لفريق الممرضات حتى تدهور الموقف فى

الحرب . وكان آلاف من المرضى والجرحى يرقدون على الأرض فى إنتظار الموت أو أى مصير تعس آخر .

وعجز أطباء المستشفى عن ملاحقة هذه الحالة المتدهورة ، فقرروا أخيراً الإستعانة بالآنسة نايتنجيل وفرقة ممرضاتها .

وما أن شرعت فرقة الممرضات فى العمل ، حتى حلت روح جديدة وبدأت الأمور تتحسن رويداً رويداً . وفهم الأطباء أخيراً أن هناك شخصاً واحداً فى " سكوتارى " كلها يستطيع أن ينقذ الموقف بما معه من نقود وأموال ، وبما فى شخصيته من قوة وقدرة على وضع الأمور فى نصابها السليم .. هذا الشخص هو الآنسة " **فلورنس نايتنجيل** " ! .

أخذت كل شئ على عاتقها ، فإستأجرت نحو مائتين من العمال قاموا بإنجاز العمل فى أقل وقت لعلاج الجرحى والمرضى فى أفضل ظروف ممكنة .

• • •

ظهر لفلورنس نايتنجيل أعداء فى كل من المستشفى والجيش .. ذلك لأن الأنباء التى كانت قد وصلت إلى إنجلترا عن سوء حالة الجنود وتدهور حالة المستشفيات الميدانية ، قد أثارت الكثير من مشاعر الغضب العام ، كما أثارت عاصفة عاتية من الشكاوى . الأمر الذى أدى إلى غضب كبار الأطباء وكبار الضباط فى " سكوتارى " فأخذوا يوجهون اللوم إلى فلورنس نايتنجيل ، ويكتبون التقارير ضدها وضد طريقة عملها ، وأخذوا يعملون على ترحيلها .

وقاومت فلورنس كل هذه المحاولات بعزم وصلابة . وواصلت أداء رسالتها فى رعاية الجنود : سواء المرضى منهم أو الجرحى أو الأصحاء ، وحرصت على محو أمية الجنود وأسست فرقاً للإنشاد وللتمثيل وللرياضة .

وبفضل كل هذه الجهود التى بذلتها فلورنس نايتنجيل ، تحسنت صورة الجندى أمام نفسه وأمام زملائه وأمام ضباطه وأمام المجتمع ككل .

إنتهت حرب القرم فى نيسان (أبريل) عام ١٨٥٦ ، وعادت فلورنس إلى بيتها بإنجلترا حيث حاول عشرات الآلاف من الجنود إستقبالها لتكريمها ، لكنها تخفت باسم مستعار وتفادت الحفاوة ، وجمع الشعب البريطانى مبلغ خمسين ألف جنيه ، قدموها لها هدية تقديراً للخدمات التى أدتها خلال الحرب ، وتسلمت

فلورنس هديتها لتقدمها بدورها لبناء " **بيت نايتنجيل** " ، لتدريب الممرضات بمستشفى " سانت توماس " وهو البيت الذى مازال قائماً يحمل إسمها حتى اليوم ..

• • •

وفجأة سقطت فلورنس مصابة بالحمى ، تلك التى نجحت فى إنقاذ حياة المئات منها .. وإشتدت عليها وطأة المرض ، ولكن شاء الله ألا يضع خاتمة لحياة هذه المرأة فى الميدان الذى وقفت فيه مناضلة مكافحة من أجل أن تهب لغيرها الحياة .. وشُفيت فلورنس من مرضها ، ولكنها كانت قد أصبحت حطاماً للمرأة الجميلة الرقيقة التى عرفها الجميع ، فقد فقدت شعرها ، وفقدت صحتها التى لم تستطع قط أن تستعيدها .

وواصلت كفاحها الذى إستهدف تحسين أحوال الجنود العاديين بالجيش ، وتحسين أجور وأوضاع الممرضات ، وأن تجعل من التمريض مهنة جديرة بالإحترام . وقد نجحت فى تحقيق هذين الهدفين إلى حد كبير ، ليس فى إنجلترا وحدها ، وإنما فى بقية أنحاء العالم المتمدين .

وقد ظلت " فلورنس نايتنجيل " تعمل لسنوات طويلة . وكرمها الملوك والملكات وكبار رجال الحكومة . وكان الأطباء والجهات الحكومية يلجأون إليها ليحصلوا منها على المعلومات والإرشادات الخاصة بتشغيل المستشفيات وما تحتاجه من ممرضات .

أما الممرضات أنفسهن ، والفقراء من الناس الذين وهبت حياتها لخدمتهم فقد كانوا أسبق الجميع فى الإعتراف بأفضالها وجمائلها .

وفى عام ١٩٠٧ كانت " فلورنس نايتنجيل " أول إمرأة تُمنح وسام الإستحقاق ، وكانت قد قاربت العام التسعين من حياتها الحافلة بالعمل . وضعف بصرها ، وبدأت تفقد ذاكرتها..

وماتت " فلورنس نايتنجيل " فى اليوم الثالث عشر من آب عام ١٩١٠ وتحت وسادتها رسالة صغيرة ظلت تحتفظ بها عدة أعوام طويلة منذ ذلك اليوم الذى عادت فيه إلى أرض الوطن بعد أن أدت رسالتها فى ميدان القتال إبان حرب القرم . وفضوا الرسالة فإذا بها تحمل توقيع ملكة بريطانيا ، وإذا بها تقول :

" سوف يسعدنى أن ألقاك عند عودتك يا عزيزتى ، فأنا أتوق للقاء هذه المرأة التى إستطاعت أن تضرب المثل الأعلى لكل بنات جنسها ! .. إننى أبتهل إلى الله أن يحفظك ويمتعك بالصحة ، وسأظل دائماً الصديقة الوفية لك ! " .

التوقيع

" فيكتوريا "

• • •

لقد بكت الملكة فيكتوريا عندما نقلوا إليها نبأ رحيل صديقتها عن الدنيا ..

أما " فلورنس " فقد توفيت بعد أن عثرت على الإجابة عن السؤال الذى طالما حيرها وهى تخطو أولى خطواتها فى الحياة .. " يا إلهى ، ماذا أنت صانع بى ؟ " .

وعلى قبرها نصب حجرى صغير ، كتب عليه : " ف . ن " .

(ولدت ١٨٢٠ .. توفيت ١٩١٠)



شخصيات لا تنسى ..

(٢) لودفيك زامنهوف

برغم معارضة أبيه !

المكـان : مدينة (بيالتوك) فى بولندا .

الحـدث : ولد " لودفيك زامنهوف " لأبوين متوسطى الحال .

الزمـان : ١٥ كانون الأول (ديسمبر) عام ١٨٥٩ .

الموقف : نزاعات ومشاحنات كثيراً ما كانت تؤدى إلى معارك حقيقة تسيل فيها دماء المتشاجرين من الروس والبولونيين والألمان وغيرهم .

وهكذا شب الصغير " **لودفيك** " وسط هذا الجو غير المريح الذى لا يوفر للطفولة الطمأنينة والأمان ، لكن أمه عوضته بحنانها فى السنوات الأولى من عمره ، وغمرته بحبها وعطفها داخل جدران المنزل ، وكأنها أرادت أن تعطيه جرعة كافية من الأمان ليواجه بها ظروف المجتمع من حوله حين يخرج للحياة خارج الدار ، بعيداً عن الأهل .

كان " لودفيك " مثالاً للجد وللإجتهاد والذكاء لما إلتحق بالمدرسة الابتدائية ، وأظهر شغفاً بتعليم اللغات المختلفة ، ثم إنتقل " لودفيك " من (بيالتوك) إلى وارسو مع والديه بسبب تعيين والده مدرساً فى إحدى مدارسها العالية .

وإلتحق " لودفيك " بعد الإنتهاء من مدرسته الابتدائية ، بإحدى المدارس الثانوية وظلت معه محبته للغات حتى أجاد منها ، وهو فى المرحلة الثانوية : الفرنسية - الروسية - الألمانية - اليونانية - الإنجليزية .

ومما ساعد " لودفيك " على تعلم هذه اللغات أن الحى الذى كان يقطنه فى وارسو ، كانت تسكنه جماعات من الروس والألمان واليهود وغيرهم .

ومن خلال الملاحظة أدرك " لودفيك " أن الخلافات التى تنشأ بين هذه

الجماعات ترجع إلى جهل فريق منهم لغة الفريق الآخر ، ومن هنا راح يحلم ليل نهار بإيجاد لغة عالمية مشتركة يكون تعلمها سهلاً على الجميع .

وكثيراً ما تساءل : هل يمكن بعث إحدى اللغتين الكلاسيكيتين الإغريقية واللاتينية لتحقيق الأمل المنشود ؟ .

لكنه سرعان ما تخلى عن تلك الفكرة لقدم هاتين اللغتين وصعوبتهما ، فإنتقل إلى اللغات الحديثة ، ولكنه أدرك أنه بإختياره لأى لغة من اللغات الحية ، فإن ذلك سيجره حتماً إلى منازعات دولية حادة ، وستبقى المشكلة كما هى ، ذلك بأن الدول ستغار من بعضها البعض ؛ فإذا إستعمل لغة أمة دون لغات الأمم الأخرى ، فإن ذلك سيثير حفيظة تلك الأمم ، ولذلك نزع هذه الفكرة من رأسه .

واصل " لودفيك " تفكيره ، وإعتكف فى غرفته وهو مُصِرّ على إبتكار لغة جديدة تفوز برضى الجميع ، فتكون بسيطة وسهلة وتحمل مقومات الإستمرار والبقاء ، حتى تصبح ، مستقبلاً ، على مستوى عالمى ، تستفيد منها شعوب العالم كله . ووسط إعتكافه لمح بصيصاً من النور ! .

إكتشف " لودفيك " أن هناك كلمات مشتركة فى عدد من الألسن ، تتشابه منها الأشكال المألوفة لكل معنى من المعانى . فأدخلها فى لغته الجديدة ، وراح يتهجأ كل كلمة تهجئة صوتية ، محاولاً - قدر الإمكان - أن يكون للكلمات وقع محبب على السمع وفى النفس .

ووضع " لودفيك " ستة عشر قانوناً للغته الجديدة بحيث تفى بالأغراض اللغوية والنحوية جميعاً ، أما القاموس الخاص بلغته الجديدة هذه فلم يكن قاموساً ! . وإستعاض " لودفيك " عن المفردات بوضع حروف تضاف إلى أوائل الجذور وأواخرها .

وإنتهى " لودفيك " أخيراً من إنجاز إختراع لغة عالمية لكل البشر وهو فى التاسعة عشر من عمره ! .

لكن هذا الإختراع العظيم ظل حبيساً ! .

رفض والد " لودفيك " كل جهود إبنه ؛ ونصحه بترك " تلك الأوهام والخيالات ومضيعة الوقت ! " ، وأصدر أوامره لإبنه بالإنصراف إلى دراسته ومستقبله .

ولم يشأ الإبن معارضة أبيه لحد القطيعة ، وإنما حاول أن يشرح لوالده اللغة الجديدة ، لكن الوالد كان يرفض ويهدد ويتوعد فى كل مرة .

وسافر " لودفيك " إلى موسكو حيث درس الطب ، ومكث هناك عامين ، ثم سافر إلى وارسو لزيارة الأسرة ، وطلباً لبعض المال الذى يعينه على الدراسة ، وفجع " لودفيك " عندما وجد أن والده أحرق كل المخطوطات والمستندات التى وضعها للغته الجديدة ، ولا أحد يقدر كم كان حزنه وألمه عظيمين ؛ إذ كان يرجو أن يكون والده سنده الأول لدعم إختراعه فإذا به على النقيض من ذلك ! .

ومن بعد الوالد ؟ . إذا خاب أمل الشخص فى أقرب الناس إليه فكم يكون الشعور باليأس بعد خيبة الأمل ؟ ! .

ولم ييأس " لودفيك " ؛ فعاود تسجيل كل ما حوته ذاكرته ، حتى وضع اللغة العالمية " سبرانتو " من جديد ، على حين لم يهمل دراسة الطب التى نجح بتفوق فيها .

وبدأ " لودفيك " بترجمة بعض المؤلفات الكلاسيكية ذات القيمة ، إلى اللغة الجديدة وبين الأعمال التى ترجمها ، بعض روايات وليام شكسبير ، كما ترجم بعض أسفار الكتاب المقدس بعهديه القديم (التوراه) والجديد ، وبذل جهده فى المحافظة على جمال ما يترجمه بالإضافة إلى حرصه على المعانى .

كما عكف " لودفيك " على التأليف نثراً وشعراً لكى يمد لغته الجديدة بالدم اللازم لحياتها ، وقد إنتهى من كل هذا عام ١٨٨٦ م . وهو العام نفسه الذى تخرج فيه " لودفيك " من كلية الطب وتخصص فى أمراض العيون ، كما تزوج من شابة ناضجة متفتحة تحبه كثيراً .

وفى الوقت الذى كان والده يعارض مشروع هذه اللغة الجديدة ، كانت زوجته تشجعه ، بل إنه لولا تشجيع زوجته ، لما إستطاع أن ينشر كتابه فى اللغة العالمية ، وشمل ذلك الكتاب القواعد الأساس لتلك اللغة والتمرينات الخاصة اللازمة لها والترجمات التى تمت بها ، والمفردات الواردة بها ... إلخ .

وخرج الكتاب للنور باسم مؤلفه : الدكتور " لودفيك سبرانتو " وسرعان ما وجد ذلك الكتاب الفريد طريقه إلى الأوساط الفكرية ، ولقى الإقبال من جمهرة المثقفين .

ونشطت المراسلة بين " د . لودفيك " وبعض مشجعى لغته الجديدة ، ومنهم الأديب الروسى " تولستوى " ، وتم إعادة طبع الكتاب بعدد من اللغات ، وحرص المؤلف على تنازله عن جميع حقوق النشر ، وأهدى أثره اللغوى للعالم أجمع .

وبذلك أصبحت اللغة العالمية ملكاً لكل من يود استعمالها .

وفى السنة التالية نشر " لودفيك " كتاباً ثانياً باللغة الجديدة ، فكثر مؤيدوه فى كل بلاد العالم لدرجة أن بعضهم بدأ يترجم ويؤلف باللغة الجديدة .

وفى عام ١٨٨٩ م أصدر " لودفيك " مجلة جامعية بهذه اللغة فى مدينة نورمبرج الألمانية ، وأصبح لها قراء فى أقطار عديدة من العالم ، كما أخذ عدد المتحدثين بهذه اللغة يتكاثر يوماً بعد آخر برغم الصعوبات المالية التى إعترضت سبيل تلك اللغة إلى الإنتشار . وقد بقيت المجلة تصدر حتى عام ١٨٩٥ حين منعت الرقابة الروسية دخولها روسيا حيث كانت سوقها رائجة رواجاً عظيماً فى روسيا .

وزاول " لودفيك " خدمة المرضى ، لكنه إكتشف أن المداواة تكلف غالياً ، وأن الفقراء عاجزون عن التداوى والتطبب ؛ فكان يعالج مرضاه ويرفض أن يتقاضى أى أجر من المعوزين ، ثم ركز جهوده على تقوية حركة " الإسبرانتو " فى أوقات فراغه .

قضت سلطات روسيا - موطن القياصرة - على " الإسبرانتو " بعد أن حاربتها لما رأت فيها منافساً للغة الروسية نتيجة ترجمة أعمال تولستوى للغة " الإسبرانتو " ، وفى الوقت نفسه إحتضنت كل من إنجلترا وفرنسا اللغة الجديدة ، كما نالت تأييد وعطف عدد كبير من الكتاب والمثقفين فى أنحاء العالم ؛ فصدرت عام ١٩٠٤ م صحيفة " بالإسبرانتو " فى إنجلترا ، وكانت تلك الصحيفة تعبر عن أتباع اللغة الجديدة فى إنجلترا ، كما عقدت سلسلة من المؤتمرات فى كل من " كاليه " بفرنسا ، و " دوفر " بإنجلترا وكلها تهدف لدعم اللغة الجديدة .

ثم عقد مؤتمر فى " بولون " بفرنسا عام ١٩٠٥ شارك فيه نحو ٧٠٠ شخص من أقطار العالم ، وكلهم تحدثوا باللغة الجديدة التى كانت اللغة الرئيسية

بالمؤتمر ، وإلتقى " د. لودفيك " بالمؤتمرين ، فكانت فرصة طيبة لمزيد من دعم اللغة الحديثة .

وأعقب مؤتمر " بولون " نحو خمسين مؤتمراً دولياً حول اللغة الجديدة ووسائل تشجيعها ونشرها كلغة تخاطب لسكان الكرة الأرضية .

ولم يكف " د. لودفيك " عن جولاته فى عواصم وبلدان العالم لتحقيق ذلك الهدفَ .

ويمكن أن يقال أن " د. لودفيك " قضى حياته مكرساً لخدمة البشرية ، لأنه لشدة حرصه على سلام العالم وإمكانية تحقيق تفاهم عميق ، جاهد فى سبيل إختراعه الذى أفاد منه الساسة والمسافرون والتجار والعلماء والعامة على السواء .

ولم يبخل " لودفيك " صاحب اللغة العالمية ، بجهده حتى بعد مرضه الذى أصيب به فى بداية الحرب العالمية الأولى ، وتوفى متأثراً به فى ١٧ من نيسان (أبريل) عام ١٩١٧ م .

وكان " لودفيك " يتمنى أن يرى الهيئة الدولية " عصبة الأمم " تتبنى قضية لغة واحدة لكل الشعوب ، حيث أصدرت عام ١٩٣٢ م تقريراً أوصت فيه بإستخدام هذه اللغة العالمية ، كما درج مكتب العمل الدولى منذ ذلك الوقت على نشر تقاريره ومختلف نشراته " بالإسبرانتو " أسوة باللغات الأخرى .

ويزيد المتحدثون بهذه اللغة عن العشرين مليون شخص فى مختلف جهات الدنيا .

لكن السؤال الذى يطرح نفسه :

هل كف البشر عن التنازع والحروب بعد أن قدم لهم " لودفيك سبرانتو " لغة واحدة لجميعهم ، وكان حلمه هو تحقيق التفاهم والرقى فى التعامل ؟ ، أم أنه إذا أطل من قبره بعد نحو مائة عاماً على موته ، لذرف الدمع على الدنيا التى مازالت تعانى من التطاحن والحروب ؟ ! .

شخصيات لا تنسى ..

(٣) روبين جراهام

من مذكرات : شاب مغامر

" كانت الفكرة تراودنى كلما مررت بنهر أو جلست على شاطئ بحر .. كنت أهيم بجمال المياه وسحرها وأنا أتابع إضطراب الأمواج ، وكأننى أمام عالم مثير ومجهول يدعونى للكشفه ! .

ورفضت أن تظل فكرتى رهينة أحلام أو أوهام . فعزمت أن أركب البحر وأشق عباب المحيط وحدى فى رحلة طويلة حول العالم ، برغم أنه لم يسبقنى أحد - فى مثل سنى - إلى مثل هذه المغامرة وكان ذلك حافزاً لى على تنفيذ فكرتى ! " .

فضّل (**روبين جراهام**) حياة البحر وإضطراب أمواجه على صخب المدينة وضوضائها ، وقرر أن يضحى بدفء الحياة وسط الأسرة والأصدقاء فى مدينة لوس أنچيلس الأمريكية ، ليقوم بمغامرته الخطيرة حول العالم ، وإعتبر إختياره لمغامرته تحدياً لكل مفاهيم ومقاييس العالم من الشجاعة والجرأة والنجاح .

وكان إصراره على خوض غمار التجربة بلا رفيق أو مساعد هو تأكيد للتحدى الذى إختاره ليحقق به ذاته ويحرز بسببه نجاحاً يختلف عما ألفه الناس من حوله ، إذ أراد ألا يرتبط أى إسم آخر بإسم (روبين جراهام) فى قصة نجاح مغامرته .

وفعلاً لمع إسم (روبين) وذاع صيته حتى قبيل أن يشرع فى رحلته ؛ فقد تابعه مندوبو ومصورو الصحف ووكالات الأنباء للإطلاع على تفاصيل الرحلة

الجريئة ، كما إنهالت عليه العروض من دور النشر تغريه بمبالغ كبيرة من المال نظير نشر مذكراته بعد أن ينتهى من مغامرته عبر المحيط . . .

كان (روبين) فى السادسة عشرة من عمره حينما غادر مدينة " لوس أنجيلس " فى قاربه الشراعى المجهز بالخرائط والمئونة والمعدات التى رأى أنها سوف تعينه على الصمود فى مغامرته فى البحر .

وكان وداع (روبين) حاراً من الجموع التى إحتشدت لتشجيعه وهم يصفقون ويهتفون له .

• • •

وسجل (روبين) فى مطلع مذكراته هذه الكلمات :

" أخذ القارب يبتعد شيئاً فشيئاً عن شاطئ " لوس أنجيلس " وظهرت تلك المدينة المزدحمة التى تعج بالحياة وكأنها شبح باهت أو أطلال تبكينى وتنتظر بشوق ولهفة يوم عودتى إليها " .

وإنطلق (روبين) فى ثقة يحقق حلم صباه وغاية أمنياته . . ومع أول ميل قطعه بعيداً عن مدينته ، أدرك أن الطريق صعبة فقد واجه الرياح وتقلبات البحر . . ولكن طموحه وثقته بنفسه دفعاه أن يصادق الموج ويأنس لسكون الليل .

لكن شعوره بالوحده كان يطارده ليلاً ونهاراً ، وعن ذلك كتب روبين فى مذكراته :

" كان شعورى بالوحدة يفوق فى مرارته وقسوته خطورة الأعاصير وثورة الأمواج ، كان شعوراً مقبضاً حاولت الإفلات منه ، ولم أستطع ، كنت أشعر ببرودة تجتاح أعضائى . ووجدانى . . . أدرك الآن حاجتى لرفيق يسرى عنى ويشجعنى " .

لم يفت (روبين) تسجيل كل دقائق رحلته من مشاهدات وصعوبات وأحوال جوية مستعيناً بجهاز تسجيل حيث سجل بصوته كل مذكراته قبل أن ينقلها إلى الورق ، ونجح بالفعل فى تسجيل أغرب مغامرة لأصغر مغامر عرفه البحر ! .

كانت إحدى جزر هاواى بوسط المحيط الهادى مرساة روبين الأولى بعد إبحاره لمدة ٢٢ يوماً ، وفوجئ أن أناساً كثيرين إحتشدوا لإستقباله ولتهنئته

بنجاحه فى أول مرحلة من مغامرتـه ، وكـان هو مشتاقاً للقاء النـاس ، فقد علمتـه وحدتـه بـالبحر كيف يشتاق أن يصافح أحداً ، وكيف يشتاق أن تطـأ قدماه تـراب أرض .

وواصل (روبين) رحلته صوب الجنوب الغربى تجاه خط الإستواء بعد أن مكث بالجزيرة ثلاثة أسابيع وإطمأن فيها إلى سلامة محركات قاربه وجدد المئونة من الطعـام ، وإتجـه إلـى مرسـاته الثانيـة وكانـت جزيـرة " فـاننج " (Fanning) وهى جزيرة مرجانية خلابة المناظر بوسط المحيط الهادى .

ويصف (روبين) شعوره قرب وصوله إلى شاطئ هذه الجزيرة بقوله :

" كم كانت سعادتى بوصولى إلـى هـذه الجزيـرة وقـد أقبلت فتيـات الجزيـرة بسلال الزهر والورد والخبز والفاكهة من الموز والبابـاظ . . كـان إبتـهـاج النـاس فى كل جزيرة أرسو فيها ، وحديث النـاس عن شجاعتى ، يؤكدان ثقتـى بنفسـى ويدعوانى للإستمرار حتـى آخر الطريق . . لذا فقد كنت وأنـا فـى عرض البحر أتعلق " بسراب " أو ظلال تنبئ بإقترابى لجزيرة . . ؛ فالجزيرة بالنسبة لى هـى الأمان والدفـء والتشجيع والطعام الشهى الطازج . . . " .

واصـل (روبـين) رحلتـه بإصـرار وعـزم كانـا يبقيانـه يقظـاً أيامـاً بجملتـها لا يغمـض لـه جفن ، خـشية أن تباغتـه ريـح أو تقذف بـه عاصـفة . أمـا إذا إستـشعر سـلاماً أو مهادنــة مـن البحـر فكـان لا يتـردد فـى أن يغفـو بـضع سـاعات ليـستعيد نشاطه وحيويته .

ولما أشرف (روبين) على الوصول إلى جزيـرة " سـاموا " (Samoa) دار قاربه دورة كاملة حول نفسه إثر هبوب عاصفة عاتية كـادت ترديـه حطامـاً يهـوى إلى الأعماق . .

وقد كتب (روبين) :

" تحطم شراع القارب ، وأوشك المحرك أن يتداعى ، وبالرغم مـن أننــى كنـت علـى مقربـة مـن الجزيـرة وألمـح شـاطئها مـن بعيد ، فقـد بـدا لـى الوصـول إليـها مستحيلاً ، وحـاولت جاهداً التحكم فى القارب .. وكـان الحـظ معـى فنجحت فـى أن أدفع بالقارب فى إتجاه الجزيرة وأن أصل به سالماً قبلمـا يتوقف المحـرك .. وقد

كانت سعادتى بوصولى هذه المرة تفوق كل مرة .. فلم أدرك قيمة حياتى إلا عندما شارفت على فقدانها ! " .

ومكث (روبين) بتلك الجزيرة " ساموا " نحو خمسة أشهر ، إنتهى خلالها من إعداد قاربه وتجديده وشحنه بالمعدات والمئونة اللازمة لمواصلة الرحلة .

ثم أبحر إلى إحدى جزر " فيجى " (Fiji) (تضم ٢٥٠ جزيرة) ، حيث إلتقى بفتاه طموحة مثله وتهوى حياة البحر ، وبرغم أن لقاءه و " باتى " تم فى " فيجى " ، فإن موطنها الأصلى هو لوس أنجيلس مثله ..

وإتفقا على الزواج الذى عقدت مراسيمه فى ساحل أفريقيا الجنوبية عقب وصولهما إليه .

وخشى (روبين) على زوجته من أخطار البحر فإفترقا على أن يلتقيا فى كل مكان يرسو فيه برغم ما فى ذلك من قسوة على كل منهما .

واصل (روبين) رحلته حتى وصل إلى ميناء " دربان " على خليج ناتال بالمحيط الهندى وهى بجنوب أفريقيا ، وهناك إستقبله حشد من المصورين والصحفيين ، وحكى لهم كيف تعرض قبل أن يبلغ " دربان " لأقسى موقف فى رحلته :

" إرتفعت الأمواج وحاصرتنى وكدت أفقد وعيى فى أثناء محاولاتى للثبات ، فقد كان القارب الصغير يتأرجح ، وشاركت السماء البحر فى ثورته ، فطفقت تبرق وترعد ، ثم إنهمرت الأمطار الغزيرة ، وأدركت أنه لا جدوى من خبرتى بالبحر فى مثل هذا الموقف العصيب ، أصبحت ضعيفاً ، وهربت ثقتى بنفسى ، وتخلى الحظ عنى ، ورأيت أن أستسلم لحتفى ؛ فليس من سبيل لإنقاذى من هذا المصير المحتوم بين السماء والمحيط .. وإنكمشت فى ركن من القارب مترقباً لحظة الإرتطام بعمق المحيط ...

وفى قمة يأسى وذعرى لاح بخاطرى فكر غريب ..

لماذا لا أصـرخ إلى إله السمـاء فيعيننى ؟ .

أليس هو الله رافع السموات وخالق البحر ؟ .

ألا يطيع كل منهما أمر خالقه بالسكـون ؟ .

ووجدت نفسى أصرخ مستغيثاً :

" نجنى يارب فلا أغرق

أنقذنى فلا يغمرنى سيل المياه

يا خالق الكون ، أنت سيد الكون

إرحمنى من الهلاك الذى يحدق بى " .

وإستجاب الله لإستغاثتى ؛ فهدأ البحر وتوقف الرعد والبرق وكف المطر عن الهطول .

وهنا أدركت ما لم أدركه طوال عمرى ؛ لم تكن قوتى أو ثقتى بنفسى وبخبرتى هى التى تحفظنى ، لم يكن الحظ هو الذى ينجينى وإنما كانت يد الله البارئ .. أدركت فى ذلك اليوم أن الله قريب من كل اللذين يدعونه .. الذين يدعونه بالحق ... " .

وأدرك (روبين) أن الشهرة لا تستحق أن تكون الهدف الأول فى الحياة . . لدرجة أنه فكر فى الإنسحاب دون أن يكمل رحلته . . أصبح الآن يتوق للإستقرار والدفء والتأمل ، وفكر أن يضع نهاية لرحلته ويدفع بقاربه إلى عمق المحيط ، إلا أن الرياح لم تطاوعه وأبى القارب إلا أن يبحر فى الإتجاه المخطط له من قبل ! .

وأدركت " باتى " صعوبة الصراع الذى يعتمل فى نفس زوجها فلحقته مع مجموعة من أصدقائه فى زورق صغير ، ورافقته لأميال معدودة ، وعدته بعدها أن تلقاه فى أول مرسى له .

وتم لقاؤهما فى " سورينام " حيث أفصح لها (روبين) عن رغبته فى ألا يتقدم فى مغامرته حتى نهايتها .. وأنه يكفيه الثلاث السنوات التى قضاها فى الإبحار وحده وأن الحنين يشده إلى حياة الإستقرار والأمان فى المدينة ، لكن زوجته شجعته على قطع الشوط حتى نهايته ، كما كان الآلاف من هواة المغامرات والبحر ، الذين كانوا ينتظرونه عند كل منطقة رسو ، يشجعونه على إستكمال رحلته .

وذكر (روبين) فى مذكراته :

" كانت باتى والصحفيون والمصورون وآلاف من هواة المغامرات والبحر

يدفعوننى لإستكمال ما بدأته ، الأمر الذى أفقدنى شعورى بالحرية التى دفعتنى يوماً إلى بدء الرحلة ، وأنا أعترف أننى أرسف الآن تحت وطأة قيد من نوع محبب . . يقيدنى ويحرمنى لذة المغامرة . . " .

ثم أضاف (روبين) فى مذكراته :

" وكان لهم ما أرادوا . . وأكملت الرحلة التى إستغرقت خمس سنوات . وبذلك تنتهى القصة . . قصة المغامر الذى غادر مدينته فى السادسة عشرة يبهره بريق النجاح والتركيز على الشهرة وحب الذات . . وعاد إلى مدينته وقد صقلت رجولته أهوال البحر والريح والخطر . . . " .

ورغم الشهرة الواسعة التى حازها (روبين) بعد أن ظلت دور النشر تكتب عن بطولته لعدة سنوات ، فإن (روبين) لم يشأ أن يقضى بقية حياته فى المغامرات المماثلة ، وإنما فضل أن يعيش حياة هادئة مع زوجته وإبنه فى منطقة ريفية بولاية مونتانا الأمريكية ينعم بالدفء وبحياة الإستقرار التى تاقت نفسه إليها بعد خمس سنوات من المغامرات المثيرة .

ويختتم (روبين) مذكراته :

" إن النجاح الذى أحرزته فى مغامراتى ، هو نجاح للناس من حولى . . أما أنا فقد نجحت فى مغامرة من نوع آخر . . لقد أدركت أننى موضع إهتمام الخالق وحبه وعنايته . . إننى طالما رفضت فكرة وجود الله بجانبى وعشت حياتى فى مدينتى أعتمد على ذاتى . . لذا فقد فكرت أن أخلد نفسى بإقتحام أصعب أنواع المغامرات . . وأبت رحمته - سبحانه - إلا أن ينتشلنى ويهدينى .. فى وسط المحيط صرخت إليه فإستجاب لى ، لقد أدركت مع " باتى " زوجتى أنه ليس هناك ما يسمى الحظ . . وإنما هى عناية الله القوى القادر على كل شئ ، فهو الذى ينقذ ، ويعين ، ويحفظ ويهدى " .



شخصيات لا تنسى ..

(٤) فنسنت فان جوخ

سبعة أشخاص فقط في جنازة هذا الرجل !

صمد بلا يأس ، وأكوام اللوحات ترتفع حوله .. والفقر يعزبه ويشروه . فقد أنتج خلال ستة أعوام ٧٠٠ رسم بألوان الماء ، و٨٠٠ لوحة بألوان الزيت دون أن يجد من يشترى من بين كل اللوحات ال ١٥٠٠ إلا لوحة واحدة لا يمكن لثمنها أن يكفى غذاءه الضرورى ...

أحبها منذ أول يوم تعرف عليها ؛ فتاة فى التاسعة عشرة من عمرها ، ذات فم باسم وعينين واسعتين ووجه بيضاوى دقيق القسمات وجسد نحيل رقيق .

أعجبه فيها إبتسامتها التى تضئ وجهها ، كان يرى فى تلك الإبتسامة مظلة عالية ملونة يتخللها شعاع ينتشر على وجهها ، كما أعجبته رشاقتها وهى تؤدى عملها فى مدرسة حضانة الأطفال ، تطل عليها نافذة حجرته التى كان يستأجرها ليعيش فيها فى إحدى ضواحى لندن ، وكانت حجرته تشترك والحضانة فى الحديقة المحيطة . إزدهرت الحياة فى عينيه عندما إقترب لفتاته ، وكان هو يكبرها بعامين ، وتصور بأن تستمر سعادته بمحبوبته طوال العمر بأن تستمر **(أورسولا)** بجانبه .

كانا يتناولان طعام الإفطار معاً فى حديقة الحضانة فى بعض أيام الأسبوع ، وفى ذات صباح وقبيل تناولهما الإفطار بعد أن أعدت مائدة الإفطار ، وشعرها الأسود الليلى المخملى لا يعرف أين يستقر وإبتسامتها الوضاءة تملأ وجهها الصبوح : **" فنسنت ، لعلك تود أن تلقى نظرة قبل أن تذهب إلى عملك على**

زهرتك المفضلة فى ركن الحديقة ؛ فقد تفتحت اليوم بعض الشئ ، إنها تبدو رائعة ! " .

وذهبا معاً إلى الزهرة المفضلة فى ركن الحديقة ، وكانت أشجار التفاح قد أثمرت وإنحنيا على الزهرة ودق قلبه عالياً فى صدره فرحاً (بالزهرتين) .

ووجد " **فنسنت فان جوخ** " نفسه يقول : **آنسة أورسولا** ... فرفعت رأسها من الإنحناءة على الزهرة ، وقد إرتسمت إبتسامة خجول على فمها .. وسمعته يقول : " أنا ... أنا ... " .

وهبت واقفة وهى تضحك : يا عزيزى .. لا أدرى ماذا تود أن تقول ؟ .. وحاولت أن تذهب .. ولكنه أمسك بذراعها وهو يقول : " **الليلة الماضية .. فكرت فيك طويلاً ... وخطر لى أن أسميك : الملك ذا الخدود الممتلئة ! " .**

فأطلقت ضحكة عالية قائلة : " **ملكَ ! " . سوف أخبر أمى بهذا الأسم الجديد !** . وإنفلتت من قبضته وجرت وصدى ضحكتها يرن فى أذنيه وهى تعدو عبر الحديقة المزهرة المثمرة نحو مقر إقامتها وأمها ، فى الناحية الأخرى من حديقة الحضانة .

إن كل من عرف " فنسنت " قبل أن يعرف " أورسولا " ظلمه بأنه متعجرف ، بسبب إنطوائه الشديد وإبتعاده عن الناس ، ولكن " أورسولا " أخرجته من قوقعة الإنطواء وأحيت فيه الشعور بأن يكون مشهوراً ومحبوباً ، بل إنها ساعدته على أن يرى الجمال والبهجة فى كل تفاصيل ودقائق الحياة اليومية .

وهكذا عاش " فنسنت ڤان جوخ " الذى يعتبر أحد أشهر الرسامين الهولنديين (١٨٥٣ - ١٨٩١ م) أيام عواطفه .. عواطف الفنان المضطرمة ، برغم تردده الكثير فى البوح بمشاعره لفتاته ...

وحدث أنها كانت تعلق إحدى لوحاته بالحضانة . . وجاهد ليبوح لها بمكنون نفسه . . وهم بأن يهمس لها . . إلا أنه إرتعد . . وتعثرت الكلمات . . وساد الصمت . . ثم جمع كل ضوابط نفسه وقال لها : " **أعتقد أنه يهمك أن تعلمى أنى رقيت إلى وظيفة أحسن وسأحصل على علاوة ثانية فى العام نفسه . . " .**

فقالت أورسولا : " **أفصح عن غرضك بالضبط يا مسيو ڤان جوخ " .**

فأضاف فى جهد : " **لعلك تشعرين بحبى لك ومدى عمقه ، وسأكون فى قمة سعادتى لو وافقت على زواجى منك** " .

وفوجئت " أورسولا " بتلك الكلمات وعلا صوتها وهى تقول : " **زوجتك ؟ ، إن هذا مستحيل .. من الغريب أنك لا تعلم أننى مخطوبة منذ أكثر من عام .. كنت موقنة أنك تعلم ؛ فإننى مخطوبة منذ أكثر من عام .. ويجب أن نكون صديقين فحسب !** " .

وأخبرته أن خاطبها يقيم فى مقاطعة ويلز البريطانية وأنه سيحضر إليها فى الصيف ليقضيه معها . ولم يقتنع فنسنت بهذا الرد وقال لها .. " **إذن أنت لم تريه منذ عام .. فأنت بذلك تكونين قد نسيتيه .. وأنا الشخص الذى تحبينه الآن** " .

وجذبها إليه فى قوة . . ولكنها حاولت التخلص منه وهى تهدده بالصراخ لطلب النجدة ثم أسرعت تجرى فى الممر المظلم فى الحديقة وهو يعدو وراءها ولما وصلت سلم مسكنها وأمها ، إستدارت إليه وقالت :

" **يا أحمر الشعر يا أحمق !** " .

كانت تلك الكلمات بمثابة اللطمة على وجه " فنسنت " ، لكنه لم يرضخ للهزيمة وصمم على إقتلاع ذلك الخاطب من رأسها .

لم يعرف طعماً للطعام ولا للنوم طوال الأسبوع التالى الذى حاول خلاله أن يراها لكنها إمتنعت عن الإنفراد به ثم قابلته لتبلغه قرار المسئولين عن دار الحضانة بأن يبحث له عن غرفة مفروشة أخرى إذ أنها تحتاج لتلك الغرفة ليقيم فيها خاطبها فى أثناء الصيف . وأكدت أم " أورسولا " المعنى نفسه إذ قالت له : " **من الأفضل لنا جميعاً لو غادرتنا إلى مكان آخر . .** " .

وإضطر " فنسنت " إلى ترك الحجرة ومغادرة المكان وكل بريطانيا ، وسافر إلى بلده هولندا فى إجازة بعد تلك الصدمة العاطفية التى أثرت فيه تأثيراً شديداً ، فأصبح شاحباً وإزداد نحولاً ، وقضى أيامه منفرداً وحيداً يجوب المروج والحقول يتأمل الزرع والشجر والبحيرات ويقضى معظم وقته فى رسم لوحات تمثل الطبيعة من حوله .. محاولاً أن يبتعد بقلبه عن التفكير فى " أورسولا " ... دون أن يتنبه إلى أنها فتاة لعوب إستدرجته لحبها وهى مشغولة بآخر ! .

وبعد إنتهاء إجازته ، عاد إلى لندن واستأجر حجرة ، وواصل عمله فى المحل

الذى كان يعمل فيه من قبل ، لكن العذاب كان يتربص بـه كل مساء إذ عاوده الحنين لرؤية " أورسولا " ، فيحاول كبح مشاعره ويقرر النوم لكن السهاد يرغمه على السير فى شوارع لندن حتى تقوده قدماه نحو بيت " أورسولا " حيث يقف على مقربة منه دون أن يجرؤ على الدخول ، وبعد أن يتعب من الوقوف يعود بخفى حنين إلى حجرته وقد أعياه الإخفاق والسهاد مما أثر على نجاحه فى عمله وجعله أكثر عصبيه وضيقاً بالزبائن الذين كانوا يقصدون المحل لشراء اللوحات الفنية .

وجد فنسنت سلواه فى أحد كتب " **إرنست رينان** " المؤرخ الناقد الفرنسى (١٨٢٣ - ١٨٩٢) فكان يقرأ فى إحدى صفحاته الكلمات التى تقول : " **لم يخلق الإنسان على هذه الأرض ليكون سعيداً أو أميناً فحسب ، إنما ليدرك أيضاً المشاعر الإنسانية العظيمة ، ليكون نبيلاً ، ليهزم الشر الذى يتجه نحوه معظم البشر** " .

وعند حلول عيد الميلاد رأى " فنسنت " منزل " أورسولا " مضاء ، وأصوات الضحكات تجلجل بداخله ، فأسرع إلى حجرته وتأنق وعاد إلى منزلها ففى هذا العيد لابد أن تسرى روح التسامح والمحبة بين الناس . ودق باب " أورسولا " . فسمع وقع خطوات حبيبته إليه .. وفتح الباب وغشى الضوء وجهه ونظر إلى " أورسولا " التى ازدادت بهاءً وجمالاً فصاح : " **أورسولا** " .

لكنها صاحت فيه : " **ما الذى أتى بك إلى بيتى ؟ ، إنصرف حالاً** " . **ثم صفقت الباب فى وجهه .**

عاد " فنسنت " أدراجه حزيناً بائساً إلى حجرته ، وفى صباح اليوم التالى ترك عمله وإتجه إلى هولندا حزيناً .. بائساً .. وحاول والده أن يقنعه بالدراسة فى سلك اللاهوت ليصبح قسيساً مثل والده ومثل كثيرين من أبناء عائلته .. لكن قلبه كان مشغولاً بأورسولا فرفض فكرة والده وعاد من جديد إلى إنجلترا حيث أسفر سعيه عن الحصول على وظيفة معلم ببلدة " رامسجيت " وهى ميناء صغير يبعد عن لندن بمسافة يقطعها القطار فى نحو خمس ساعات .

كانت مهمته بالمدرسة أن يعلم التلاميذ اللغات ويشرف على القسم الداخلى بها نظير مأكله وإقامته فقط دون أن يتناول أى أجر . و " رامسجيت " كانت بلدة كئيبة ، لكنها كانت توافق مزاجه الحزين .. وفكره الملتاع بذكرى " أورسولا "

الرافضه لحبه ! .

وكانت الفكرة التى تسيطر على " فنسنت " أن " أورسولا " لم ترفضه لوجود شخص آخر فى حياتها وإنما رفضته لقصور فيه عليه أن يعالجه ثم يقصدها من جديد ، لذلك لم يهتم يوماً بإقتراب موعد زفاف محبوبته إلى خاطبها .

وذات مساء شده الحنين لرؤية " أورسولا " ولم يكن معه نقود ليركب القطار ، فقرر الذهاب إلى بيتها فى لندن سيراً على الأقدام برغم السماء الملبدة بالغيوم ، وواصل سيره تحت إنهمار المطر الغزير والعواصف العاتية التى بللت ملابسه وجعلتها تلتصق بجلده . . وبرغم ذلك واصل السير وكافح حتى وصل أخيراً إلى بيت " أورسولا " .

وأمام منزلها سمع موسيقى .. ورأى إنبعاث الأنوار من كل الحجرات وعرف من حوذى سأله أن بالداخل حفل زفاف ! .

وبعد قليل إنفتح باب المنزل الخارجى وظهرت العروس " أورسولا " ومعها رجل ممشوق القامة وتبعهما أشخاص كثيرون وسط ضحكات وصيحات سعيدة وحبات الأرز تنثر حول العروسين .

ولاذ " فنسنت " بالجانب المظلم من إحدى عربات موكب العروسين ، وصعدت " أورسولا " وزوجها إلى العربة نفسها ، ورقع الحوذى بكرباجه . وسارت الخيول فى بطء .. وسارت العربة تاركة نصلاً حاداً فى قلب " فنسنت " الذى أدرك الحقيقة للمرة الأولى .. وهنا عرف أنه لا أمل .

وبعد أن تمالك نفسه بعض الشئ لملم مشاعره وبقايا قواه البدنية وعاد إلى حجرته فى بلدة " إيلسورث " تحت المطر المنهمر ، ثم جمع كل ما له هناك .. وغادر إنجلترا إلى غير رجعة ! .

عاش فى هولندا بعض الوقت والهم يعتصر قلبه .. وتعلم مما تألم به كيف يشعر بآلام الآخرين ويشاركهم إياها .. وقرر أن يعمل بين عمال منجم للفحم بقرية صغيرة فى بلجيكا وعايش هؤلاء العمال ورأى مظاهر البؤس والشقاء التى يعانيها العمال وعائلاتهم ، وعمل على رعايتهم ومساعدتهم ، لكنه مرض بالحمى ، فجاء أخوه لزيارته ثم سافر به إلى بلاده لعلاجه وللعناية به .

وفى هولندا كرس وقته للرسم .. وكانت الطبيعة وحيه ...

ثم دعاه أخوه الأصغر ليعيش معه فى ريف الجنوب الفرنسى ، وكان شقيقه هذا يحبه ويفضله على نفسه ، فتكفل بمصاريف رحلته . وكان " فنسنت " يقدر صنيع أخيه الأصغر وعكف على الرسم دون أن يشغله شاغل حتى يتمكن من رد الجميل لشقيقه الذى كفل له معيشته وإقامته .

لكن الشعور بالوحدة والقلق عاوداه ، وكان يسجل مشاعره المتألمة فى خطابات لشقيقه وقد إعتبرت تلك الرسائل ثروة أدبية حيث تنساب مشاعره ويتحدث عن هزيمته وإنتصاره ووحدته وعزمه على الإنتصار على اليأس .

وفى عام ١٨٨٨ إنهار " فنسنت ڤان جوخ " صحياً وزادت ذبذبات مخه الإنفعالية مما دعا الناس فى وقته إلى وصفه بأنه مجنون ، على حين يصف علماء الطب ويؤكد التاريخ أنه كان مريضاً بالصرع الذى أصيب به عدد من الموهوبين بينهم نابليون ، وقيصر ، والإسكندر ، وإبن سينا ، كما عانى من الصرع من الرسامين " جوجان " و " ڤان جوخ " .

وتعتبر مرحلة الإنهيار الصحى " لڤان جوخ " مرحلة قاسية أخرى من حياته فأنتج الكثير من اللوحات فى تلك المرحلة . . وبرغم أن تلك اللوحات تقدر بالملايين من الدولارات وجلبت له الشهرة فيما بعد ، فهى لم تعد عليه بالنفع المادى . . لكن إهتمامه لم يكن بالنقود بل كان همه الأول بعد أن فشل فى حبه أن يتفهم الحياة ويعيشها ويرسمها . . كان أمل يراوده بأن ينتج فناً رفيعاً يفهمه كل الناس ويعشقونه فيشعرون بالرضا .

وكان " لفنسنت ڤان جوخ " الفنان العالمى صاحب المدرسة التأثيرية فى الفن بعض الأفعال غير المألوفة فإذا به يرسل أذنه بعد أن قطعها بالموس إلى إحدى الفتيات التى أبدت إعجابها بتلك الأذن ! .

وأودع " فنسنت " مصح الأمراض العقلية ، لكنه واصل بها الرسم ، وظل مريضاً قرابة العامين ثم مات منتحراً بالرصاص فأنهى بذلك حياة العذاب والقلق والوحدة ولم يسر فى جنازته سوى سبعة أشخاص ! .

وحقق بعد وفاته شهرة واسعة كفنان عالمى ، كما تقدر لوحاته الألف وخمسمائة بملايين الدولارات لكنه كان غنياً عن كليهما فى حياته لأن أمله كان فى حبه لفتاته ، ولما سحق ألم الإخفاق قلب الفنان عاش بفنه لكل الناس ، وعرفه كل الناس على مر العصور ! .



شخصيات لا تنسى ..

(٥) جوستاف دالين

فلاح من السويد

ولما دخلت السفن السويدية والأجنبية الخليج فى ذلك اليوم ، هدأت سرعتها ونكست أعلامها ، حداداً على الرجل الذى أنار لها الطريق ! .

المكان : إحدى المزارع بالريف بالسويد .

الزمان : عام ١٨٦٩ .

الحدث : مولد " **جوستاف دالين** " ، الذى شب ونما وسط المزارع . وأصبح شاباً قوى البنية ، سخى العطاء بمعوله وفأسه ، للأرض التى أحبها ، وأحب من عليها ، فسخر ذكاءه من أجل راحتهم ، وعزم بإرادته الصارمة على النجاح من أجل النور والسلامة لكثيرين فى بلاده ، وفى كل بلاد الدنيا ! .

وبرغم أن " دالين " كان فلاحاً ذكياً إلا أنه كان يكره أن ينهض فى الصباح الباكر ، ويصر على النوم تسع ساعات كاملة كل ليلة ، لكن الأصوات خارج حجرته كانت تصل إلى مسامعه فيضطر للإستيقاظ مبكراً عن الموعد الذى يريده ، ففكر فى حيلة ، وهى أنه إخترع جهازاً لإطالة مدة النوم ! .

جهز " دالين " ساعة قديمة بحيث تدير بكرة فى وقت معين وجعل البكرة تشعل عود ثقاب ، والثقاب يوقد مصباح زيت ، بفضل ترتيب دقيق للحبال والروافع ، وعلق فوق المصباح إبريق قهوة ، وبعد خمس عشرة دقيقة من إبتداء هذا الجهاز فى العمل ، تحرك الساعة مطرقة تدق على لوح من الحديد ، فيستيقظ جوستاف ، ويفتح عينيه على غرفة مضاءة وقهوة تم إعدادها ! .

إلا أن جهاز (الإيقاظ المتأخر) هذا لم يكن أول اختراع لدالين ، ففى عامه السادس عشر إخترع آلة لدرس محصول القمح وإعتمد فى إختراعه هذا على

عجلـة قديمـة للغـزل ، وتمكـن بواسـطتها أن ينـزع القـشر عـن البقـول المجففـة بالإضافة إلى القمح .

أما إختراع " دالين " الثالث فكان آلـة لفحص اللبن الحليب وإختبـار صـلاحيته ونـسبة دسـمه ؛ فحمـل " دالـين " الآلـة إلـى ستوكهولم العاصـمة الـسويدية حيـث عرضـها علـى **" ده لا فـال "** المختـرع المشهور لعـازل الزبـد عن اللبن الحليـب ولما إستقبله " لافال " وفحص الآلة التى إخترعـها ، دُهش لتوافق أفكـاره وأفكـار " دالين " ، وأطلعه على تصميم آلة تكـاد تكـون مطابقـة لآلـة فحـص اللبن الحليب التـى عرضـها عليـه " دالـين " ، وأبلـغ " لافـال " " دالـين " بأنـه تقدم بالفعل إلـى الهيئة المختصة بتسجيل إختراعه لآلته المشابهة لآلة " دالين " .

ولما طلب " دالين " من " لافال " أن يعمل معه فى مختبره (معملـه) وافق " لافال " عن أن يتم إلتحاقه بالعمل معه بعد أن ينتهـى مـن دراسته . ولمـا كانـت المعاهد الدراسية غير متوفرة فـى ذلك الوقت فـى قرى الـسويد ، حـزن " دالـين " لإضطراره إلى البقاء لفلاحة أرض العائلة إذ كان كل أخوتـه قد نزحـوا من بلدتـه إلى المدينة طلباً للعلم والعمل بعيداً عن الريف .

وكـاد " دالـين " يقنـع بحيـاة الفـلاح البـسيط الـذكى ، المكتفـى بإختراعاتـه التـى يستخدمها فى حياته المرتبطة بالأرض لولا غرامه بفتاه وخطبته لها ؛ فقد أعربـت عن رغبتها فـى أن يلتحق بأحد المعاهد العلمية فـى المدينـة لينمـى قدراتـه ، وهذا جعله يرغب أكثر فـى الهندسـة . ولمـا بلـغ " دالـين " الثالثـة والعشرين مـن عمـره غـادر الحقل وإلتحـق بمعهـد فنـى ، وبعـد أن تخـرج فيـه بمرتبـة الـشرف ، غـادر السويد إلى سويسرا ليتلقى دراسة عليا .

وأمضى " دالين " خمسة أعوام فى تلك الدراسة زاد فيها ولعه بالآليات وكـافح فى دراسته الجادة المضنية حتى أصبح أهلاً للعمل فـى مختبـرات (معامـل) " ده لافال " ؛ فإتجه إلى ستوكهولم وإلتحق بالعمل مـع " لافـال " ، وتـزوج الفتـاة التـى إنتظرته بإخلاص ووفاء .

وتحول مسكن الزوجية الخاص به بستوكهولم - مع الأيام - إلـى أشبه مـا يكـون بالمختبر ، أكثر مما يبدو بيتاً فقد كان " دالين " يقضـى كل دقيقة من أوقات الفراغ فى تجاربه .

وعاود عقل " دالين " اللامع المتوثب الحنين للإختراع ! .

تابع التقارير التى تنشرها الصحف عن المنائر التى تستخدم لإرشاد السفن إلى شاطئ السويد الوعر ؛ فقد كانت كل منارة تستلزم أن يكون فيها مسكن للحارس وأسرته ، ورصيف للزوارق تنقل إليه المؤونة ، بل كان لابد أيضاً من تسهيلات مدرسية خاصة للأطفال . ولم تعجب " دالين " حالة المنائر ووسيلة إضاءتها ، وأخذ يفكر : كيف تتم إضاءة المنائر أوتوماتيكياً ؟ . كيف يستغنى عن الحارس المقيم بها وتعمل بدونه ؟ . وفكر " دالين " فى إضاءة المنائر بغاز الإسيتلين الشديد الإنفجار ! .

وإنكب على دراسة الفكرة وتنفيذها حتى جرّب بنجاح إختراعه فى عام ١٩٠٥ حين وصل جهاز إبتكره بأنبوبة غاز الإسيتلين ثم أشعل عود الثقاب وراح ينتظر وهو مضطرب ، فإنبعث أولاً صوت ، تبعته ومضة ضوء ساطع ، تلتها ومضات أخرى بعد فترة منتظمة على نحو ما كان يبغى .

وهكذا تم له إختراع الضوء الأوتوماتيكى ، وبلغ من إتقان هذا النموذج الأول ، أن الأمر لم يكن فى حاجة إلا إلى تغييرات بسيطة .

ولم تعد المنائر فى حاجة إلى حراس ، ولما كان هذا النور لا يضئ بإستمرار فإن إختراع " دالين " خفض إستهلاك غاز الإسيتلين بنحو ٩٠ % وصارت أوعية الغاز تكفى للإضاءة عشرة أمثال المدة السابقة ، وأصبح زورق واحد يتكفل بتعهد هذه الأنوار العديدة ، ليملأ الأوعية مرة كل بضعة شهور . وتيسر وضع الأنوار فى مواضع خطرة لا داعى للذهاب إليها إلا بعد فترات طويلة .

وبرغم ذلك التوفيق الذى حالف إختراع " دالين " إلا أنه لم يقنع به تماماً ، فقد رأى أنه يستهلك من الغاز أكثر مما ينبغى ، لأنه يومض طوال النهار كما يومض طوال الليل .

وإهتدى " دالين " إلى الحل ! . إخترع صمام الشمس ! .

وصمام الشمس هذا يعتمد على قانون الطبيعة الذى يتبعه الناس حين يلبسون الملابس البيضاء فى الصيف ـ ذلك القانون الذى يقول أن السطح الأبيض أو السطح المصقول جيداً يعكس حرارة الشمس ، على حين يمتص السطح الأسود حرارة الشمس . لذلك جعل لصمام الشمس ثلاثة قضبان معدنية مصقولة للغاية ومعها قضيب واحد أسود ؛ ففى النهار يمتص القضيب الأسود من الحرارة أكثر مما تمتص القضبان البيض ، فيحدث ذلك تمدداً غير متساو يؤدى إلى تحريك

ذراع تسد الثقب الذى يمر منه الغاز إلى الضوء وبذلك ينطفئ النور نهاراً ، أما فى الظلام فإن القضبان الأربعة كلها تتقلص على إستواء فينفتح الثقب مرة أخرى .

ولما سمع " **توماس أديسون** " بهذا الإختراع قال : " لن ينجح ! " كما وصفه مكتب التسجيل الألمانى بأنه " مستحيل " .

ونجح الإختراع ! . وبنجاح ذلك الإختراع تظل تلك الأنوار مضيئة على مدار العام بلا عناية أو تفقد . على أن " دالين " لم يقنع حتى بهذا ، لأن غاز الإسيتلين معروف بأنه شديد الإنفجار وسريعة أيضاً ، وكثيراً ما أدى إلى حوادث خطيرة .

ودفع ذلك " دالين " إلى إجراء تجارب أخرى بمعاونة مساعديه فإهتدوا إلى مادة ذات مسام عناصرها الرئيسية من الإسبستوس والدياتوما الإسفنجية التى تمتص الغاز ثم توزعه توزيعاً متعادلاً بواسطة إسطوانة بمقادير ضئيلة تحول دون الإنفجار . وبهذا أصبح إستخدام غاز الإسيتلين فى أعمال اللحام مأموناً للمرة الأولى .

أصبحت إختراعات " دالين " ذات شهرة ذائعة فى عام ١٩١٢ م وفاز بعقد لإنارة قناة " بناما " مما زاده فخراً بنفسه .

وبدأ " دالين " يحصد ثمار سهر الليالى للإنكباب على البحث والتجارب ، كما بدأت ظروفه المالية تزدهر تعويضاً عن الأيام التى كان ينفق فيها النسبة الأكبر من دخله على أبحاثه وتجاربه ، فأصبح يعيش فى بحبوحة من العيش هو وزوجته وأبناؤه ، فإنتقلوا إلى دار جميلة تطل على ميناء ستوكهولم .

وأصبح " دالين " حديث العلماء المتخصصين فى جميع بلاد العالم ، فقام بزيارته إثنان من المهندسين الأمريكيين للبحث معه فى المسائل المتعلقة بالأمن والسلامة فى إستخدام الإختراع الخاص بصمام الشمس ومدى الأضرار التى قد تلحق بمجمع الإسيتلين فى حالة نشوب حريق ، فأكد " دالين " لهما بأنه " لا خطر على الإطلاق إذ أن موانع الخطر محكمة " .

وللتيقن من أمن وسلامة الإختراع تم إجراء تجربة ، فأضرموا ناراً هائلة بين الصخور وعلقوا فوقها إسطوانات مملوءة غازاً ، فأدت موانع الخطر وظيفتها على أكمل وجه - فى أول الأمر - غير أنه لوحظ فى التجربة الخامسة أن ضغط

الغاز يقل ، (وتبين فيما بعد أن أحد الصمامات كان به عيب) - وإنتظر " دالين " ومساعداه ساعة ثم إقتربوا من النار التى بدأت تخمد ، فلما إقتربوا منها إنفجرت إسطوانة إنفجاراً قوياً سمع صوته من على بعد عدة أميال .

ونجا المساعدان بأعجوبة دون أن يصيبهما شئ يستحق الذكر ولكن كتلة ملتهبة وقعت على " دالين " وكادت تنزع إحدى حدقتيه من محجرها . وأسعفه الناس وأخمدوا ثيابه المشتعلة بأيديهم العارية . وفى المستشفى كاد الأطباء يفقدون الأمل فى إنقاذ حياته ، لكنه شفى ، فيما عدا بصره الذى فقده برغم محاولات شقيقه (ألبين) الذى كان آنذاك أكبر طبيب للعيون بالسويد .

ولم يثبط فقدان " دالين " لبصره عزمه ، فواصل عمله طوال الخمسة والعشرين عاماً التى عاشها بعد الحادث الذى أودى بالنور من عينيه وأصبح فى ظلام ، فى الوقت الذى صارت فيه " مصابيح دالين " الأتوماتيكية تمنح النور لجميع سواحل العالم وموانئة البحرية والجوية .

واصل " دالين " بعد فقد بصره عمله كمدير شركة الإسيتلين المشهورة ، وكان يدهش المساعدين له حين يصفون له الرسوم الآلية ، أن يروه يفطن إلى المواضع التى تحتاج إلى إصلاح .

وكان منحه جائزة نوبل عام ١٩١٢ يمثل جزءاً من عرفان المجتمع الدولى بجهوده فى خدمة الإنسان ، فإن كل ربان سفينة يتحسس طريقه فى المسالك الخطرة ، وكل طيار يجتاز الطرق الجوية التجارية ليلاً ، وكل لحَّام يمسك بمشعل اللحام المضطرم ، مُدين بسلامته لفضل (جوستاف دالين) .

وصار " دالين " أحد الساسة الكبار فى السويد ، وكانت الحكومة تستشيره فى أمور كثيرة ، وأصبح حضوره مألوفاً فى الحفلات الرسمية ، وكان يبدو فيها مرحاً مشرق الوجه ، وعلى عينيه نظارة سوداء هى كل ما يدل على أنه لا يبصر .

وفى يوم ٩ ديسمبر عام ١٩٣٧ خفضت السفن السويدية والأجنبية سرعتها وتوقفت منكسة أعلامها أمام داره المطلة على الميناء تحية وحداداً على وفاة " دالين " ، فى ذلك اليوم الذى شهد وفاة " دالين " الذى عاش فى الظلام ربع قرن من عمره لكى يمنح النور للآخرين ! .



شخصيات لا تنسى ..

(٦) جورج جوردون بايرون

الرجل الذى قال : إستيقظت فجأة فوجدت نفسى مشهوراً !

وأصبح نجماً فى المجتمع ، وسارعت المعجبات من النساء يطلبن وده ، إعجاباً بشِعره وجماله الفائق ورشاقته النادرة ، لكن إرتماء بعضهن تحت قدميه زعزع ثقته بأى إمرأة وآمن بأن المرأة محرومة من مبادئ الشرف والحب والإخلاص ! .

المكان : مدينة لندن .

الزمن : ٢٢ من كانون الثانى (يناير) من عام ١٧٨٨ م .

الحدث : ميلاد طفل جميل من عائلة معروفة تحمل لقب اللوردية .

كان والد الطفل ملقباً " بجاك المجنون " ، وكانت أمه عصبية حادة الطبع سريعة الغضب ؛ يفلت زمامها كثيراً فتحطم كل ما تصل إليه يداها من تحف وأوان وغيرها ! . وهكذا كانت أيام المهد الأولى **" لجورج جوردون بايرون "** أياماً غير هادئة بين أبوين هذه خصالهما ! .

مات أبوه بعد أربعة أعوام من مولده ، ولم تكن أمه بقادرة على منحه حنان الأمومة ؛ فقد كانت تثور عليه لأتفه الأسباب وتضربه وتصرخ فى وجهه . أصيب الطفل " جورج " بشلل الأطفال وشب أعرج ، وظل كذلك طوال حياته ، وكانت أمه تعيره بعرجه .. فينظر الطفل إليها بأسى ويقول : " وما حيلتى فى ذلك يا أماه ! " . وشب جورج فى ظروف قاسية لحرمانه من أهم غذاء للطفولة أى الحنان ، كما حُرم من الظروف المالية الملائمة لتنشئته ، فقد ترك الأب لأمه

ديوناً أجبرتها على الإنتقال بعد وفاته إلى شقة متواضعة وعلى العيش فى تقشف شديد مع وحيدها الصغير .

ألحقت الأم جورج بمدرسة تناسب حالة الفقر التى تعانى معه منها ، وبالمدرسة زادت آلامه فكان التلاميذ يسخرون من عاهته ، فيجرى وراءهم دون أن يستطيع اللحاق بهم ، ثم يعود من المدرسة منكسر الفؤاد ليعانى من قسوة أمه ، فلم يكن يجد من يشكو همه إليه .

ولما بلغ العاشرة من عمره ، توفى عمه فورث اللقب وأصبح " لورد بايرون السادس " السيد على منطقة نيوستيد ومالكاً لضياع روشديل الشاسعة . وقررت الأم أن تعيش معه فى ممتلكاته الجديدة فسافرت معه ومربيته إلى نيوستيد ، ولكن سرعان ما تركته إلى لندن وبقى اللورد الطفل مع مربيته ولم تكن أخلاقها طيبة ؛ فكانت تضربه وتصحبه معها إلى الحانات .

• بايرون شاعرا فى الثالثة عشرة ! :

وفى سن الثالثة عشرة خفق قلبه المحروم من العطف ، لإحدى قريباته الجميلات التى عطفت عليه وهى " مارجريت باركر " لكنها توفيت بعد تعارفهما ، فسجل أول أبيات شعره فى رثائها :

حينما ذهبت لأزور قبر مارجريت

وأنثر الورود على تراب من أحب

هدأت الرياح ، وسكن الليل ،

وأبى النسيم أن يداعب الأشجار

وفى حفير ضيق رقد جسد

تفجر يوماً بالحيوية والشباب

إلتحق " بايرون " بعد ذلك بمدرسة " هارو " وقد كانت تلائمه كلورد فتلاميذها من أبناء النبلاء ، إلا أن بايرون لم يكن سعيداً بتلك المدرسة أيضاً ، فبرغم جمال شكله فهو مصاب بعرج يلفت إليه أنظار أصدقائه وزملائه ، كما أن أمه لا تزال تعامله بقسوة وتضربه وهو البالغ من العمر خمسة عشر عاماً ، مما

جعلـه يكـره العطـلات الأسـبوعية التـى يتـرك فيهـا المدرسـة الداخليـة ، ويـضطر لزيارة أمه ! .

وفى السابعة عشرة من عمره إلتحق بكليـة " ترينتـى " بجامعـة كمبـردج وكـان ذلك فـى تشرين الأول (أكتـوبر) عـام ١٨٠٥ م . وإستأجر " بـايرون " شقة فـى كمبـردج وإستقل عـن أمــه هربـاً مـن قسوتها لكـن أصـدقاء الـسوء مـن زملائـه بالجامعة إلتفوا حوله مما جعلـه يكتسب عـادات جديدة مثل إحتساء الخمـر ولعب الميسر والإنغماس فـى اللذات بكل جوامحهـا وبخاصـة النساء ، مستغلاً فـى ذلك جماله الذى خلقه الله عليه ، والأموال التى ورثها عن عمه .

لكن إنغماس " لورد بـايرون " فـى اللذات ، مـلأ ضـميره وقلبه بـالحزن والألم وشعر بالوحدة والكآبـة تخيمـان علـى حياتـه .. وأدرك أن أصـدقاء الـسوء طـامعون غيـر مخلـصين ، وأدرك خـواءً فـى حياتـه العاطفيـة فهـو بـلا حنـان أم ولا أب ولا شقيق أو صديق . وإعتـصرت الآلام " بـايرون " وفجـرت فيـه موهبتـه الـشعرية ، فإنطلق يكتب القصـائد ، ثـم جمعهـا فـى أول ديـوان لـه أسـماه " سـاعات الخمـول " وكان ذلك فى عام ١٨٠٦ . وأحدث ديـوان الـشعر هذا تـأثيراً سـحرياً فـى علاقـات " بـايرون " فقد أصـبح محـط إعجـاب زملائـه فـى الجامعـة ، فبدأوا يتقربـون إليـه وبدأ ينفق ببذخ علـى المعجبين والمعجبـات ممـا أدى إلـى تورطـه فـى ديـون كثيـرة وعلاقات مشبوهة .

حصـل " لـورد بـايرون " علـى درجـة الماجستير مـن جامعـة كمبـردج فـى عـام ١٨٠٨ م أى وهو فى العشرين من عمـره وهـى الـسن القانونيـة آنذاك فـى إنجلتـرا لكـى يصبح مسئولاً عن نفسه وعن ممتلكاتـه التـى ورثهـا عن عمـه ؛ فسافر إلـى نيوسـتيد ليتـسلم ممتلكاتـه ويتـصرف كيفمـا يـشاء ، وتـم لـه مـا أراد وواصـل حيـاة المجون واللذات مما جعله يعيش بـلا صـديق وفـىٍّ سوى كلبـه " بوتـسوين " الـذى أخلص له طوال حياته حتى مات الكلب بداء الصرع .

لم يعجب " لورد بايرون " رأى النقاد فى ديوانه " ساعات الخمول " فرد علـى ناقديـه بقـصيدة عنوانهـا : " الـشعراء الإنجليـز والنقـاد الإسـكتلنديون " قـال فـى مقـدمتها : " **سـوف أكتـب وأنـشر خطـأ أو صـواباً .. وإتخـذ مـن الحمقـى موضـوعات ، وأجعـل الهجـاء أنـشودة** " ، ثـم تنـاول بـالهجوم والهجـاء غالبيـة الشعراء المعروفين هناك وبينهم : وردز ورث ، وتومـاس مـور ، وكولوريدج ...

وغيرهم مما أثار الرأى العام ضده فإضطره لمغادرة البلاد فى جولة إستغرقت عامين زار خلالها البرتغال وأسبانيا واليونان وألبانيا .

ثم عاد " اللورد بايرون " مرغماً إلى لندن ليبيع قصره فى نيوستيد لسداد ديونه المتراكمة ، وزار أمه بناء على رجائها ولفظت أنفاسها بمجرد رؤيته ، فإرتمى بجوار جثمانها وهو ينتحب عليها نادماً على هجرانه لها فى شيخوختها ومرضها .

وفى آذار (مارس) من عام ١٨١٢ صدر الديوان الثانى لبايرون وأسماه " **أسفار الطفل هارولد** " وتعكس القصائد به مشاعره وأحاسيسه فى أثناء جولته . وإستجاب القراء لديوان " بايرون " الثانى فسارعوا لإقتنائه للإستمتاع بقراءة ما به من أشعار حزينة ، جريئة ، ساخرة ، إنسانية ، وطنية .. إلخ .. بل إن الكل حاولوا أن يروا الشاعر الشاب (٢٤ عاماً) صاحب ديوان " أسفار الطفل هارولد " ؛ فقد رأى الشبان فيه مثلاً أعلى ، ورأت الفتيات فيه فتى الأحلام ، وبدأ الأمراء يتوددون إليه بولائمهم فى قصورهم .

وهنا بدأ الشاعر الشاب يشعر بقيمته وقال عن نفسه : " **إستيقظت فجأة فوجدت نفسى مشهوراً !** " .

وأصبح نجماً لامعاً فى المجتمع ، وسارعت النساء يطلبن وده ، بل إن " ليدى كارولين لامب " زوجة " وليم لامب " وإحدى النجمات المشهورات فى إنجلترا فى ذلك الحين طاردته تعرض عليه هواها ضاربة بالأمانة الزوجية والأخلاق عرض الحائط .. وظل قلب " بايرون " يحقد على عشيقته (ليدى كارولين لامب) ويكرهها بل إنه كره كل النساء وتزعزعت ثقته بكل النساء لدرجة أنه آمن بأن المرأة محرومة من مبادئ الشرف والحب والإخلاص ! .

ولم يجد " بايرون " فى الدنيا سوى أخته غير الشقيق ، أخته من أبيه ليرسل لها خطابات يشكو لها همومه ووحدته . ولما وصلت أخته " أوجستا " إلى لندن علق عليها أملاً كبيراً ، وفعلاً وجد فيها هدوءاً مستحباً وروحاً مرحة ، إلا أن علاقته بها أصبحت شاذة محرمة ، مما ألب عليه مجتمعه وزوجته التى تزوج بها بعد بدء علاقته بأخته طمعاً فى مال الزوجة لسد ديونه وطمعاً فى أن ينقذه هذا الزواج من ألسنة الناس حول علاقته الشائنة بأخته .

وفشلت الزوجة فى إصلاح حال زوجها ، فقد ظل على علاقته بالخطيئة مع أخته ، وظل بذخه ومجونه وإستهتاره ، حتى بعد أن أصبح أباً أطلق إسم أخته

على طفلته الوليده فأسماها : " أوجستا آدا " أى أوجستا الأخرى ، ثم إعترته حالة متكررة من الهياج خشيت الزوجة أن يكون جنوناً ، لكن الأطباء شخصوا حالته بأنها أخلاق شريرة وطباع حادة ورثها عن عائلته وتمادى فيها فى ظل شهرته ! .

ولم تجد الزوجة وسيلة للخلاص من عذابها بالحياة معه سوى الإلتجاء إلى بيت والديها وهناك شكت حالها لهما لأول مرة وقررت معهما عدم العودة إليه برغم محاولاته إثنائها عن عزمها . وأصيب " بايرون " بخيبة أمل ، فقد عودته زوجته الطيبة أن تتحمل خصاله الشاذة ولم يتصور يوماً أن صبرها سينفد ! .

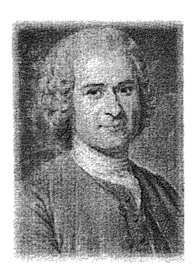
ولم يكن أمام " بايرون " سوى مغادرة إنجلترا بغير رجعة ، فغادر وطنه إلى الأبد فى فجر يوم ٢٤ من نيسان (إبريل) عام ١٨١٦ م . ولم يتمالك نفسه فزرفت عيناه دموع الفراق مع الحنين للوطن .

وبعد جولة فى أوروبا إستقر به المقام فى سويسرا ، ثم البندقية حيث صادق مجموعة من رعاع المجتمع نساءً ورجالاً وأهمل صحته فأصيب فى كبده من كثرة الخمر وذبل وجهه فأصبح كالعجوز فى حين لم يكن قد جاوز الثلاثين .. لم يكن " بايرون " سعيداً فى جولاته ؛ يرحل من بلد لأخرى طلباً للسعادة المفقودة ، رغم أنه " اللورد بايرون " الشاعر الشاب المشهور ! .

أخيراً إستقر فى اليونان فى وقت كانت تحارب فيه اليونان الأتراك للحصول على إستقلالها فقرر أن يخصص بقية حياته لمساعدة اليونان لتحقيق هدفها فباع كل ما يملك وقطع علاقته بالنساء والخمر وإرتدى الملابس العسكرية وقاد الجيش وحقق إنتصارات . ورغم إنشغاله فى خوض المعارك مع اليونانيين ، فقد كان الحنين يراوده شوقاً لرؤية زوجته وإبنته ويحلم بالحياة الزوجية السعيدة معهما .. ولكن تحقيق ذلك كان مستحيلاً ! .

مرض " لورد بايرون " ، وفى الساعة السادسة والنصف مساء اليوم التاسع عشر من شهر نيسان (إبريل) ١٨٢٤ طلب " بايرون " من أصدقائه أن يتركوه لينام وحياهم جميعاً ثم أسلم الروح وهو فى السادسة والثلاثين من عمره .

أعلن الحداد ثلاثة أيام فى أنحاء اليونان وأغلقت الحكومة دواوينها وأطلقت المدافع تحية لروحه ، وطار الخبر إلى أوروبا فحزن الناس على شاعر الشباب الذى أسكرته الشهرة فأضاع نفسه .



شخصيات لا تنسى ..

(٧) جان جاك روسو

رجل بين الشهوات وصياغة المثاليات !

أطواره غريبة ، أفكاره ذميمة عند الجميع ، سجل بنفسه في " إعترافاته " ما يدينه في إنغماسات الطيش والسرقة والغواية والشهوة والتأرجح العقائدي .

لكن بعد نحو مائة عام من وفاته إعتبره الفرنسيون وشعوب أخرى بطلاً عظيماً ، ومصلحاً حقيقياً في بعض ميادين السياسة والإقتصاد ، وأديباً قادراً على وصف أشواق القلب البشري .

الزمـــــن : الثامن والعشرين من شهر حزيران (يونيو) من عام ١٧١٢ م .

المكـــان : مدينة جنيف . العاصمة السويسرية .

موقع الأحداث : دار أسرة من أصل فرنسي خالص إستقرت في سويسرا منذ عام ١٥٥٤م ، وتمكن صاحب الدار من أن يتقن تخصصه في إحدى مراحل صناعة الساعات مثل السويسريين الذين يعيش وسطهم مع زوجته وإبنه الصغير .

تجمع عدد صغير من أصدقاء الأسرة وجلسوا في حالة قلق وترقب ميلاد الطفل الثاني " لإيزاك " صاحب الدار الذي آثر أن يتمشى جيئة وذهاباً أمام باب غرفة النوم حيث كانت زوجته الجميلة الذكية الحنون " سوزان برنارد " تضع مولودها الثاني .

مشاعر الزوج " إيزاك " تختلج حول خشيته على حياة زوجته إذا ما تعثرت

الولادة ؛ فقد تزوجا تتويجاً لقصة حبهما ، وبعد صعوبات عائلية ومحاولاته إقناع أسرتها بقبوله زوجاً لها ؛ فزوجته " سوزان " هى حبيبته ، وأم طفله الأول ، وطفله القادم الذى سيخرج للحياة بعد بضع ساعات أو بضع دقائق ! .

تمنى " إيزاك " أن يكون المولود ذكراً يتقن فن صناعة الساعات مثل أبيه " إيزاك " الذى إشتهر بين معارفه بدقته وحبه لعمله ، بل أن صيته ذاع وإستدعاه (السلطان فى القسطنطينية) ليتولى منصب " ساعاتى السلطان " ، وفعلاً رحل " إيزاك " إلى القسطنطينية بعض الوقت بعد مولد إبنه الأول ثم عاد وإستقر فى جنيف يزاول صناعة الساعات التى يفخر بها .

تحققت بعد بضع ساعات بعض أمانى " إيزاك " ، فقد أبلغ من داخل غرفة زوجته بأن المولود ذكر ! .

لكن بدء حياة الصغير المولود كانت نهاية حياة أمه ! . فقد توفيت " سوزان " بعد الولادة بوقت قصير .

وهكذا بدأ الطفل الوليد **" جان "** حياته فى هذه الدنيا بلا أم ، كما أن صحته كانت معتله ، ووجد من حوله شقيقه الأكبر ووالده وعمته التى عوضته بحنانها ورعايتها عن فقد الأم حتى صلب عوده فى سنواته الأولى .

كيف أحتمل " إيزاك " خسارة فقد زوجته ؟ .

عز العزاء عليه ، وكان يعتقد أنه يرى فى شخص وليده " جان " زوجته من جديد ، دون أن يقوى على أن ينسى أن " جان " هو الذى سلبه إياها ؛ فما إحتضنه قط إلا ولاحظ الطفل " جان " من زفرات أبيه وإختلاجه العصبى الذى كان يضم طفله به إلى صدره ، أن حسرة مريرة كانت تخالط قبلاته ، التى كانت أكثر رقة وحناناً لهذا السبب وحده .

وعندما كان يقول لجان : **" لنتكلم عن أمك يا جان "** .

إعتاد الطفل أن يجيب : **" لا بأس يا أبى . إذن فسوف تبكى ! "** .

وكانت هذه الإجابة من الطفل " جان " كافية لأن تجرى دموع الأب .

وكان " إيزاك " يقول لولده متنهداً : **" آه ! ردها إلى ! عزّنى عن فقدانها ، وإملأ الفراغ الذى خلفته فى روحى ، لو كنت أنت إبنى فحسب ، ما أحببتك هذا**

الحب ! " . ولذلك كان " جان " يشعر دائماً بأنه كلفّ أمه حياتها ، وأن مولده كان أول نحس أصابه ، وأنه سبب تعس والده ! .

كان الوالد " إيزاك " يفضل أن يقضى الأمسيات بعد العشاء فى الجلوس مع ولديه - وخاصة الإبن الأصغر " جان " - يقرأ له ومعه بعض القصص التى تركتها الأم وراءها ، وكانت تلك الأمسيات ممتعة ومفيدة لجان إذ أفاد معرفة بالقراءة وهو دون السادسة ، وحثه على ذلك الكتب المشوقة ، وأتقن " جان " القراءة وهو فى هذه السن المبكرة حتى إعتاد أن يقرأ كل مساء بالتناوب مع والده دون توقف ، كما إعتاد أن يقضى ليالى بطولها مع والده ، وشغلهما الشاغل هو إستكمال قراءة كتاب بدآه فى أول المساء ! .

وقد أثرَّ برنامج القراءة بين الولد ووالده تأثيراً بالغاً فى حياة الطفل " جان جاك روسو " ؛ فقد إكتسب معرفة بالعواطف فضلاً عن نضوجه الثقافى المبكر .

ويذكر " جان " فى مذكراته المعروفة بإسم إعترافات " جان جاك روسو " والتى تعتبر المصدر الرئيسى لمعرفة العالم بحياة " روسو " فى الثلاث والخمسين عاماً الأولى من حياته ، يذكر " جان " عن أثر قراءاته المبكرة :

" لم أكن أفقه الأمور فى حد ذاتها ، وإن كانت كافة أحاسيس الحياة العادية باتت معروفة لدى .. لم أكن أدرك فى البداية ، ولكنى كنت أشعر بكل شئ ، فإن الإنفعالات العاطفية المبهمة المضطربة التى كنت أحسها تباعاً ، لم تؤلف قاعدة نسيج قواى العقلية الإدراكية - التى لم أكن قد ملكتها بعد - ولكنها شكلت هذه القوى فى أعماقى بطابع خاص ، وأولتنى أفكاراً خيالية غريبة عن الحياة الإنسانية ، لم يقدر قط للتجربة والتعمق الفكرى أن يشفيانى منها " .

وفى الوقت الذى كان " إيزاك " يغدق الحنان والحب على إبنه " جان " ، أهمل إبنه الأكبر وكان يكبر " جان " بسبعة أعوام ، وكان " إيزاك " يقسو عليه ، ويضربه لأتفه الأسباب ، مما دفع شقيق " جان " الوحيد للهرب من البيت كثيراً ، ثم هرب من وجه أبيه وقسوته فغادر سويسرا إلى ألمانيا حيث إستقر بها ولم يحدث أن أرسل مكتوباً لوالده أو شقيقه ! . وبذلك أصبح " جان " الإبن الأوحد لوالده ! .

ورغم أن " إيزاك " كان أباً محباً لإبنه " جان " ، حريصاً على تعليمه ، فقد كان حاد الطباع ، أحمق ، مسرفاً مما جعل جان ينشأ نشأة فوضوية - كيفما أتفق .

وزاد من سوء ظروف تربية " جان " ، أن والده " إيزاك " تشاجر يوماً مع ضابط فرنسى وأنتهى الأمر بسجن الأب لفترة قصيرة ، ولما خرج من السجن شعر بأنه لن يلقى من السلطات والمجتمع المحيط به المعاملة التى تحفظ كرامته وحقوقه ، فإضطر أن يهجر جنيف ، فعاش إبنه " جان " فى رعاية خال له ، عُنِى بتربيته وتعليمه ولذلك لم يكن " جان " يلتقى بوالده إلا نادراً .

لكن الصبى هجر دراسته بعد عامين ، ثم ألحقه خاله بمكتب مسجل العقود فى المدينة ليتعلم تلك المهنة ، لكن صاحب المكتب لم يجد فى جان " الذكاء الكافى " ليقبله صبياً فى مكتبه ، فأرسله إلى بيت خاله ! .

وبعد نحو عام ، أى وهو فى الثالثة عشرة من عمره ألحقه خاله بورشة لصناعة الكليشيهات المستخدمة فى الطباعة ، مع أمنيات خاله له أن ينجح فى أن يصبح حفاراً للكليشيهات ! .

ورغم أن " جان " كان متقبلاً نوع العمل إلا أنه هرب من الورشة لأنه لقى معاملة قاسية من صاحبها . كما تعرض فى أثناء وجوده بتلك الورشة لبعض الخبرات التى مست أخلاقه ببعض العيوب المفسدة .

• جان يهيم على وجهه :

وبعد أن هرب من الورشة بدأ سلسلة من الجولات والمغامرات ، فهام على وجهه فى ريف سويسرا ثم فى فرنسا ، وهو مغمور غير معروف ، ثم عاش فترة من الذبذبة بين البروتستانتية والكاثوليكية ؛ وذلك فى مرحلة تعرفه على مدام " دى فاران " الأرملة الشابة الجميلة التى لم تبخل عليه بثرائها ، كما ألحقته بمؤسسة تورين ليتدرب على أن يكون قسيساً ، لكنه لم يُظهر صلاحية لذلك ، فنفحته إدارة المعهد مبلغ عشرين فرنكاً وأرسلته لحال سبيله ، فعمل خادماً فى إحدى بيوتات سيدات المجتمع فى باريس ، وهناك سولت له نفسه أن يسرق وشاحاً وإستطاع أن يوجه الإتهام ضد خادمة زميلة له ، ففصلت من عملها على حين إحتفظ هو بعمله ، إلا أن موت مخدومته بعد ذلك بوقت قصير تركه بغير عمل ، فإلتحق بعمل كخادم فى بيت آخر .

• ضياع وتشرد وإدعاء ونزوات ! :

وقد قضى " جان " نحو ثلاثة أعوام فى خدمة البيتين تخللتهما حماقات ونزوات ثم حاول العودة ثانية إلى مدام " دى فاران " لكنه أخفق فعاش حياة من

الضياع والتشرد .

ومع أنه لم يكن يعرف فى الموسيقى شيئاً أكاديمياً فقد حاول أن يعطى بعض الناس دروساً فى الموسيقى ! .

وتوالت تجارب " جان " فى محاولة اللحاق بمدام " دى فاران " ، والعمل كموظف حكومى ودارس للموسيقى ، ومحاولة لرسالة حول تسجيل الألحان الموسيقية لدى المجمع العلمى الذى رفض الرسالة ، ثم عمل سكرتيراً لسفير فرنسا فى البندقية ، ثم سلَّم أطفاله الخمسة غير الشرعيين لملجأ لقطاء ، وهكذا عاش " جان " حياة متقلبة إحتدمت فيها خواطره ونزواته والبحث عن لقمة العيش .

وقد سجل " جان " مشاعره وخواطره ونزواته وتجاربه فى مذكراته المعروفة بإسم " إعترافات جان جاك روسو " .

ويرفض القارئ العادى أن يجد فى كتاب هذه الإعترافات ما يبشر بحياة فيلسوف عبقرى قاد فكر أمته وشعوباً كثيرة نحو المثاليات والديمقراطية والمساواة وتحرير الفرد من القيود التقليدية .

• كيف قفز جان للشهرة ؟ ! :

وفى عام ١٧٥٠ أى وهو فى سن الثامنة والثلاثين قفز " جان " إلى الشهرة المفاجئة إذ فاز بأفضل جائزة لأفضل مقاله عن موضوع : **" هل الفنون والعلوم مفيدة ولازمة للمجتمع الإنسانى والأخلاق أم لا ؟ "** . وكانت أكاديمية ديجون هى التى نظمت هذه المسابقة .

وتعتبر تلك المقالة فاتحة خير وشر معاً لجان ! .

ذلك أنه واصل كتاباته فى **" أصل عدم المساواة بين البشر "** ثم كتب **" العقد الإجتماعى "** ثم **" إميل "** .

وكان رد فعل الدوائر الحكومية والكنسية والفلسفية هو الغضب الشديد من آرائه ، فصودرت نسخ كتاب **" إميل "** فى فرنسا وهولنده ، أما السلطات السويسرية فقد أحرقت نسخ الكتاب المذكور ، الذى ينادى بآراء متحررة ترفضها تلك السلطات التقليدية .

وهنا بدأت مرحلة من الكر والفر بين " جان " والسلطة فى كل مكان ! . لجأ خلالها لأحد الحكام ، ولأحد الفلاسفة بحثاً عن مكان آمن يواصل كتاباته فيه ، وقد كان حريصاً على إستكمال " إعترافاته " التى تعتبر من أهم ما كتب .

كما لجأ لإتخاذ إسم مستعار (رينو) ليتخفى عن السلطات ، بل وعن كثيرين من أفراد المجتمع بينهم أصدقاء ناصبوه العداء ، بل حاولوا الإيقاع به لدى السلطات الغاضبة عليه ! .

وهكذا جاءت شهرة " جان " الواسعة النطاق غير المنتظرة فى وقت كان يعانى فيه من العزلة والوحدة . كانت كتاباته هى سبب شهرته ، لكن آراوه وحدها التى سجلها فى كتاباته لم تكن سبباً فى عزلته وإنما ساهم فى ذلك ضعف مكانته الإجتماعية ومشاجراته الدائمة مع المعارف والأصدقاء حتى الذين أكرموه ولجأ إليهم فى وقت شدته ، فقد كان يتعارك معهم ويهجرهم ! .

ويُرجح أن الهوة بين الشهرة اللامعة المفاجئة لجان وبين الوحدة القاتلة التى عانى منها أحدثت للرجل ما وصفه الباحثون بعدم الإتزان ، حتى أن كثيرين ظنوا لدى سماع نبأ وفاته فى فرنسا فى ٢٢ تموز (يوليو) سنة ١٧٧٨ أنه مات منتحراً ، ولو أن تقرير الصحة قال أنه مات ميتة طبيعية بالسكتة الدماغية .

وفى كانون أول (ديسمبر) سنة ١٨٩٧ أخرجت جثته ، ولم يكن فى جمجمته أى أثر لطلق نارى كما ظن الذين قالوا أنه مات منتحراً بإطلاق الرصاص على نفسه .

وقد تم نقل رفاته إلى مدفن العظماء فى باريس ، كما أقامت له مدينة جنيف تمثالاً ، وترجمت مؤلفاته إلى كثير من اللغات . وتعتبر مؤلفاته عاملاً من عوامل ظهور الرومانسية والديكتاتورية والإشتراكية ، بالإضافة إلى إسهامها فى صياغة المثاليات فى الديموقراطية ، كما يرجع لها الفضل فى التأثير على نظريات التعليم .



شخصيات لا تنسى ..

(٨) فولفجانج موتزارت

إننى مدين لفقرى بنجاحى

كانت أسرته تقطن حياً فقيراً ، وتعتمد على رصيدها من الحب المتبادل بين أفرادها أكثر من إعتمادها على رصيدها من المال أو حتى من الخبز .. ! .

الزمان : كانون ثان (يناير) عام ١٧٥٦ م .

المكان : مدينة سالزبورج بالنمسا .

الحدث : ميلاد الطفل الذى صار من أشهر الفنانين العالميين .

لمعت عينا " ليوبولد " ، قائد إحدى الفرق الموسيقية الجوالة وعازف الكمان والقيثارة الأول وأضاءت وجهه إبتسامة كبيرة عندما إستقبله جيرانه بعاصفة من التهليل والترحيب وهم يزفون إليه نبأ ميلاد إبنه الذى أطلق عليه إسم " **فولفجانج** " .

وفى غمرة فرح " ليوبولد " وإبتهاجه بقدوم وليده إلى الحياة نسى كل تعب يومه فى تجواله مع فرقته فى شوارع المدينة وأحيائها تلمساً للفرنكات القليلة التى كان يجود بها عليهم السادة محبى الفن والموسيقى ...

وكشف " ليوبولد " الغطاء عن قيثارته وجرت أنامله على أوتارها تعزف لحن فرح وترحيب بالوليد الصغير وبينما أطرق الجيران وزوجة " ليوبولد " وإبنته الصغيرة فى إنصات وإعجاب بتلك النغمات العذبة والشجية ... أطلق " ليوبولد " العنان لخياله وعاش للحظات فى حلم يقظة جميل ، رأى فيه وليده المقمط ، شاباً يافعاً يمسك بكمانه ويعزف لحناً ملائكياً ، وكأنه موسيقى لامع تجوب شهرته الآفاق وتتغنى بعبقريته الألسن ، وتذيع نغماته موهبته الفذة فى دنيا الموسيقى والألحان ...

نشأ " فولفجانج " فى أسرته المتواضعة التى كانت تقطن حياً فقيراً من أحياء سالزبورج .. وتعتمد على رصيدها من الحب المتبادل بين أفرادها أكثر من إعتمادها على رصيدها من الثروة أو الجاه أو حتى من الخبز ....

وإشتركت الأسرة فى شغفها بالموسيقى .. وكثيراً ما كانت ترتفع النغمات والألحان من الكمان والقيثارة والبيانو فى آن واحد .. وكأن البيت الصغير قد تحول إلى مبنى أوبرا تعزف فيه أوركسترا كاملة ... أما الطفل " فولفجانج " فقد كان معجزة هذه الأوركسترا ... فلقد بزغت موهبته وهو بعد صبى صغير ... كان وهو فى الثالثة من عمره يتقن حفظ وعزف دروس البيانو التى كان يلقيها أبوه " ليوبولد " على شقيقة " فولفجانج " التى تكبره بخمس سنوات ....

وقد قيل إنه ألف كونشرتو وهو فى الرابعة من عمره وأول سيمفونية وهو فى الخامسة ! .

ولم يلتحق " فولفجانج " وهو صغير بأى مدرسة أو معهد لدراسة الموسيقى وإنما عهد به أبوه إلى مدرسة الحياة والأسفار والرحلات ، فطاف به مدن النمسا وألمانيا وفرنسا وهولندا وإيطاليا ... وكان " فولفجانج " يعزف على كمان أبيه وهم على ظهر القارب فى أثناء ترحالهم من مدينة إلى مدينة ، وكانت ألحانها الملائكية مثار إعجاب الركاب الذين كانوا كثيراً ما ينفحونه بعضاً من المال الذى كان يسدد به والده " ليوبولد " جانباً من الضريبة المستحقة على الآلات الموسيقية التى يحملها أعضاء الفرقة .

وكان " فولفجانج " وهو طفل يشترك مع فرقة أبيه فى عزف الألحان فى الحفلات التى كانت تقيمها العائلة المالكة فى بلاط ڤينا الإمبراطورى .. كما كان يسمح له باللعب مع أطفال العائلة المالكة فى النمسا ... وقد جذب عزفه المتقن رغم صغر سنه إهتمام الكثيرين فى البلاط الملكى فى النمسا وخارجها ، وخلعوا عليه ألقاباً شرقية " كالطفل المعجزة " و " الساحر الصغير " و " وموسيقار الموسيقين " و " العبقرية اليتيمة " .

ولقد أتاحت حياة التجوال فرصاً رائعة " لفولفجانج " لصقل موهبته وتدعيم خبراته فى دنيا النغم والألحان ، كما هيأت له إمكانية التعرف والإطلاع على الفرق الموسيقية المختلفة بالبلاد العديدة التى زارها ...

ولقد نجح " فولفجانج " فى العاشرة من عمره ، فى الإلمام بفنون الموسيقى من عزف وتلحين .. كما وُكلت إليه قيادة أوركسترا مدينة سالزبورج ولقد أعجب به كبار الموسيقيين فى عصره أمثال هايدن الذى تكهن له بمستقبل لامع مع الألحان والموسيقى ...

وقد تحققت توقعات هايدن لمستقبل " فولفجانج أماديوس موتزارت " ، فقد كتب موزارت عشرين سيمفونية قبل أن يتم عامه السادس عشر .. وكان حريصاً أن ينصِّب من نفسه ناقداً لكل عمل يبدعه .... فحكم على بعض أعماله بالفشل ، ولم يتم بعضاً آخر منها ، وأعترف فى الوقت نفسه بروعة البعض من أعماله الأخرى .

ولم تضمن موهبة " موزار " أو شهرته أى مورد ثابت من المال فكان لا يتقاضى إلا أجراً زهيداً من الأعمال التى كان يبدعها من تأليف وعزف وقيادة الأوركسترا ... **وقد عانى فى شبابه الكثير من ألوان الجوع والمرض والحرمان.. إلا أن رهافة حسه وشغفه بالموسيقى وحبه للناس كان كافياً بأن يمد أنامله بطاقة دفء تعوضه عن برودة غرفته المظلمة ... وكثيراً ما كان يردد : " إننى مدين لفقرى بنجاحى " ..... لقد عزفت أجمل موسيقى فى حياتى على آلتى الساحرة التى فى البدروم المعتم بمدينتى " .**

ولقد توقع له الناس أن يتزوج بأمرأة ثرية تنشله من فقره ولكنه تزوج " بكونستانس " فتاة من بيت فقير مثله ..... وقال فى ذلك : " إن عبقريتى سوف تمكنى من أن أعول المرأة التى أتزوجها ... " .

ورزق " موزار " بستة من الأبناء ... نبغ أحدهم كوالده وجده فى مجال العزف والتاليف الموسيقى ..... إلا أن عبقرية " موزار " لم تصمد فى إعالة ستة من الأبناء وإشتد الحال فتكاً بهم بسبب الفقر والمرض ...

ولقد عمل فقر " موزار " ومرضه على أن يمتزج فنه بنوع نادر من المشاركة الوجدانية مع أحاسيس الناس وعواطفهم ... فلم يكتف " موزار " بالتغنى بالفرسان والأميرات وإنما جاء فنه أكثر واقعية وإرتباطاً بعامة الناس ...

ولم يسلم " موزار " من حقد منافسيه من الموسيقيين التقلديين فى عصره ... وكان يغفر لهم إساءاتهم وحقدهم ولكنه كان صريحاً فى الرد عليهم لحد الهجاء ،

الأمر الذى حرمه إعتلاء أى منصب ثابت فى البلاط الإمبراطورى كغيره من الموسيقيين ..

وفى سنة ١٧٩١ سكنت أوتار كمان " موزارت " فى خشوع تودع تلك الأنامل التى داعبتها وهى غضة لطفل صغير وأيضاً وهى رقيقة لشاب أنهكه الفقر والمرض .

مات " موزار " وعمره ٣٥ خريفاً فى بيته الصغير فى أفقر أحياء فيينا وأقذرها ..... ماتت العبقرية اليتيمة وسط ثقل الديون وإعتلال الصحة وإهمال الناس ... وتعددت أسباب الوفاة من جوع ومرض بالكلى وإصابة بالتيفوس أو القتل بالسم ! .

ولم تتوفر لأسرة " موزارت " الإمكانات اللازمة لتشييع جنازته ، فإستعانت بحاكم المدينة الذى تولى الأمر ويقال إن عاصفة ثلجية شديدة قد هبت فى أثناء تشييع جنازة " موزارت " مما دفع بعض المشيعين إلى الهرب ....

ولم تختتم قصة هذا الموسيقى العبقرى بهذا الفصل المأسوى .. فأقيم له تمثال لتكريمه فى سالزبورج مسقط رأسه .. تمثال لرجل قصير القامة ، نحيف ، يحمل على كتفيه الضعيفتين رأساً كبيراً كان يحوى عبقرية فذة ملأت الدنيا بألحان خالدة تتميز بالعذوبة والصفاء والبساطة ...

ولقد إختلف المؤرخون والموسيقيون فى حصر التراث الخالد من النغم والموسيقى - الذى جادت به العبقرية اليتيمة .... فذهب بعضهم إلى القول بأن " موزارت " قد كتب ٥٠٠ عمل موسيقى ، وذهب البعض الآخر إلى القول بأنه ألف ٨٠٠ عمل موسيقى ، ويجزم فريق ثالث بأن مؤلفاته تصل إلى الألف ما بين سيمفونية وسوناتة وكونشرتو ومارش وكنتاتا (سوناتة للغناء) ، وديفرتمنتو (مقطوعة موسيقية خفيفة) ...

أما أشهر هذه الأعمال فهى : " الإختطاف من السراى " عام ١٧٨٢ ، و " زواج فيجارو " عام ١٧٨٦ ، و " دون جوان " عام ١٧٩١ ..

أما آخر أعماله فكان " قُداس على روح ميت " ، الذى قال عنه " موزارت " وهو يعده .. " إننى أشعر وكأننى أكتب صلاة جنازتى " ..

(٩) هرمان جيجر

جانب من الأحداث اليومية لـ :

رجل المواجهة الدائمة مع : الموت والخطر !

كلما إشتدت برودة الجو ، وأصبح عاصفاً مطيراً ، وكلما إنهمر الجليد وأصبح يكسو كل شئ ، زادت مخاوف أمه ؛ فقد كانت أم (هرمان) تخشى عليه من طبيعة عمله الخطيرة .

كان كلما قام بمهمة التحليق بطائرته الصغيرة فوق الجبال والتلال والمنحنيات لإنقاذ ضحية من ضحايا سقوط الطائرات أو تسلق الجبال أو الإنزلاق على الجليد ، كانت الأم تصلى إلى الله وتضرع إليه ليعود إبنها سالماً .

وتكررت عمليات الإنقاذ التى كان " **هرمان جيجر** " يقوم بها بنجاح حتى زادت على نحو ٥٠٠٠ عملية هبوط فوق الجبال العالية دون أن يمسه سوء ، حتى إطمأنت الأم إلى أن إبنها أقوى من الخطر وأقوى من الموت ! .

وقد كنت فخوراً عندما عينت مساعداً له ، وحلمت أننى سوف أصبح مثله يوماً بعد أن يدربنى على مواجهة الموت والخطر من أجل إنقاذ المصابين ، أو لإنتشال جثث ضحايا حوادث الطائرات أو الذين جرفتهم هواية تسلق الجبال أو الإنزلاق على الجليد حتى أصبحوا جثثاً هامدة ! .

لن أنسى المهمة الأولى التى إشتركت فيها معه :

إنطلقت بنا الطائرة الصغيرة من مطار " سيون " بسويسرا ورحنا نرتفع فى جولات دائرية حتى إجتزنا وادى الرون وعندما بلغنا حداً كافياً من الإرتفاع شرعنا فى التحليق فوق أحد الأودية الجانبية الضيقة التى تنحدر من الجنوب .

وسرعان ما إستطعنا أن نرى الهدف الذى نسعى إليه : جبال الألب " الفاليسية " تلك الكتلة الشاهقة من الجليد والثلوج والجرانيت التى تعد أروع

المشاهد الطبيعية فى أوروبا . وإقتربنا بالطائرة من الحائط الغربى الهائل لجبال " السن الأبيض " الذى يتكون من ألوف الأقدام من الجليد والثلج والصخور ، فرأينا فى إحدى النقط فوق المنحدر الصخرى بروزا يشبه الرف تبلغ مساحة سطحه الجليدى حوالى خمسين ياردة مربعة وعلى جانبه المتجه إلى أسفل إنحناء تدريجى يأخذ فى الإنحدار شيئاً فشيئاً حتى ينتهى إلى هاوية عميقة .

وهنا قال " جيجر " إن هذا هو المكان الذى سنهبط فيه ، فى حين كنت أظن أن مثل هذه الطائرة الصغيرة العادية تحتاج إلى حوالى مائتى ياردة من الأرض المستوية لتهبط فوقها أو تنطلق منها .

وأخذنا نطير ذهاباً وإياباً فوق هذا " الرف " بينما كان " جيجر " يطل برأسه إلى الخارج وهو يدرس مسطحه دراسة دقيقة ثم إتجه بمقدمة الطائرة إلى أعلى حتى لمست العجلات الأرض عند نقطة يبلغ الإنحدار عندها حوالى ٢٥ درجة وإكتسحت الطائرة الجليد وهى تصعد فوق الحافة على حين توقفت سرعة الطائرة وإستقرت أخيراً على بعد حوالى عشر ياردات من السفح المنحدر . وغادرنا الطائرة ورحنا ندور حولنا بأنظارنا .

منذ نصف ساعة فقط كنا فى شوارع المدينة وها نحن الآن نقف فى هذا المكان الذى يشبه عش النسر بعيداً جداً عن عالم الناس .

أما تحليقنا بالطائرة بعد ذلك فقد كان شيئاً لا ينسى . فقد أمسكنا ذيل الطائرة وأدرناه للناحية الأخرى ثم صعدنا إليها وقد أصبح رأسها متجهاً نحو الهاوية العميقة وإنطلقنا بها من فوق الحافة وكأننا نعيش فى أحلام الطفولة من السباحة فى الفضاء ! .

وعدنا إلى الهبوط بعد ذلك مرات متعددة ، مرة فوق مسطح واسع لجبل ثلجى حيث المشكلة الكبرى هى تفادى الفجوات العميقة الزرقاء الى توجد فوق الأرض المغطاة بالجليد . وهبطنا مرة أخرى فوق رقعة صغيرة من الجليد لزيارة أحد الأكواخ المخصصة لهواة تسلق الجبال .

كان هذا كله بعض العمل الذى يقوم به " جيجر " فقد كان يبحث عن جثث إثنين من هواة التسلق كانا قد سقطا من الجبال فى اليوم السابق ولكنا لم نعثر لهما على أثر فعدنا إلى المهبط الجوى فى " سيون " .

وقد يتساءل بعض الناس :

لماذا لا تستخدم طائرات الهليوكوبتر للقيام بعمليات الإنقاذ والتموين التى يقوم بها " جيجر " ؟ .

الواقع إنه قد يكون فى الإمكان إستخدام الهليكوبتر فى بعض الحالات ، ولكن نظراً لأن الهليكوبتر لا يستطيع الوصول إلى إرتفاعات كبيرة ، فإنه لا يتمكن من الوصول إلى القمم التى يبلغ إرتفاعها خمسة عشر ألف قدم . كما أن الهليكوبتر لا يستطيع أن يهبط على المنحدرات كما تفعل الطائرات ذات المحرك ، إذ أن مروحتها الدائرة تولد تيارات إلى أسفل مما يجعلها تتدحرج إلى السفح بدلاً من الإستقرار فى مكان هبوطها .

وقد قام " هرمان جيجر " فى خلال نحو ثلاث سنوات بأكثر من خمسة الآف عملية من عمليات الهبوط فوق الجبال العالية دون أن يقع له أى حادث ولعله من الرجال القلائل الذين إستطاعوا أن يفعلوا ذلك فى العالم ! .

و " جيجر " ليس من طراز الرجال الذين لا يهابون الأخطار ، بل إنك لتراه فتحسبه دليلاً سياحياً من أبناء سويسرا ، وهو لم يتجاوز الأربعين ، عريض المنكبين ذو وجه لوحته الرياح وعينين نفاذتين شأن الرجال الذين يمضون حياتهم فى العراء فوق الجبال المرتفعة .

ومن الأعمال التى يقوم بها بمهارة فائقة أن يهب لنجدة ضحايا حوادث التسلق للجبال . وعندما يسقط أحد هؤلاء الهواة ويظل حياً يصبح إنقاذه أمراً عسيراً إذ قد يكون مصاباً بكسور فى عظامه أو نزف داخلى مما يجعل نقله من مكانه أمراً محفوفاً بالخطر فى الوقت الذى يكون فيه النقل إلى مكان يجد فيه الإسعاف ضرورة لابد منها .

ولقد أنقذ " جيجر " أكثر من ثلثمائة من ضحايا الإنزلاق على الجليد وهواة تسلق الجبال ، كما أنقذ أرواحاً كثيرة بنقله الطعام والأدوية اللازمة إلى المناطق النائية التى تعزلها الإنهيارات الجليدية .

ولا يكاد " جيجر " يبتعد عن الهاتف فى " سيون " عندما يكون غير مكلف بالقيام بجوله تموينية . وقد حدث ذات صباح أن دق جرس الهاتف وقال له المتحدث :

- تعال سريعاً ، فقد حدث إنهيار فى منطقة " مونت كالم " .

وفى خلال عشرين دقيقة كان " جيجر " قد بلغ مكان الحادث ، وهو منحدر جليدى طويل ، شاهد فى منتصفه أثر الإنهيار كتلاً غارقة من الجليد يبلغ طولها حوالى أربعمائة يارده وإتساعها حوالى ٢٥٠ ياردة .

وقال له الباحثون هناك ، إن سبعة من هواة الإنزلاق كانوا يعبرون هذا المنحدر عندما إبتلعهم فجأة هذا الشلال من الجليد . وإستطاع " جيجر " أن يعثر على الضحايا السبع وكان بينهم خمسة لا يزالون أحياء .

● ● ●

و" هرمان جيجر " لا يغامر قط إلا إذا كانت هناك حياة مهددة بالخطر . وقد أبلغوه ذات مرة هاتفياً أن هناك حادثاً وقع لأحد هواة التسلق فوق جبل " مونت روزا " فنظر من النافذة ، ثم قال إنه لا يتمكن من الطيران فى مثل هذ االجو . فقيل له إنه يجب أن يحضر لأن الرجل فى خطر مؤكد . وعندئذ إنطلق " جيجر " وسط جو يغمره الجليد والمطر حيث حلق فوق وادى الرون إلى مدخل وادى " زيرمات " الضيق وراح يطير ذهاباً وإياباً حتى شاهد أخيراً فجوة زرقاء فى السقف الجليدى فنفذ منها :

وكانت رحلة العودة التى صحب فيها الرجل الجريح أشبه بكابوس ثقيل إذ ظل يطير تحت السقف الجليدى خلال الوادى الضيق الكثير الإنحناءات حتى إن إرتفاعه كان لا يزيد فى بعض الأحيان على ٥٠ قدماً من الأرض .

ومع كل يوم جديد يتلقى " هيرمان جيجر " نداءً هاتفياً فيقوم - وأنا معه - بمغامرة جديدة بالطائرة الصغيرة فوق قمم الجبال الثلجية وفى المنحدرات من أجل إنقاذ إنسان ما ومع كل مهمة لا نعرف موعد العودة منها أو حتى إذا كنا سوف نعود ! .

(بقلم : إدوين موللر)

شخصيات لا تنسى ..

(١٠) بابلو بيكاسو



الرجل الذى لم يعرف الملل ولا اليأس !

لم يكن لديه ثمن الطعام والألوان .

يحرق لوحاته ليستدفئ بنارها ! .

كل رصيده : فنه وجرأته وثقته بنفسه ! .

حول كل عاطفة إلى ألوان ! .

إكتست المروج ببساط أخضر تناثرت عليه زهور البانسيه والقرنفل الأبيض والكاميليا الحمراء .

أخضر الوادى ، فأزهر الكرم ونوَّر الرمان ، وأخرجت التينة ثمرها .

وإمتزج تغريد البلابل وصدح اليمام بصوت الطرب والغناء ، فقد إمتلأت طرقات الحى الصغير بالرجال والنساء والشيوخ والأطفال وهم يتخذون طريقهم صوب الوادى الأخضر إحتفالاً بالربيع ، وإبتهاجاً بمقدمه ! .

ولم يتنبه أهل الحى - فى غمرة نشوتهم بالربيع - إلى الخطوات الثابتة التى إتخذت طريقاً آخر إلى خارج المدينة ..

كانت الخطوات لشاب فى التاسعة عشرة من العمر ، قصير القامة وممتلئ ، ذى شعر أسود لامع وعينين جاحظتين حالكتى السواد ، يرتدى بزة وسترة زرقاء كملابس العمال .. يحمل فى يمينه حقيبة قديمة للأمتعة ، ويستند برفق على ذراع أبيه الذى يناهز الخمسين من العمر .

وعلى رصيف محطة القطار بمدينة " ملجأ " الإسبانية وقف الأب يلوح بكلتا يديه لفلذة كبده وهو يغادر إسبانيا مسقط رأسه .

مسح الأب دمعة ترقرقت فى عينيه ، وهمَّ - بعد أن إختفى شبح القطار - عائداً بخطوات متثاقلة من حيث قدم .

كانت المدينة هادئة .. والطرقات خالية .. فلحق الرجل بسكان الحى إلى الوادى الأخضر بعد أن مال إلى بيته ليحمل أدواته وفرشاته وألوانه .

وتحركت أنامل الرجل الفنان بتلقائية ومهارة تعكسان جمال الطبيعة من حوله خطوطاً وألواناً .. ولم ينتبه الرجل للعيون التى أحاطت به ترقب بشغف إستكماله لوحة تلو أخرى ، فبينما كانت أنامله تتحرك بإنسيابية على اللوحة . كان فكر الرجل قد جرى وراء القطار الذى يقل إبنه إلى باريس .

إرتسمت على ملامح وجهه وعلى درجات ألوانه مسحة من الألم تشرق بين ثناياها إبتسامة أمل وترقب !! .

فلن يخشى الرجل أن يتقدم به العمر أو يتسلل الوهن إلى جسده أو تزداد حركة إرتعاش أصابعه .. لن يهتم حتى إذا فقد وظيفته كمعلم للرسم والفنون بمدرسة المدينة بل أنه على إستعداد لأن يعتزل فنه ويهدى خبرته وفرشاته وألوانه لفلذة كبده الذى أورثه موهبته وإبداعه فى الرسم (التصوير) .

وعندما أقبل الليل وإزدانت صفحة السماء بالنجوم ، لملم الرجل أدواته ولوحاته وهب عائداً مع جيرانه ، وإبتسامة رضا تعلو محياه وتضئ وجهه .. فأى سعادة تعادل سعادة الأب " بلاسكو رويزى إيتشفريا " وقد قدَّم كل مدخراته - رغم ضآلتها - ليتيح لولده " **بابلو بيكاسو** " **Pablo Picasso** فرصة السفر إلى باريس حتى تصقل موهبته التى تفتحت وهو بعد طفل صغير ، فقد برزت قدراته الفنية والجمالية وهو فى السابعة من عمره .

ولقد حرص الأب على أن يلتحق " بيكاسو " بمدرسة الفنون الجميلة ببرشلونة حيث أظهر نبوغاً أهَّله للإلتحاق بالأكاديمية الرئيسية للفن الإسبانى بمدريد .

وفاز " بيكاسو " - وهو فى السادسة عشرة من عمره - بشهادة تقدير من معرض الفنون الجميلة بمدريد .. كما إستحق - بجدارة - الفوز بميدالية ذهبية عن لوحاته التى عرضها فى أحد معارض مدينته " ملجأ " الإسبانية .. ومن ثم فقد رأى أبوه أن مستقبلاً ذهبياً ينتظر " بيكاسو " إذا توفرت له فرصة السفر إلى باريس - مركز الفنون - والإقامة بها والنهل من منابعها الفنية .. وكان للأب ما أراد .

وفـى بـاريس .. عـاش " بـابلو بيكاسـو " فـى مقاطعـة الفنـانين فـى " مونتبارناس " (Montparnasse) حياة فقيرة بائسة .. فلم يكن مورده يكفى لتوفير أجر الإقامة وثمن الطعام والألوان التى يحتاج إليها .

وقد كان يقطن حجرة صغيرة بفراش واحد صغير مع صديق له يعمل بالكتابة .. وقد كان يشاركه فى آلامه وآماله وضيق ذات اليد .. وقد كانا يشتركان معاً فى الفراش الوحيد ، فيخلدان إلى النوم بالتناوب .. فكان الصديق ينام ساعات الليل بينما يستغرق " بابلو بيكاسو " فى لوحاته ودراساته ثم يغفو لعدة ساعات فى أول النهار عندما يستيقظ صديقه وينصرف إلى أعماله .

ولقد أقام " بابلو بيكاسو " أول معرض له فى باريس عام ١٩٠٠ بعد عامين من رحيله إليها .. ونجح فى خلال الخمسة الأعوام الأولى التى قضاها فى باريس ، فى رسم ٢٠٠ لوحة زيتية وهو ما يعادل إنتاج بعض الفنانين طيلة حياتهم .

إلا أن الفقر الذى عاناه فى أوائل معيشته بمقاطعة الفنانين ، قد دفعه فى إحدى الليالى الشتوية القارصة البرودة إلى حرق بعض من لوحاته تلمساً للدفء حتى لا تتجمد أطرافه فى حجرته المظلمة الرطبة .

ولقد عاش " بيكاسو " يحلم بأن يصبح غنياً ، ولكنه آلى على نفسه أن يعيش معيشة الفقراء حتى بعد أن أصبح مليونيراً ، بعد سنين طويلة من البؤس والفقر والحرمان .

وقد لمع إسم " بابلو بيكاسو " فى دنيا الفن بعد مشوار طويل عمل فيه كخطاط وصانع خزف وحفار ومصور (رسام) .

وتعكس لوحاته وأعماله فى النحت بالبرونز والخشب والورق والقصدير ، أسلوبه الفريد الذى عمد فيه إلى تحرير الفن من تقاليده الأكاديمية العتيقة .

وقد كان ذوقه المتقلب يدفعه إلى أن يجمع فى فنه بين الإتجاهات والتيارات المختلفة فى الفن رغم تباينها وتناقضها .

وقد عمد " بيكاسو " بإسم الفن إلى التغيير من شكل المظاهر الطبيعية ، فتحرر فى لوحاته من تقليد الطبيعة ومحاكاتها مستنبطاً أبعاداً جديدة ، وأغواراً كامنة ، من مظاهر الطبيعة من حوله لا تلتقطها إلا نفس مرهفة لفنان مثله ..

فكان عندما يجلس إلى لوحة ، لا يرسم لها مقدماً شكلاً فى مخيلته ، وإنما تتحرك أصابعه فى ليونة وعفوية تترجم إحساساته المرهفة وتصويره الدقيق .. ولم يعبأ " بابلو بيكاسو " بتتبع خطوط المدنية والتأثر بروح " التكنولوجيا " المعاصرة له ، وإنما برع فى تفجير منابع الفن التجريدى الذى يجنح إلى الواقعية ، ومن هنا كانت ريادته لمذهب الفن التكعيبى وطرقه للإتجاهات والتيارات الجديدة فى التصوير (الرسم) .

لم يتردد " بيكاسو " فى التعبير عن خلجات النفس التى تحاشى البعض من معاصريه والسالفين أيضاً التنفيس عنها ، كالخوف وعدم الإستقرار والإفتقار إلى الأمان والسكينة ، وقد كان دافعه إلى ذلك جرأته ورصيده من رهافة الشعور والثقة بالنفس .

أما سر عبقرية " بيكاسو " فيكمن فى براعته فى تحويل كل شعور أو عاطفة إلى معنى تجسّده الألوان على اللوحة ، حتى وإن إستخدم خطوطاً لم يطرقها أحد قبله .

ولقد أحب " بيكاسو " الفقراء لأنه كان واحداً منهم وعاش بينهم وتجرع من الآمهم ، لذا فقد إصطبغت إحدى مراحل حياته الفنية من عام ١٩٠١ - ١٩٠٤ بلون تشيع فيه الرهبة والقتامة ، حتى أطلق عليها " المرحلة الزرقاء " ، فتناول فى لوحاته حياة البؤساء فى الأرض والفقراء والمرضى وجسدً فيها آلام الوحدة والحزن والحرمان ، فعمد إلى الإستطالة فى رسوم الأشخاص وأوحى بنحافة الأجسام ونحالتها ولونها الأزرق بما قصد إليه من التأثيرات النفسية والإنطباعات اللونية التى تعبر عن مأساة الجياع والمحرومين والمتألمين .

وخرج " بيكاسو " من ضيق مرحلته الزرقاء وقتامتها إلى رحابة المرحلة الوردية وعذوبتها ، حتى إن بعض النقاد أطلقوا على هذه الفترة " المرحلة العاطفية " .

وقد بدت أعماله فى هذه المرحلة متأثرة بالفن اليابانى .

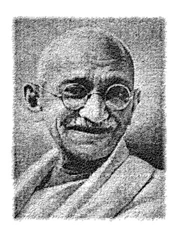
كما إستلهم " بيكاسو " فى أعماله فن النحت الزنجى وأبدع فى مجموعة من الرسوم والصور والتماثيل تجلت فيها حساسيته وجرأته فى التعبير والتجريد .

ولقد نال " بيكاسو " فى السنين الأخيرة من حياته شهرة واسعة لم يحظ بمثلها أحد من معاصريه ، كما إستحقت بعض روائع أعماله شهرة خلدت إسمه فى دنيا الفن .

وتُعد " الجورنيكا " ١٩٣٧ رائعة " بيكاسو " التى حققت له شهرة واسعة .. فعلى إمتداد ٢٦ قدماً (الحجم الأصلى للوحة) عبَّر " بيكاسو " بإنحرافات خطوطه ودرجات ألوانه ، عن معارضته أو إحتجاجه ضد حادث قصف مدينة " جورنيكا " بالقنابل فى أثناء الحرب الأهلية الإسبانية (١٩٣٦ - ١٩٣٩) وتشيع فى اللوحة موسيقى حزينة تبعث على الشجن والحزن .

ولقد عاش " بابلو بيكاسو " فى فرنسا منذ أن رحل إليها فى التاسعة عشرة من عمره ، وقضى آخر سنوات عمره متنقلاً بين منزليه بباريس وجنوبى فرنسا حيث كانت تتكدس فيهما اللوحات وآنية الخزف والكتب وقصاصات الصحف وقطع الأحجار والقواقع وجذور النباتات التى كانت تستهويه .

وقد توفى " بابلو بيكاسو " عام ١٩٧٣ بعد حياة حافلة ، لم يعرف فيها الملل أو اليأس .



شخصيات لا تنسى ..

(١١) موهانداس غاندى

الرجل الذى إنتصر على دولة بسلاح الحب !

على مستوى جيد فى اللغة الإنجليزية ، متوسط فى الحساب ، ضعيف فى الجغرافيا ، حسن السير والسلوك ، ردئ الخط .

جاد - خجول - قليل الكلام - يحترم الكبار - تزوج وهو فى الثالثة عشر من عمره .

تململ الرجل فوق فراشه ... كان أشبه بحطام إنسان ، وقد إمتدت ذراعاه النحيلتان على جانبى جسده الواهن وبرزت عظام ساقيه وضلوع صدره .

وبعناء شديد ، حرك الرجل رأسه الحليق ، وتعلق بصره بعيون الرجال المدججين بالسلاح وقد أحاطوا بفراشه ... وأذاب دفء إبتسامة حلوة أطلت من عينيه خلف زجاج نظارته جمود مشاعر الواقفين .

إهتزت شفتاه الذابلتان اللتان كشفتا عن فكين خاليين من الأسنان ، وهمس بكلمات قليلة ولكنها دوت كالرعد فإخترقت آذانهم التى كانت قد أصمتها طلقات الرصاص ودوى القنابل ! .

تقدم إليه أحد الرجال وإنحنى أمامه قليلاً ثم بادر بقوله : **" لقد جئنا إليك بأنفسنا ، إننا لا نريدك أن تموت ، لقد أوقفنا القتال لأننا نريدك أن تعيش . شعب الهند كله يناشدك أن تبقى على حياتك وأن تكمل مسيرتك لأجله . وها هى الأسلحة ، إننا نلقيها عند قدميك ! "** .

ورفع زعماء الجماعات المتقاتلة الأسلحة من فوق أكتافهم وألقوا بها حول فراش الرجل ، ثم عاونوه فى أن يعتدل فى جلسته على فراشه وأن يضع طاقم أسنانه الصناعية حتى يتناول بعض حبات من الفاكهة إرتشف بعدها قليلاً من

عصير البرتقال بعد ثلاثة أيام أضرب فيها عن الطعام معلناً صومه حتى الموت ما لم يتوقف نزيف الدماء المراق بين الجماعات المتقاتلة ! .

وعاش الرجل ليكمل مسيرته التى كرَّس لها حياته من أجل أبناء أمته . كانت الجموع تحتشد لتحف به ، ولتتبع إثر خطواته وهو يجول بينهم بجسمه الضئيل متوكئاً على عصاه الخشبية الطويلة ، وهو نصف عار يئتزر بقطع قليلة من نسيج أبيض غزله بأنامله على مغزله اليدوى ، وتتدلى بخيط فى وسطه ساعة جيب قديمة . يحمل على كتفه كيساً يحوى أشياءه القليلة : ورقاً وقلماً ، مغزله اليدوى ، كرات من الصوف وخيوط من القطن ، وعاء فخارياً صغيراً وملعقة خشبية قديمة وكتبه التى لا يستغنى عنها ! .

يصطحب عنزة يعتمد على لبنها مع بعض الفاكهة فى طعامه فى جولاته البعيدة .

كانت قدماه تبشران بالخير ، وشفتاه تدعوان للحب ويداه تصنعان خيراً فى كل أرض ينتقل إليها ! .

ولد " **موهانداس كارامشاند غاندى** " فى يوم ٢ تشرين أول - أكتوبر ١٨٦٩م فى مدينة بورباندار بالهند . وقد قضى طفولته فى مدينته حيث إلتحق بالمدرسة الإبتدائية بها وقد جاء فى أحد التقارير المدرسية عنه بأنه : " **على مستوى جيد فى اللغة الإنجليزية ، متوسط فى الحساب ، ضعيف فى الجغرافيا . وإنه حسن السير والسلوك ، وردئ الخط ! " .**

وقد وصفه أصدقائه بأنه صبى **جاد وخجول وقليل الكلام ، وعُرف عنه فى الوقت نفسه بأنه يبالغ فى إحترام الكبار فى العمر وقد كان يظهر طاعة كاملة لوالديه وأساتذته وأهل زوجته التى تزوجها وهو فى الثالثة عشرة من عمره كعادة أهل وطنه فى ذلك الحين .**

إلتحق " موهانداس غاندى " بالمدرسة العليا بمومباى ، وعدل عن رغبته فى دراسة الطب خضوعاً لأمنية والده الذى أراد له أن يصبح محامياً أو أن يشغل منصباً مرموقاً فى حكومة المدينة .

ورحل " غاندى " وهو فى التاسعة عشرة من عمره إلى إنجلترا لدراسة القانون ، وقد نال إجازة الحقوق منها بعد ثلاث سنوات عاد بعدها إلى وطنه عام

١٨٩١ وهو يرتدى الزى الأوروبى : قبعة حريرية وحذاء أسود طويلاً وقفازات بيضاء ، وتخايل فى خطواته بعصا ذات رأس فضى كعادة رجال إنجلترا فى ذلك الحين .

ولقد أحزن " غاندى " أن أمه لم تكن فى إستقباله عند عودته .. لم تمتد أيامها لتراه قد حفظ لها وعده بألا يمس خمراً أو لحماً وأن يترفع بقلبه ويديه عن الشر ويمنع قدميه عن الإنزلاق إلى أماكن الرذيلة والفساد .

لم يمتد بها العمر لتراه وقد إلتزم بكلمته لها بألا يميل عن المذهب النباتى برغم ما واجهه من تحذيرات أصدقائه وإنذارهم له بخطر الإكتفاء بطعام النباتيين على صحته ومستوى تحصيله للعلوم التى يدرسها ! .

كان " غاندى " شغوفاً لأن يسرد لأمه مغامراته فى إكتشافه مطعماً للنباتيين فى لندن ، وسعادته بالإنضمام إلى جمعية النباتيين ، وتبنيه قضية الدفاع عن مذهب النباتيين ونشره وقد كان له دور فعَّال فى الإشتراك فى الندوات الخاصة التى تعقدها الجمعية ، كما كان يحرر بعض المقالات القصيرة فى الصحيفة الخاصة بجمعية النباتيين ، وقد أتاح له حماسه للمذهب النباتى أن يتحرر من إنطوائه ، فتبدل خجله بشجاعة نادرة على مواجهة الناس ، وفتح أمامه باب التعرف بالكثيرين من الشخصيات الأدبية والفنية فى عصره .

عمل " غاندى " بالمحاماة فى وطنه وكان يؤمن بأن عمل المحامى يجب أن يتمثل فى الدفاع عن حقوق الإنسانية والحفاظ عليها بين الطرفين المتنازعين وخلق جو من التفاهم والمودة بينهما . ولم يستمر " غاندى " فى عمله بالمحاماة ، وإشتغل فترة بالتدريس بمدرسة بومباى العليا إرتحل بعدها إلى جنوب أفريقيا للعمل فى شركة هندية تجارية بموجب عقد سنوى . كان جنوب أفريقيا يئن كوطنه الهند تحت النفوذ البريطانى .

ولم يشفع له زيه الأوروبى أو شهادته التى حصل عليها من بلاد الإنجليز فى أن يُعامل معاملة كريمة من قبلهم .

كان " غاندى " يعانى مع غيره من الهنود العاملين فى جنوب أفريقيا من سوء المعاملة فلم يكن يحق له السير بصحبة رجل أبيض أو أن يرتاد الفنادق أو المطاعم المخصصة للبيض دون الملونين . وثار " غاندى " على إمتهان كرامته

كإنسان وإهانة وطنيته كهندى عندما ألقى به من القطار لأنه كان يستقل عربة الدرجة الأولى المخصصة للبيض .

خلع " غاندى " الزى الأوروبى وإرتدى الزى القومى لأبناء وطنه ، ودعا الهنود إلى مؤتمر عام للإحتجاج على المعاملة القاسية والتفرقة العنصرية من جانب النفوذ الأجنبى .. ولم يتراجع " غاندى " عن دعوته ولم يخفض صوته أمام ألوان التعذيب التى كان يتعرض لها ، وإنما كتب فى الصحف محتجاً ، ولجأ إلى القضاء شاكياً وكان يؤكد فى دعوته أنه لن يتوانى عن المطالبة بحق الهنود فى حريتهم وفى إلغاء قوانين التفرقة العنصرية طالما أن الله قد خلق الناس متساوين .

طُلب منه يوماً أن يخلع " عمامته " فى حضور حشد من الإنجليز ، فرفض بشدة أن يستجيب للطلب ، ولم يتردد فى أن يغادر القاعة بكل إباء .

ترك " غاندى " حياة المدينة فى جنوب أفريقيا ليعيش بين عمال المناجم الهنود ويشاركهم آلامهم ، وقاد بينهم مظاهرات سلمية صامتة دفاعاً عن الحقوق الإنسانية للمواطن الهندى ! . وعاد " غاندى " إلى وطنه ليكمل مسيرته التى بدأها فى جنوب أفريقيا .

وفى الهند هجر " غاندى " زينة الحضارة ومظاهرها ، وإلتصق بمواطنيه وإختلط بالفلاحين والفقراء والمنبوذين من الهنود وخاض معهم حرباً مسالمة من أجل تحرير الهند من النفوذ الأجنبى . ولقد إستطاع أن يبعث فى الهنود هممهم ويفجر لديهم إعتزازاً بوطنهم ورغبة فى إبرائه من الفرقة التى إستفحلت بين طبقاته ومذاهبه المتعددة وهددته بالحكم المؤبد بالوقوع تحت النفوذ الأجنبى .

كان " غاندى " فى الخامسة والعشرين من عمره عندما إهتمت الصحافة الأهلية والدولية بدعوته من أجل تحرير الهند وإنهاء الحكم البريطانى . وأصبح له حضوره على المسرح السياسى ، وكانت له شعبية كبيرة وكلمة مسموعة فى المجلس الوطنى الهندى .

ونجح " غاندى " مع تابعيه فى أن يفرض سياسة العصيان السلمى فلم يلجأ إلى العنف أو القتال وإنما كان يقودهم فى حملات إحتجاجية صامتة . كان يعلن معارضته للنفوذ الأجنبى بعدم إنصياعه للنظم دون اللوء إلى القتال أو إراقة الدماء . وكان " غاندى " يشدد عزائم تابعيه بأنهم قادرون على نيل حريتهم إن

آمنوا بحقهم فى حياة حرة كريمة وتمسكوا بهذا الحق مع تدريبهم على قهر مشاعر الخوف وضبط النفس عن الوقوع تحت سيادة مشاعر الكراهية أو العداء التى تجنح بالإنسان إلى العنف .

وكان " غاندى " يدافع عن سياسة " **المقاومة فى غير عنف** " وينفى عنها السلبية فى التغاضى عن الشر والسماح للشرير فى الإستمرار فى شره عن طريق الرضوخ السلبى ، ويؤكد فى الوقت ذاته أنها السياسة التى تبادر بتقديم المحبة بإيجابية .

كان الآلاف من الهنود يرمون بأنفسهم أمام القطارات حتى تتعطل السكك الحديدية ، يقدمون أجسادهم كإعلان عن إحتجاجهم دون أن يطلقوا رصاصة واحدة أو يقذفون بحجر واحد .

لجأ الفلاحون الهنود إلى " غاندى " يستغيثون به أن ينقذهم من خطر المجاعة التى تهددهم ومن إستبداد ملاك الأرض الإنجليز الذين جمعوا لأنفسهم ملكية الأراضى الزراعية يزرعون بها القطن مسخَّرين الهنود نظير أجر بخس ثم يعرضونه فى الأسواق بالهند أقمشة ومنسوجات باهظة الأسعار لصناعتها الإنجليزية ..

ودعا " غاندى " أبناء وطنه إلى مقاطعة الأقمشة والمنسوجات الإنجليزية وناشد كل هندى أن يغزل وينسج ملابسه على مغزل يدوى وإبتدأ " غاندى " بنفسه غزل لنفسه رداءً أبيض إرتداه بعد أن خلع عنه ثيابه المستوردة وأحرقها وحذا حذوه الهنود وإنتشر المغزل اليدوى فى ديار الهنود ، وكأن " غاندى " قد فجَّر قنبلة نسفت الإقتصاد البريطانى إذ أصيبت مصانع لانكشير للنسيج فى إنجلترا بالكساد ! .

ودعا " غاندى " الشعب إلى إستمرار مقاطعة كل المصنوعات الأجنبية وتشجيع الصناعات المحلية مما أعاد إلى الهنود جانباً من كرامتهم التى أهدرها المستعمرون الذين أسلموهم إلى ألوان من التعذيب تدرب الهنود على إحتمالها دون مقاومة أو تبادل النيران أو رد الشر بشر .

قاد " غاندى " حشداً من الهنود فى مارس ١٩٣٠ فى مسيرة عرفت بعد ذلك بإسم " مسيرة الملح " إذ سار الحشد يتزعمهم " غاندى " متوكئاً على عصاه مسافة مائتين وخمسين ميلاً حتى بومباى وإنحنى " غاندى " عند شاطئ البحر

وجمع فى قبضة يده **حفنة من الملح** نثرها على الملأ معلناً إحتجاج شعب الهند على الضرائب الجديدة التى فرضتها الحكومة البريطانية على الملح الذى يشكل أساساً فى طعام الهنود وبخاصة الفقراء منهم .

وقد كانت " مسيرة الملح " بمثابة اللطمة الثانية على وجه الإقتصاد البريطانى إذ تعلم الهنود كيف يصنعون الملح بأنفسهم ويجمعونه من شواطئهم وقد ثارت السلطات وزجت بغاندى والمئات من تابعيه فى السجون .

كان " غاندى " يخطو إلى بوابة زنزانته بالسجن وكأنه يدخل قصراً منيفاً يشرق وجهه بإبتسامة تضئ قسمات وجهه الجادة وقد مضى " غاندى " ما يعادل ستة أعوام فى السجون المختلفة فى مراحل مختلفة من كفاحه .

وقد كانت حياته فى السجن تتيح له رفاهية فى العيش كان قد تنازل عنها فى معيشته ببيته سواء فى الطعام أو الشراب أو الفراش فضلاً عن أنها أتاحت له فترات من القراءة والكتابة والتأمل ! .

فقد كان فراشه فى بيته لا يزيد عن حشية من القش أما طعامه فكان بسيطاً وقليلاً وجافاً ، كان نباتياً لا يأكل لحماً أو بيضاً ويكتفى بشرب اللبن وتناول حبات قليلة من الفاكهة أو عصير البرتقال أو الليمون وكان يدرب نفسه على أن ينتقص من مقادير الملح والتوابل والخضر والشاى وقد فرض على نفسه ألا يضع طعاماً فى فمه بعد أن تميل الشمس إلى المغيب . وقد آل على نفسه ألا يغير من نظام غذائه أو أنواعه حتى إن كان فى ضيافة ملك أو أمير ! .

لم يكن " غاندى " فقيراً وإنما عمد إلى مشاركة الفقراء من أبناء وطنه حياتهم . وكان يشترط فيمن يريد أن يتبعه أن يكون مستعداً ليرقد على الأرض ويرتدى ملابس خشنة وأن يستيقظ فى الساعات الأولى من الصباح وأن يتدرب على أن يكتفى بالقليل من الطعام وألا يتأفف من تنظيف دورات المياه ! .

آمن " غاندى " بأن حياة البساطة والتقشف تقى نفسه من شر الأنانية وتجنبها نزعة الغرور وغيرها من تبعات الشهرة والزعامة .

كان يصر على إرتياد الفنادق الرخيصة فى جولاته ، ولا يجد غضاضة فى أن يستقل الدرجة الثالثة بالقطارات .

لم يجد " غاندى " حرجاً فى أن يجتمع بزعماء البلاد وهو نصف عار ولما سأله المعلقون والصحافيون : " **كيف تجرؤ أن تقابل ملك إنجلترا بثيابك هذه**

التى تكشف عن جسدك الهزيل ؟ " أجابهم بإبتسامة هادئة : " **إن ملك إنجلترا يرتدى ملابس كثيرة تكفينا نحن الإثنين " ! .**

ولم يلجأ " غاندى " إلى تغيير نظام يومه فى ضيافة الملوك أو الزعماء . يستيقظ فى الساعة الثانية من كل صباح ليقضى فترة فى التأمل والقراءة وهو يجلس القرفصاء على الأرض ثم يصرف وقتاً فى قراءة الرسائل الواردة إليه والإجابة عليها وكان يعمد إلى الكتابة على المساحات البيضاء المتبقية لديه من الرسائل والظروف التى كانت ترد إليه حتى يوفر ثمن الورق .

وكان إذا إستخدم قلماً من الرصاص لا يستغنى عنه إلا إذا إنتهى إلى بضع سنتيمترات بحيث يعجز عن الكتابة به وكان يعلل ذلك برغبته فى التوفير وأيضاً بإحترامه للجهد المبذول الذى بذله صانع القلم فى صنعه ! .

وبعد أن ينتهى من قراءاته وكتاباته يأخذ حماماً دافئاً ويخلط الماء الذى يستخدمه بقليل من الملح .. وكان يؤمن بفاعلية العلاج الطبيعى لكل علة أو داء فيضع كمادات من الطين على رأسه وبطنه لفترات منتظمة يرفعها بعدها ليبدأ جولاته أو مناقشاته مع الزعماء .

وكان " غاندى " يخصص يوم الإثنين من كل أسبوع يوماً للصمت لا يتحدث فيه إلا إلى نفسه حتى يريح أحباله الصوتية وليستمتع بفترات أطول من التأمل الهادئ والقراءة فى كتبه .

لم يكن " غاندى " يسعى وراء ربح أو ثروة ، ولم يكن يفكر فى راحة نفسه أو مجدها وإنما عُرفت حياته بأنها بحث مستمر وراء الحق الذى يجسده الحب والتسامح والغفران ، ولقد أطلق " غاندى " فيما بعد على قصة حياته : " فى سبيل الحق " .

وقد كان لصوت الحق الذى نادى به " غاندى " دوى أعلى من صوت المدافع وطلقات الرصاص .

خاض مع أبناء وطنه حرباً فى غير عنف وإنتصر بسلاح الحب . كان يتوعد بهدم الإمبراطورية البريطانية وكأنه يباركها لم يحتد ولم يطلق رصاصة واحدة وكان يطيب له أن يردد بأنه يحارب الإستعمار ولكنه لا يبغض المستعمرين .

وإستطاع الرجل الأعزل من كل سلاح أن يهزم الإمبراطورية البريطانية ، إذ نجح فى سنة ١٩٤٧ فى أن ينتزع حرية أمة عددها ٤٠٠ مليون هندى بدون عنف أو إراقة دماء ! . وإنفصلت اللؤلؤة الثمينة (الهند) عن تاج العرش البريطانى ليرفرف فوقها علم إستقلالها وحريتها الذى يتوسطه عجلة مغزل يدوى - رمز المقاومة فى غير عنف .

إستمد " غاندى " من إنتصاره على الإستعمار والعنصرية تشجيعاً له على أن يشهر سلاح الحب ذاته ، ويعلن سياسة المقاومة فى غير عنف ضد الفرقة التى إجتاحت أرض الهند ، إذ إحتدمت الخلافات بين الطوائف المختلفة ، وتفاقمت الصراعات بين أبناء الوطن الواحد ، وتحولت الإحتكاكات بينهم إلى مذابح وحشية ذهب ضحيتها الآلاف من الشباب والشيوخ والأطفال الأبرياء .

أشار " غاندى " على رجل حكى له أنه قتل طفلاً بريئاً كإنتقام لمقتل إبنه بقوله : " عليك أن تبحث اليوم عن طفل برئ فقد والديه فى هذه المذابح .. خذه إلى بيتك وتعهد بتربيته وعامله بحب كما لو كان إبنك " .

كان " غاندى " يحلم بالهند الموحدة التى يتعايش على أرضها جميع أبنائها فى ود وتآخ رغم إختلاف ألوانهم ومذاهبهم وعقائدهم وكان يردد : " إننا كلنا متساوون ، لا فرق بيننا " كان الآلاف يتوافدون من كل صوب ليستمعوا إلى " غاندى " ويستعذبوا أقواله التى يستشهد بها عن المحبة والسلام والغفران .

كانوا يتبعونه أينما سار ويقتفون خطواته فى جولاته بالقرى والمدن يتوكأ على عصا من خشب الخيزران الطويلة ويحمل على كتفه الكيس الذى يضم أمتعته القليلة . . . يجتمع بزعماء الجماعات المتقاتلة ، بكل واحد على حدة ثم يمهد اللقاء بين كل زعيمين تدور بين جماعتيهما حرب ، ويسعى لخلق جو من الألفة والود بينهما ويحاول إقناعهما بوقف إطلاق النيران ، ويأخذ عهداً على كليهما إذا إتفقا أمامه ولا يتردد فى أن يضع حياته ضماناً للعهد إذا أخل به أحد الطرفين .

فكان يمتنع عن الطعام لمدة معينة ، أو يعلن صيامه حتى الموت ما لم يعد المتقاتلون إلى صوابهم ويحترموا إتفاقية وقف إطلاق النار .

ولم يكن أحد يجسر على أن يعرض حياة المهاتما (الروح العظيم) " غاندى " للخطر . إلا إن ذلك لم يكن يعفيه من سخط بعض الجماعات المتقاتلة إذا بادر هو بتقديم الصلح للجماعات المعادية : قوبل يوماً فى مدينة كلكتا بوابل

من الطوب والحجر والزجاجات الفارغة لأنه شوهد يضع يده فى يد زعماء الطائفة الأخرى المعادية ولم يتردد " غاندى " ، وكان آن ذاك فى السابعة والسبعين من عمره ، ورفع يده الضعيفة فى ثقة وواجه المحتشدين بصلابة : " أنتم تريدون أن تصنعوا بى شراً ، ولهذا فقد جئتكم لأخدمكم وأمكث فى حمايتكم ! " .

وعم السلام المدينة فى ذلك اليوم ولمدة ستة عشر يوماً تالية .

نادى " غاندى " أيضاً بضرورة نشر التعليم ورفع مستوى المواطن الهندى وتحريره من أمراض الجهل والفقر والمرض والتخلف فتبنى " غاندى " قضية المنبوذين أفقر فقراء الهنود الذين كانوا لا يختلطون بسائر الهنود ، وإنما يعملون فى صمت فى خدمتهم فى كنس الطرقات وأعمال التنظيف التى كان يترفع عنها سائر الهنود .

وبينما كان الجميع يتأفف من رؤية المنبوذين الفقراء ذوى البشرة الداكنة السواد ويتحاشون لمسهم خوفاً من النجاسة ، عاش " غاندى " فى مقاطعتهم وشاركهم أعمالهم ودعاهم إخوته ويحكى أنه لما تقززت زوجته من تنظيف دورات المياه بدعوى أن هذا العمل الوضيع من إختصاص المنبوذين ، أجابها بقوله : " **لقد خلقنا الله متساوين ...** ولأنك زوجتى فهذا أدعى لمشاركتك لى فى مشاركة حياة إخوتنا " (وكان يقصد المنبوذين) .

ولقد سعى " غاندى " للرقى بحال الفلاحين والعمال الفقراء . وكان ينادى بأن عمل الحلاق لا يقل فى قيمته عن عمل المحامى وأن الحياة الكادحة تستحق التقدير والتكريم .. كما تبنى " غاندى " فى كفاحه قضية الدفاع عن المرأة وطالب بحقها فى التعليم والعمل .

وقدم " غاندى " أروع مثال للحياة الكادحة التى إستحقت التقدير عبر الأجيال والعصور ... ثم رقد الرجل على حشيته وإلى جانبه عصاه الطويلة التى رافقته فى خطواته وإجتمع حوله المقربون إليه وقد بدا الأسى على وجوههم لرحيله عنهم . لم يقتله الجوع وإنما قتلته رصاصات ثلاث إنطلقت من بندقية شاب ضاق قلبه بأغنية الحب التى عاش " غاندى " ٧٩ عاماً يترنم بها .. وتردد الصوت فى الهند كلها يوم وفاة " غاندى " : لقد مات المهاتما " غاندى " ! . متى نرى مهاتما آخر ؟ ! " .

شخصيات لا تنسى ..

(١٢) تشارلز ديكنز

عبقرى بين الفقر والفئران والثراء وقمة النجاح !

ما إن خيَّم سكون الليل على أحياء المدينة الكبيرة وهدأت حركة المارة فى الطرقات ، حتى أدير مزلاج الباب الحديدى لمنزل قديم ، وإنفلت منه صبى فى الثانية عشرة من عمره يحمل على كتفه جوالاً ثقيلاً .

إنطلق الصبى بخطوات مسرعة متخذاً الطرقات الجانبية المظلمة - كما أوصته أمه - حتى يأمن من تلصص عيون المراقبين من الجيران أو المتطفلين .

وبعد برهة من الوقت ، عاد الصبى يجر قدميه الصغيرتين ، وقد أنهكت قواه ، وتقطعت أنفاسه ، وأطلت من عينيه مسحة من الألم إمتزجت بها مرارة الإخفاق ... ألقى بجسده الواهن على الأريكة الخشبية التى تتوسط حجرة خلت من الأثاث ، غير بعض الأرفف المعدنية التى إزدحمت فوقها مجموعة كبيرة من الكتب .

وإجتمع الصغار حول أخيهم المكدود يعبثون بالجوال الذى عاد به فارغاً . وأقبلت أمه وقد بدا الشحوب على وجهها .. وما أن رآها الصبى حتى هب واقفاً يبحث فى طيات جيب سرواله القصير عن قطع نقدية ناولها إياها وهو يقول : **" عشرة فرنكات "** . وشهقت الأم وهى تردد : **" عشرة فرنكات فقط ! "** .

وتعلقت عينا الصغير الدامعتين حسرة وإشفاقاً بأمه وهى تجول ببصرها بين أرجاء الغرفة الخالية ، وإنخلع قلبه عندما حدقت طويلاً فوق الأرفف المعدنية ولم تشفع لديها دموع توسله الصامت بألا تمتد يداها لأعز مقتنياته .

إلتقطت الكتب التى أطلت من الرف العلوى وبأصابع مرتجفة فتحت الجوال ووضعت الكتب فى قاعدته .

ثم غابت لدقائق عادت بعدها وهى تحمل بعض الملابس والصحون وأدوات المائدة ، ووضعتها بحرص فوق الكتب ، وأحكمت غلق الجوال ، ثم رفعته على كتف الصغير بعد أن مسحت بأناملها الدموع التى كانت مازالت تنهمر من عينيه الذابلتين ... وأدير مزلاج الباب الكبير لينطلق الصغير فى جولته الثانية يجوب شوارع لندن المظلمة حتى وصل إلى أحد المحال القديمة حيث باع لصاحبه ما أوصته أمه ببيعه وإرتهن لديه بقية الأشياء نظير فرنكات قليلة عاد بها إلى أمه ! .

• • •

لم يكن " **تشارلز ديكنز** " وهو ثانى إخوته الثمانية ، يعد نفسه صغيراً على إقحام نفسه فى المشكلات المادية أو الضيقات المالية التى كثيراً ما كانت تتعرض لها أسرته ، وبخاصة أن والده كان يعجز دائماً عن النهوض بأعباء أسرة قوامها عشرة أفراد ، وهو يعمل كاتباً بسيطاً بالمكتب المالى للبحرية ، مما كان يضطره إلى الإستدانة ، وكثيراً ما كانت تتراكم عليه الديون فيُزج به فى سجن المدينين حتى يتوفر له سداد الدين ! .

وأدرك " تشارلز " أن فترة سجن والده قد تطول لبضعة أشهر فى هذه المرة ، وبخاصة أن محاولات أمه لبيع القليل المتبقى من أثاث البيت أو رهن آخر ما فى حوزة الأسرة من كتب أو أدوات لم يف سوى ببعض الدين .

ولم يكن هناك مفر من أن يترك الصبى مدرسته ليلتحق بعمل يدر عليه بعض الشلنات القليلة فى كل أسبوع ! .

كان " تشارلز " يبكر فى الصباح ليسير على قدميه أميالاً طويلة حتى يصل إلى مكان عمله : مدبغة للجلود تشغل مبنى قديماً قد تصدعت جدرانه وإنعدمت فيه التهوية ، مما أدى إلى جو من الرطوبة المتعفنة بالمكان . وكان الصبى - كرفقائه - يتقزز من الأعداد الهائلة من الفئران الكبيرة الحجم التى كانت تتجول فى ردهات المدبغة ، وتتعلق بأرجل العاملين وتختفى بين ثنايا سراويلهم ! .

كان شبح الفقر يدفعه إلى إحتمال ألوان العذاب التى ينوء بحملها كاهله الصغير ، ويرد عنه شعوره بالغيرة أو بالسخط كلما صادف أصدقاء طفولته فى طريق ذهابهم أو عودتهم من المدرسة التى حرم منها .

كانت القضبان الحديدية التى يرزح أبوه من خلفها تتحداه أن يشكو من تبرمه

بالعمل أو يفصح عن آلامه إذا تورمت قدماه من السير لمسافات طويلة ، أو أن يسيل لعابه إشتهاءً لوجبة ساخنة من الطعام مهماً كانت برودة الجو ! .

وهكذا تحمل الصبى ما قد ينوء رجل بحمله من الكد والألم طيلة أيام وليال مرت ثقيلة كالدهر رغم أنها كانت ثلاثة شهور أطلق سراح والده بعدها ليعوضه ما فاته من التعليم ، فأعاد قيده بالمدرسة من جديد ورد إليه كتبه المرهونة وحرص على تعليمه الإختزال الذى كان والده قد أجاده فى أثناء فترة السجن ! .

وأثبت " تشارلز " نبوغاً فى التحصيل والإستيعاب وكان يهوى القراءة ويعشق الإطلاع ويقبل بشغف على البحث فى كل ما كانت تمتد إليه يداه من كتب أو مراجع ، سواء أكانت تتصل بمنهاجه المدرسى أو بشتى ألوان المعرفة ، حتى صقلت ثقافته ونضجت موهبته الأدبية فى القراءة والنقد والتأليف والتمثيل الذى كان يهواه .

أحب " تشارلز " فتاة سليلة إحدى الأسر العريقة فى مطلع حياته العملية كمساعد محام ، وقد حال فقره ومركز أسرته المتواضع ، دون الفوز بها كزوجة ، مما دفعه للإنكباب على عمله حتى يحقق له ثروة ونجاحاً وشهرة فى عالم الأدب والفن ، الأمر الذى أتاح له الزواج فيما بعد بإبنة صحفى مشهور .

وهيأت له براعته فى الإختزال فرصة العمل كمراسل صحفى ومختزل لوقائع الجلسات الرسمية للبرلمان ، وكان فى الوقت نفسه يحرر بعض المقالات القصيرة فى بعض المجالات والصحف وقد نال " **تشارلز ديكنز** " شهرة واسعة عندما أعيدت طباعة هذه المقالات القصيرة الطريفة بإسم " بوز " (BOZ) ، إسمه المستعار من أصغر إخوته .

وكان أكثر ما يستهوى " تشارلز " فى عمله فى إختزال وقائع المناقشات بالبرلمان ، دراسته للشخصيات المختلفة من البشر ، التى ترد عليه فى كل يوم ، وكانت له مهارة فائقة فى متابعة قضاياهم وتحليل نواياهم وتفهم نفسياتهم ، مما أتاح له نبوغ عبقريته فى خلق شخصيات رواياته التى كانت تتفاعل معها مشاعر قرائه فكانت تستدر عبراتهم أو تثير ضحكهم أو سخريتهم ! .

ولقد برع " تشارلز " فى مزج روح الإثارة والسخرية بالمرح والطرافة ، فعرف بعظمة قدرته على التنويع فى رواياته ، بين الكوميديا والمأساة . ونال أدبه

الروائى شعبية واسعة بين طبقات الشعب المختلفة ، فقد شغف العامة من الفقراء والعاملين الكادحين بقراءة رواياته التى كان يستمتع بقرائتها أيضاً الخاصة والأرستقراطيون .

لم يتحرر " تشارلز ديكنز " من شبح الفقر الذى هدده فى مطلع شبابه ، ودفعه الحرمان الذى إصطبغت به طفولته وصباه ، إلى قبول أى عمل فى مجاله يدر عليه ربحاً حتى كوَّن ثروة طائلة حُسِبَ بموجبها فى عداد أغنياء عصره ، وعاش حياة بذخ وإسراف على المأكل والملبس وإمتلك وأقام فى ديار أشبه بالقصور . ولكنه لم يبخل على المحتاجين ، ولم يتنكر لطبقته الكادحة ، وتبنى فى رواياته قضية الفقراء ، وحمل على عاتقه مسئولية إصلاح الأحوال الإقتصادية ، وعلاج الأمراض الإجتماعية التى كانت تعانى منه بلده آنذاك .

ولقد إنعكست آلام طفولته على أبطال بعض رواياته ، فعاش طفولته فى شخصية الطفل اليتيم المشرد الذى يئن فى مناشدته للإنسانية المعذبة . وقد كتب " تشارلز ديكنز " عن بطل روايته " ديفيد كوبر فيلد " : " إننى أفخر بولدى ديفيد كوبر فيلد " وهذه الرواية تترجم حياته الشخصية إلى حد كبير ، وقد أقر ديكنز بذلك كما أنها تعتبر من أحسن أعماله الأدبية .

أما روايته " أوليفر تويست " (Oliver Twist - ١٨٣٩) فقد كانت نقداً صارخاً للقصور فى دور التعليم وإهمال الخدمات التعليمية والعلاجية ، ولقد كشف فيها الستار عن المعاناة التى يرزح تحت ثقلها العمال الفقراء الذين كانوا يشكلون الطبقات العاملة المعدمة فى أواسط القرن التاسع عشر . ولقد إستطاع " تشارلز ديكنز " أن يصور بمهارة فائقة الطفل أوليفر كضحية لفساد المجتمع الذى إنصرف فيه أغنياؤه عن سائر الطبقات المكدودة .

ويعد النقاد رائعة " تشارلز ديكنز " (Bleak House) وهى تعنى البيت الكئيب (١٨٥٣) من أروع رواياته التى تعرض فيها " تشارلز ديكنز " بسخريته الطريفة إلى نقد الشرور الكثيرة التى كان يعانى منها الفقراء إذ إنتقد بشدة عجرفة هؤلاء الذين يتظاهرون بحب الناس ، ولهم صورة التقوى ولكنهم منكرون قوتها ... وقد أطلق عنوان هذه الرواية على بيته فيما بعد ، ولا علاقة لأحداثها بالدار نفسها .

وتابع " تشارلز ديكنز " نجاحه الساحق فى روايات متتابعة " كقصة

مدينتين " (Tale of two cities - ١٨٥٩) و " التطلعات الكبرى " (Great Expectations - ١٨٦١) وغيرها .

وكان حاذقاً فى أن يطوع شخصيات رواياته ، فيخلق من نسيج كل رواية سلاحاً يشهره أو حملة يشنها ضد مواطن الفساد فى المجتمع . وقد كان لصرخاته صدى فى إصلاح أوضاع المدارس وحال التعليم ، وتحسين الخدمات الطبية بالمستشفيات العامة ، ورفع مستوى الممرضات ، وإلغاء بعض القوانين المجحفة التى تتعلق بالعاملين بالمصانع والمناجم ، وإعادة النظر فى قانون السجن من أجل الديون الذى عانى والده منه وتألمت كل أسرته نتيجة له .

ولم يكن " تشارلز ديكنز " من أكبر الروائيين الإنجليز فحسب ، وإنما كان أيضاً خطيباً جماهيرياً محبوباً له حضوره فى المجتمعات ولكلمته صدى مسموع .

كما كان صحافياً لامعاً ، رأس تحرير صحيفتين أسبوعيتين ، وأسس جريدة وطنية وقد كُتب عنه : **" إنه صحافى موهوب ومعلق صحفى بارع يندر أن يتكرر " .**

كما شغف " تشارلز ديكنز " بحياة الرحلات والأسفار ، وإستهواه التمثيل وأداء الروايات أداءً تعبيرياً بالقراءة . وكان الناس يتهافتون على سماعه . وقد جاب البلاد معه فرقة خاصة من هواة فنه ، يستعرض خلالها قراءاته لبعض مقاطع من رواياته .

إلا أن أطيب أوقات " تشارلز ديكنز " ، هى التى كان يقضيها فى بيته الكبير (Bleak House) المشيد فى منطقة " برود ستيرز " الصخرية التى تعتبر واحدة من أجمل المناطق ببريطانيا ، ويطل البيت الشامخ بحديقته الوارقة على ساحل " كنت " (Kent) على خليج " فايكنج " حيث تحتضنه مياه البحر ، مما يضفى شاعرية على البيت الذى تحول الآن إلى مُتحف يقصده الزوار المهتمون بالأدب . والمحبون لتشارلز ديكنز .

وقد إعترف " تشارلز ديكنز " أن لذلك البيت سحراً خاصاً كان يأسره ويلهمه بروائع رواياته .

كان يستمتع بالإستلقاء على ظهره بحديقة داره ، ويقضى الساعات مستغرقاً

فى القراءة . ولم يكن أحد ليجرؤ على مقاطعته . ولكنه كان يكرس وقتاً يستمتع فيه بصحبة أصدقائه من رجال الأدب والفن والصحافة ، ويبالغ فى كرم ضيافتهم وحسن إستقبالهم ، كما كان يخصص وقتاً لأبنائه العشرة حيث كان يستمتع لهم ويمرح معهم فى حديقة الدار ويشاركهم فى نشاطاتهم .

وقد عرف عن " تشارلز ديكنز " هوايته للسير على الأقدام التى بدأ فى ممارستها رغماً عنه فى طفولته ، فكان كثيراً ما يغادر داره فى جولات طويلة تمتد إلى عدة كيلو مترات يعود بعدها ليلقى بنفسه فى ماء البحر أمام داره فقد كانت السباحة تستهويه .

كما كان يهوى الإشراف بنفسه على بعض الأمور التى تتعلق بإدارة البيت وكان يحلو له أن يطهى بنفسه بعض الأكلات وقد فاجأ زوجته يوماً بإعداده كتاباً عن فن الطهى ، ومازالت بعض القدور التى كان يطبخ فيها بمتحفه .

وقد برع " تشارلز ديكنز " فى تصوير الجمال الذى كان يحيط به ؛ وتضمنت رسائله لأصدقائه مقاطع من الشعر المنثور ، رسم فيها بكلماته لوحات خلابة لمناظر طبيعية ، ونقلها ببراعة بألوانها وشكلها ورائحتها ونبض حركاتها .

ومن يتأمل حياة " تشارلز ديكنز " يجد أن هذا الرجل كان شعلة من النشاط ، إذ كان دائب العمل ، وعُرف عنه ذلك حتى إنه لما تقدم لشركات التأمين على الحياة وهو فى سن السادسة والعشرين رُفض طلبه لتوقع تلك الشركات وفاته العاجلة ، نظراً لأنه يجهد نفسه بالعمل أكثر مما ينبغى ، وقد حرص " تشارلز " على الإحتفاظ بخطاب رفض طلبه ، وقد علقت الآن صورة طبق الأصل لذلك الخطاب بإحدى حجرات المتحف " بليك هاوس " .

ولم يركن " تشارلز ديكنز " للراحة يوماً وتعرض للإنهيار بسبب إرهاقه فى العمل وقد أصيب بالشلل النصفى وعاش فى غيبوبة إستمرت يوماً ، قبل رحيله فى التاسع من يونيو عام ١٨٧٠ عن عام ٥٨ عاماً ، أى بعد مرور ٣٢ عاماً على رفض شركات التأمين طلبه للتأمين على حياته ! .

توفى " تشارلز ديكنز " ،

وإندثرت غالبية قصوره التى عاش بها ،

وعائلتـه تكـاد تنقـرض إلا مـن القلائـل ، وبيـنهم الـسيدة " أدا ديكنـز " (Ada Dickens - ٩٥ عاماً) ، وهى تقيم ببيت للمسنين فى هوف بمقاطعة ساسكس (Sussex) ، وبـالرغم مـن أن هذه الـسيدة فاقدة للـذاكرة ، فإنـك إذا زرتها وحدثتها عن " تشارلز ديكنز " ، رأيت وجهها يتهلل ، وتستعيد ومضة من ذاكرتها لتقول لك بإعتزاز " أنا سليلة تشارلز ديكنز " ! .

إن قصة كفاحه فى الحيـاة وأعمالـه الأدبيـة تقف شـامخة يحترمها التـاريخ ويتوارثها الأدباء والمتأدبون والكـادحون والطموحون فى كل العصور . وبذلك يصدق القول الذى صُرح به بعد وفاته منذ أكثر من مائـة عام " عاش تـشارلز ديكنز كالشمعة التى أحترقت من طرفيها حتى تعطى أكبر قدر من الضوء لمن حولها ! " .



شخصيات لا تنسى ..

(١٣) بارنى روس

من مذكرات : **بطل العالم للملاكمة**

فى أثناء التحقيق الذى قامت به إحدى اللجان التى ألفهَا الكونجرس الأمريكى لبحث مشكلة المخدرات ، قال أحد الأطباء وهو يدلى بأقواله أمام اللجنة : " إن مدمنى المخدرات الذين نعالجهم ، يعودون إلى تناولها إن عاجلاً أو آجلاً " ، وهنا إرتفع صوت رجل كان قد استُدعى للشهادة أمام اللجنة قائلاً :

" ها هو شخص لم يعد إلى المخدرات ، ولن يعود إليها أبداً " .

وكان هذا الشاهد هو " بارنى روس " من أبناء شيكاغو البارزين ، وكان بطلاً فى الملاكمة فى العالم كما كان بطلاً من أبطال الحرب .. ثم مدمناً للمخدرات ، ثم تزعم - بعد شفائه - شن حملة لا هوادة فيها على إدمان المخدرات .

• • •

كنا نعيش فى مسكن صغير فى حى حقير يقع فى قلب المدينة ، وعبر الشارع ، كان لأبى حانوت صغير للبقالة ، يكدح فيه هو وأمى كالعبيد تسع عشرة ساعة كل يوم . وعلى الرغم من ذلك ، كانت حالتنا بالغة البؤس ، إذ كان جيراننا جميعاً من الأسر الفقيرة ولا يستطيعون شراء الكثير من الضروريات .

وفى ذلك اليوم ، كان أبى قد فتح أبواب حانوته مبكراً كالعادة ، وفى السابعة والنصف كنت قد إنتهيت من تناول طعام الإفطار ، وغادرت المنزل إلى متجر أبى لآخذ منه مصروفى اليومى وشطيرة لغذائى فى المدرسة . وبينما كنت أقفز درجات السلم فى طريقى إلى الشارع ، إصطدمت بصديق لى كان قادماً إلينا .

وقال الصديق وهو يلهث وقد بدا وجهه شاحباً : كنت قادماً إليك يا " بارنى " .. هيا أسرع معى فقد حدث شئ فى الحانوت .

وأسرعت أعبر الشارع عَدْواً ، ودفعت الجمع المحتشد أمام حانوت أبى . وفى الداخل رأيته ملقى على الأرض وعضلات وجهه تتقلص من الألم . كان قميصه وحزام النقود والشال الصغير الذى يضعه حول رقبته ، كلها ملوثة بالدماء ، وإلى جواره مسدس ملقى على الأرض .

وفجأة سمعت صرخات هستيرية تدوى فى المكان . كان صوت أمى وهى تصرخ فى لوعة وألم عميق ، وقد أخذ جسدها كله ينتفض مع عبراتها المتدفقة ، وهى تئن قائلة : " ماذا فعل بك المجرمون اللصوص ؟ " .

وأقبلت عربة الإسعاف فحمل رجالها أبى ، ثم جاء رجال الشرطة وأخذوا يستجوبون إمرأة عجوز كانت هى الشاهدة الوحيدة لما وقع . وتبين من أقوالها أن شابين صغيرين أقبلا إلى الحانوت ، وهى تبتاع بعض حاجاتها من أبى ، ووقفا ينتظران إنصرافها بصبر نافد . وكانت تبدو عليهما عصبية بالغة وقلق شديد ، حتى بدأت ترتاب فيهما ، وحاولت أن تحذر أبى ، ولكنه سخر من مخاوفها ، فقد كان أبى يثق بكل إنسان .

وما كادت المرأة العجوز تغادر الحانوت حتى سمعت دوى طلق نارى ، وأسرع المجرمان بالفرار قبل أن يسرقا مليماً واحداً ، ولم يعرف أحد فى أى إتجاه ذهبا . وفى المستشفى ، ظل أبى غائباً عن الوعى لمدة ٣٢ ساعة ، ثم تنبه أخيراً وتمتم بصلاة قصيرة ، غاب بعدها عن العالم إلى الأبد ! .

كان كل من حولى يبكى وينتحب ، إلا أنا ، فقد جفت الدموع من عينىَ وتركتنى الصدمة فى ذهول رهيب .

• • •

لو أن أحداً قال لى قبل هذا الحادث المروع إننى سأجد مستقبلى فى إحتراف الملاكمة ، لقلت إنه مجنون ، فقد كنت أقصر شخص فى الأسرة ، إذ كان طولى يقل عشرة سنتمترات عمن فى مثل سنى ، كما أننى كنت نحيلاً لا يزيد وزنى على ٤٥ كيلو جراماً ، بل إن مجرد الحديث عن الملاكمة فى منزلنا كان يُعَد جُرماً ؛ فقد كان أبى من الذين يؤمنون بأن أى عنف بين البشر شئ يدعو للخجل ، بل إن القتال دفاعاً عن النفس خطيئة فى نظره . هذا بالرغم من أننا كنا نعيش ،

فى شيكاغو ، فى قلب ميادين القتل وحوادث العنف ، فقد كان كثيرون من زعماء العصابات ورجالهم المسلحون يتخذون منها مقراً لقيادتهم ومجالاً لنشاطهم .

• • •

وتوالت علينا النكبات بعد مصرع أبى . لقد أصيبت أمى بنوبة من الهيستيريا الحادة حتى إنها حاولت أن تلقى بنفسها فى القبر لتدفن مع أبى . وقال الطبيب إنها أصيبت بإنهيار عصبى عنيف ، ونصحنا بأن نوفر لها الراحة التامة بعيداً عن الأماكن التى تذكّرها بما حدث ، فأرسلناها إلى الريف حيث أقامت مع جدتى الكفيفة البصر .

وإضطررنا إلى بيع الحانوت بأبخس الأثمان ، وذهبت أنا وشقيقى الأكبر لنعيش مع إبن عمنا ، على حين ألحقنا أخوتى الثلاثة الصغار بأحد ملاجئ الأيتام بإحدى المدن المجاورة . وهكذا ، بضربة واحدة ، تمزق شمل الأسرة التى كانت متماسكة كفرد واحد . وفى غمرة خيبة الأمل التى خيمّت على نفسى ، والمرارة الرهيبة التى طغت على روحى ، شعرت بالغضب والثورة على العالم كله ، وإنطلقت أبحث عن المشاحنات والمشاجرات ، وأشترك فى عصابات الفتيان المتقاتلة .

كان كل خصم يذكرنى بقتلة أبى ، فأقاتله بشراسة ووحشية حتى وجدت أننى قادر على ضرب فتيان أكبر وأثقل وزناً منى بكثير .

ترددت على مقهى " الشياطين الأربعة " حتى ألتقى " بآل كابونى " - ملك المجرمين يومئذ فى أمريكا ، وكان رجلاً متين البنية ، أسمر البشرة ، على وجنته ندبة من إثر طعنة موسى قديمة . سألته أن يساعدنى فى الحصول على عمل .. وتبين لى أنه يعلم تفصيلات مصرع أبى ، ولكنه حاول أن يثنينى عن عزمى فى أن أصبح من رجال العصابات ، وعندما وجدنى ألح فى الإنضمام إليه ، قال لى مزمجراً : إنه سيعهد إلىَّ ببعض المهام الصغيرة مقابل مكافآت مالية . وكانت الأعمال التى يسندها إلىَّ " آل كابونى " تافهة كلها ، كأن أسلم رسائل لبعض الناس أو أذهب بملابسه للتنظيف ، وكان معنى كل مهمة مكافأة طيبة .

وذات صباح أنهى " آل كابونى " علاقتى به فجأة قائلاً : إن الوقت قد حان لكى أبتعد عن مكانه . وأعطانى عشرين دولاراً وأمرنى أن أبحث عن عمل آخر .

وبالفعل عملت كاتباً بالبورصة ولكننى بعد ثمانية أشهر ، بدأت أحس بالملل وبخاصة أن الأجر كان قليلاً .

كنا نعيش فى مسكن صغير ، ونفقات البيت وعلاج أمى تبتلع كل ما أربحه أنا وأخى ، على حين لا يزال أشقائى الثلاثة الصغار فى الملجأ دون أن تبدو بارقة أمل لإخراجهم منه . وكانت رغبتى فى أن أجمع شمل الأسرة مرة أخرى تدفعنى للبحث عن وسيلة أخرى لكسب نقود أكثر .

كانت شيكاغو يومئذ مليئة بأندية الملاكمة الصغيرة ، وكلها تقدم مباريات للهواة والمحترفين على السواء . وما كدت أعرف أنهم يمنحون الهواة الفائزين ميداليات وهدايا تذكارية وساعات ذهبية (يستطيعون رهنها) ، حتى إتجهت إلى هذا المورد لزيادة دخلى ! .

ومع أننى لم أكن قد بلغت السادسة عشرة من عمرى ، إلا أننى سرعان ما برزت فى هذا الميدان ، وأصبحت ألعب مباراتين أو ثلاثاً كل أسبوع . ثم قررت أن أصبح ملاكماً متفرغاً . وفى خلال عام واحد إشتركت فى ١٢٥ مباراة رسمية و ٧٥ غير رسمية ، كسبتها كلها ما عدا ثلاثاً ، كما فزت ببطولة مباراة القفاز الذهبى الدورية للهواة ، فإشتهر إسمى ولمع نجمى فى شيكاغو كلها ، وأصبحت صحف الرياضة تهتم بأنبائى وتتنبأ لى بمستقبل باهر . وفى خلال الشهور التالية تخلصت من كل المنافسين واحداً بعد الآخر ، لأصبح فى النهاية المنافس الأول لبطل العالم فى وزن الخفيف .

وفى يوم ٢٦ حزيران (يونيو) عام ١٩٣٣ ، وتحت الأضواء المتوهجة بملعب شيكاغو ، وبين دوى الصيحات المنبعثة من حناجر ١٦ ألف شخص ، هزمت " تونى كانزوينرى " وأصبحت بطل العالم . وفى خلال أسابيع ، حققت أملى فى جمع شمل الأسرة الممزقة تحت سقف واحد .

أصبحت بطل شيكاغو المعبود ، لا فى حَيِنَّا وحده بل فى المدينة بأسرها . كان المعجبون يلتفون حولى فى الطريق ، ملتمسين توقيعى على دفاترهم . وبدأت أتلقى سيولاً من رسائل المعجبين من نواحى العالم كله . ودعيت للحديث فى إجتماعات كثيرة ، كما ظهرت على بعض المسارح ، وقمت ببعض الإستعراضات فى نواحى المدن الأمريكية . فإنهالت علىَّ الأموال من كل صوب . وكان أول همى هو الإنفاق على الأسرة ، ولقد أقترح علىَّ أخى أن

يتولى إستثمار بقية نقودى ، حتى أجد دخلاً فى سنواتى المقبلة ، قائلاً لى : " تذكر أنك لن تلاكم إلى الأبد ! " .

ولكنى سخرت من مخاوفه وقلت له : " لماذا تُقلق نفسك بما سوف يحدث بعد عشر سنوات " .

كنت أعتقد أن نقودى كثيرة وأنها لن تنفد قط .

ولم تمض إلا شهور قلائل حتى وجدت نفسى على وشك الإفلاس ، مما دفعنى للإشتراك فى مباريات أخرى تدر مبلغاً كبيراً ، ولكن المال أصبح يتبخر بين يدى بأسرع مما يجئ .

وظللت طوال السنوات الخمس التى إحتفظت فيها ببطولة العالم فى الوزنين الخفيف والخفيف المتوسط ، أسير فى نفس الطريق الضال .. أرباح كثيرة ، وإنفاق كثير يؤدى للإفلاس والخراب .

وأخيراً تباريت مع " هنرى أرمسترونج " بطل العالم فى وزن الريشة فى آيار (مايو) سنة ١٩٣٨ ، وكنت متأكداً من فوزى ولكننى فى منتصف الجولة السادسة ، أحسست بشئ ما فى ساقى فلم أعد أستطيع تحريكهما . وأحس " أرمسترونج " بأننى فقدت الحول والقوة ، فإنقض علىَّ بسيل من ضرباته القوية ، ورفعت ذراعىَّ لأحمى وجهى ، فأحسست بهما ثقيلتين .

وتحملت يومئذ أعنف ضربات تحملها ملاكم فى الحلقة بسبب كبريائى التى منعتنى من السقوط أمام خصمى ، ورغم ذلك فقد فاز هو فى المباراة .

ولم أستطع أن أفهم ماذا حدث لى ؟ . وسألت مدربى : " ما هذا ؟ أهى صدمة ، أم شلل ؟ أم أننى تناولت طعاماً فاسداً ؟ " .

فنظر إلىَّ نظرة غامضة ، وقال : " إنها السن يا بارنى ! ، هذه هى مباراتك الأخيرة ! " .

وكنت يومئذ قد بلغت الثامنة والعشرين ! .

• • •

أصبح موقفى كبطل سابق يدعو للرثاء . لم يبق معى من النصف مليون دولار التى ربحتها من ملاكماتى ، غير مبلغ ضئيل ، أفتتحت به باراً يحمل إسمى ، ثم

نزلت عنه لشقيقى وتطوعت فى مشاة الأسطول ، وكنت يومئذ فى الثالثة والثلاثين ، وتزوجت من " كاتى " بعد شهور قليلة من تطوعى بالجيش .

إلا أننى أصبت فى إحدى الدوريات بالدوسنتاريا وبحمى الملاريا وعانيت من القئ المستمر والصداع الحاد ، وآلام مبرحة بالساقين وتم نقلى إلى مستشفى الميدان حيث أعطانى رجال الفيلق الطبى حقناً من المورفين حتى يتوقف الألم مؤقتاً . وكانوا يعطوننى المزيد من المخدر كلما شكوت من الألم ، حتى أصبحت أعتمد على المورفين كما يعتمد الغريق على طوق النجاة . ولاحظ أحد الأطباء حالتى فحذرنى من الإدمان للمخدرات ، ولكننى لم أعبأ بتحذيره .

وبعد أسابيع أعادونا إلى الولايات المتحدة حيث أرسلت إلى مستشفى البحرية ، وذهلت " كاتى " عندما تأملتنى ولاحظت الشعرات البيضاء التى ملأت رأسى ، والطريقة التى أسير بها متكئاً على عصا ، والتجاعيد التى خطتها الأيام والأحداث على صفحة وجهى .

ووجدت أننى مضطر لأخذ المزيد من المورفين ، فقد كانت كل حقنة يتلاشى أثرها أسرع مما سبقها وتعود الآلام أسوأ مما كانت . وأخفيت عن زوجتى مأساتى . كانت مشكلة الحصول على المخدر تشغل إهتمامى .. كنت أذهب إلى طبيب فى الصباح .. وفى المساء أبحث عن طبيب آخر فى حى آخر .

وأدركت أخيراً أننى أصبحت عبداً مدمناً للمخدرات .. وكان إدراك هذه الحقيقة الرهيبة مرعباً . لقد أردت يومئذ أن أخفى وجهى عن العالم كله ! .

وتحطمت نفسيتى عندما قرر الأطباء أننى بلغت من الضعف والعجز حداً يجعلنى غير صالح للعودة للخدمة العسكرية ، فقرروا تسريحى ، ونصحونى بالراحة فترة طويلة .

بدأت أولاً فى الطواف بعيادات الأطباء ، فلما رزتهم جميعاً ، إتجهت إلى مهربى المخدرات . وكانت معاملتى الأولى مع شخص ضئيل يدعى " إدى " ، علمَّنى كيف أحقن نفسى بنفسى . وما لبث " إدى " أن أصبح أهم شخص فى حياتى . كان أول من أفكر فيه عندما أستيقظ فى الصباح وآخر من أفكر فيه قبل أن أغلق عينى للنوم فى المساء ! .

وذات يوم تأخر " إدى " عن موعده فكدت أجن . وعندما حضر فى النهاية قال لى أنه قرر مضاعفة السعر لأننى شخصية هامة يجب أن تدفع الكثير حتى لا

تتعرض للفضيحة ! . وهكذا إضطررت لأن أدفع ١٢٥ دولاراً إضافياً خوفاً من التهديد بالفضيحة .

وكنت مضطراً لأن أكذب مراراً على " كاتى " لإخفاء ضيقى المالى ، ولم أكن أستطيع أن أقول شيئاً من الحقيقة . لذا فقد كانت الصدمة مروعة عندما وصلتنى أوراق إجراءات الطلاق ؛ لم أكن أستطيع أن ألومها على موقفها ، فإننى لم أكن زوجاً لها خلال السنوات الثلاث الأخيرة ! ، التى آثرت الإنفصال عنها فيها . ونشرت الصحف أن " كاتى " حصلت على حكم تمهيدى بالطلاق .

وأدركت أنه لم يعد يهمنى أن يعرف العالم كل شئ عنى . فالمهم أن أسترد زوجتى " كاتى " ، وهناك طريق واحد لذلك .

كنت أعلم أن المدمن فى حاجة إلى نظام حديدى لشفائه وأن أفضل مكان للعلاج هو المستشفى الحكومى التخصصى .

وأدركت أننى أضعف كثيراً مما كنت أظن أو أفتكر ، وأننى فى حاجة إلى عون وتعضيد وتشجيع ، ولم أجد غير أن أرفع عينىَّ إلى السماء وأدعو الله الذى طالما تناسيت وجوده ، وبالغت فى الإعتماد على قوتى وصلابتى .

ركبت سيارة أجرة ، وإتجهت لمكتب المراقب العام لمكافحة المخدرات .

• • •

رددت محطات الإذاعة والصحف النبأ ، فأقبل أصدقائى وأقاربى يشجعوننى على الإستمرار .

وفى نفس الليلة حادثتنى " كاتى " تليفونياً من كاليفورنيا ، بعد أن قرأت النبأ فى الصحف .

قالت وهى تبكى : " لماذا لم تخبرنى ؟ سأحضر فى الصباح ! ، على أول طائرة " . وحضرت ، وأحسست وهى معى ودموعنا تهطل ، أن تلك أسعد لحظة فى حياتى منذ ثلاث سنوات . وفى اليوم التالى دخلت مستشفى علاج المدمنين فى لاكسنجتون وخرجت منها بعد شهور وقد شفيت نهائياً .

وفى خلال السنوات العشر التى أعقبت مبارحتى المستشفى ، قمت بشن حملة جارفة لمساعدة الشباب للخروج من هذا الجحيم ، الذى خبرته سنوات قاسية ، وسافرت إلى كل مكان ، لأمد يدى لإنتشال هؤلاء الذين كادت الهاوية تبتلعهم إلى الأبد .

(١٤) دى ويت والاس

هذا الرجل وجامعة الجيب

كانت تعبيراً دقيقاً عن تفكير " دى ويت " الذى ترك الجامعة وتتلمذ على نفسه ليؤسس " جامعة الجيب " .

فى صباح يوم من أواخر كانون ثان (يناير) عام ١٩٢٢ ، وفى قرية " غرينتش " ذات الطابع البوهيمى بولاية نيويورك ، وبالتحديد فى مكتب صغير يقع فى الطابق الأرضى بشارع مينيتا ، كان العمل جارياً على قدم وساق فى إعداد العدد الأول ، والذى يحمل تاريخ شباط (فبراير) ١٩٢٢ من مجلة " الريدرز دايجست " للشحن . والمشرفان على العمل " **دى ويت والاس** " ، وعروسه " **ليلى تشيسون والاس** " مؤسسا المجلة ورئيساً تحريرها .

" ليلى والاس " حسناء سمراء ناعمة زرقاء العينين فى الثانية والثلاثين من العمر ، وقد إنصرفت للعمل الإجتماعى بعد ممارستها تعليم الإنجليزية . وقد تزوجت " دى ويت " منذ ثلاثة أشهر سابقة .

كان " والاس " الإبن الثالث " لجيمس " أستاذ الجامعة اليونانى و " جانيت والاس " ، وعندما ولد " والاس " ، أسمته والدته " وليم روى " ، على حين أسماه والده " دى ويت " ، وتغلب الإسم الأخير ، وأصبح معروفاً به طوال سنوات عمره ، وكان ناحل الجسم طويل القامة ذا مشية رياضية . وعندما كان فى السن المراهقة دأب على لعب البيسبول . وكان فى نظر عائلته فتى خائباً متعثراً فى دراسته .

ترك " والى " (هكذا كان يدعوه أصدقاؤه) دراسته فى الجامعة وشغل وظائف عديدة ، وبعدما طُرد من عمله فى إحدى المؤسسات فى بيتسبورغ ، ذهب إلى مدينة نيويورك بقصد إصدار مجلة من بنات أفكاره .

كان " ويت " محباً للقراءة والإطلاع منذ طفولته ، كل ما هو مكتوب أو مطبوع يثير فضوله ، كما أنه عرف المكتبة كمؤسسة ، وكانت بالنسبة له المكان المثالى لتحصيل المعرفة . وكان أخوه الأكبر " بنجامين " على مثاله فى الطريقة التى إنتهجها فى تدوين ملاحظاته وجمع كل المعلومات التى يرغب فى الإحتفاظ بها بعد قراءته أى مقال .

قطعت الحرب العالمية الأولى كتابات " والى " ، ففى اليوم الخامس من الهجوم على " موز - أرغون " بفرنسا فى تشرين أول (أكتوبر) ١٩١٨ ، أصيب الرقيب " والاس " من كتيبة المشاة ٣٥ بشظايا فى أنفه ورقبته ورئته وبطنه مما ألزمه الفراش للعلاج والنقاهة لمدة بضعة أشهر . وفى هذه الأثناء ، خطر له أن الملاحظات التى كان يدأب على تدوينها قد تصلح أساساً لمجلة ذات طابع عام .

وبعد خروجه من المستشفى ، أخذ الفكرة بجدية ، فإستزاد من القراءة عندما عمل عدة أشهر فى مكتبة ، وجمع أعداداً كبيرة من المقالات المنتقاة ، ودون منها ما إستساغه ، وإختار منها ٣١ مقالة وأعاد تنقيحها وكتابتها ، وعهد إلى مطبعة بطبع بضع مئات من النسخ ليكون النموذج الأولى " للريدرز دايجست " .

بلغ عرض المجلة فى أعدادها الأولى ١٤ سم ، وطولها ١٩ سنتيمتراً ، وعدد صفحاتها ٦٤ بما فى ذلك الغلافين .

وكان أول عوامل نجاحها وجاذبيتها إصدارها فى " حجم الجيب " وتضمينها مواد مكثفة ومقالات تثقيفية مفيدة ، بدون أى قصص ، أو صور ، أو ألوان ، أو إعلانات ! .

حمل " والى " مشروع المجلة إلى دور النشر فى شرق الولايات المتحدة مبدياً رغبته فى تقديم " إختراعه " إلى أى شخص يبدى إستعداداً لنشر المجلة وجعله رئيس تحريرها ، ولكن الناشرين رفضوا هذه الفكرة الواحد تلو الآخر .

وبعد طول مثابرة ، وجد " والاس " طريقه أخيراً إلى النجاح من حيث لم يكن يتوقعه ، فقد أقترح عليه أحد زملائه فى الشركة التى كان يعمل بها من قبل ، بيع المجلة إلى القراء مباشرة بواسطة البريد ، وللحال شرع فى طبع رسائل للقراء يلتمس فيها إشتراكات فى المجلة ، ووجه رسائله هذه إلى معلمين وممرضات

ورجال دين وأعضاء فى جمعيات نسائية ، وظل يوجه مثل هذه الرسائل لمدة أربعة أشهر .

وفى تشرين أول (أكتوبر) سنة ١٩٢١ أقام مع زوجته " ليلى " فى بلدة " بليز نتفيل " الصغيرة التى تبعد نحو خمسين كيلو متراً شمالى نيويورك ، ليؤسسا معاً مجلة " الريدرز دايجست " بعدها تلقيا الكثير من الرسائل ، حتى بات للمجلة ١٥٠٠ مشترك يدفع كل منهم ثلاثة دولارات ، وأصبح لديهما ما يكفى لإصدار العددل الأول ، وربما الثانى من المجلة .

وبغية المساعدة فى تسديد نفقات المطبعة أجرا غرفة فى منزلهما ، وشاركا زوجين آخرين فى المطبخ والحمام .

دخل " والى " إلى المسرح الصحفى فى الوقت المناسب ، فشهد بزوغ عصر من المعلومات ، على حين تضاءلت المفاهيم القديمة أو إنقرضت ، أصبح التغيير فى ذاته محور الإهتمام فى القرن العشرين .

وهكذا أشبعت الصحف القَراء بكل التفاصيل والتوقعات ، كما وجد " ويت " أن الصحف اليومية توفر أخباراً تتسم بالهزال والإستهلاك ، على حين أن المجلة المُصنفة بين صحيفةٍ وكتاب ، تتيح للقارئ الوقت الكافى كى ينمى فكرة ما ، ويظل على إتصال بالأخبار الجديدة .

أيقن " ويت " أن النجاح يمكن تحقيقه بالتعلم الذاتى ، لكن العلم لم يعد مقيداً بين دفتى كتاب ، بل أصبح متداولاً وعملياً وأداة تغيير . كما رأى أن التقدم المادى للإنسان لا يشكل تهديداً ، بل إنه وعْد كبير ببدء عصر الإنجاز حين يمتلك كل فرد ما يكفيه من كل شئ .

وكان شغل " ويت " الشاغل فى تلك الفترة هو السعى إلى المعلومات التى تعزز آمال الإنسان ، وتوسع آفاقه .

إنهمك المحرران فى تحضير الأعداد التالية للمجلة ، وكان " ويت " يتوجه يومياً إلى المكتبة العامة بمدينة نيويورك لتصفح المجلات فيها بدلاً من شرائها .

وفى أيلول (سبتمبر) ١٩٢٢ ، إنتقل الزوجان إلى بلدة " بليز نتفيل " وإستأجرا مكاناً وإنتقلا إليه حاملين أكداساً من المجلات وطلبات الإشتراكات الجديدة .

ومع بداية السنة الثانية للمجلة ، أرتفع توزيع المجلة إلى سبعة آلاف ، وتطلب الوضع الجديد مساحة أكبر للعمل ، فإستأجر الزوجان سقيفة معدة ، وجاءا بآلات كاتبة وآلات نسخ وإستعانا بجيرانهما للعمل بالأجر .

واظب " دى ويت " على كتابة رسائل الترويج مع اللمسة الشخصية ، فكانت ذا أثر كبير وأرست هذه الطريقة الحميمة علاقة شخصية من القراء ، وشكلت نوعاً من الصداقة والألفة بين رئيس التحرير والقراء .

كانا يعملان جنباً إلى جنب بلا توقف ، يساندان بعضهما بعضاً ، وكانا يعملان فى غرفتين منفصلتين لكى لا يقطعا على بعضهما حبل الفكر ، فكان " ويت " يعمل فى واحدة ويقرأ قرابة ٥٠ مجلة يومياً على نحو منتظم ليختار منها ويخط عليها ملاحظاته إلى أن يصل بها إلى المراحل النهائية المعدة للإرسال إلى المطبعة ، ثم يسلم " ليلى " المقالات لتحضرها فى الغرفة الأخرى . وبغية تجنب إضاعة الوقت ، كانا يتراسلان بأوراق يمررانها تحت الباب .

إنها قصة شاب وفتاة لم يحتاجا إلى شبك أيديهما ليتحابا ، فقضيا ساعات معاً أوصلتهما إلى النجاح ، وإلى درجات أعمق من الحب المثمر .

وبدأت " الدايچست " تنمو بأطراد وتخطو بخطى ثابتة واثقة ، وكان هذا هو الهدف الأساسى الذى وضعه " ويت " نُصب عينيه حتى وصل توزيع " الدايچست " بعد أربع سنوات إلى ٢٠ ألف شهرياً ، ثم بعد هذا بثلاث سنوات سجّل التوزيع أرقاماً مرتفعة جداً ، فبلغ ٢١٦ ألفاً .

وفى تشرين الثانى (نوفمبر) عام ١٩٣٦ ، بلغ توزيع " الدايچست " مليوناً وثمانمائة ألف نسخة ، وعلى الرغم من أنها لا تتضمن إعلانات ، فإن " جامعة الجيب " درت على مالكيها ٤١٨ ألف دولار . وأثبت " والاس " أنه لم يكن محرراً خلاقاً فحسب ، بل أيضاً رجلاً بارعاً فى المجال المالى .

أورد إسم زوجته " ليلى " قبل إسمه كرئيسة تحرير ، غير أنها فى الحقيقة كانت قليلة الإهتمام بالتحرير ، بيد أنها كانت بارعة لدرجة عالية فى عالم الفن والديكور ، فقد أخذت على عاتقها مسئولية تصميم شكل المجلة وإخراجها الفنى وأيضاً بناء بيتهما فى " بليز نتفيل " ، وبعد إنتقالهما إلى منزلٍ جديد ، أشرفت هى على وضع التصميمات له وعلى تفاصيل البناء وأطلقت عليه إسم " الرياح العاتية " ! .

بدأ العمل فى الإتساع وتحتم أخذ مساحة أكبر ، وفعلا تم إختيار المكان والتصميم المناسب له ، وإكتمل البناء فى عام ١٩٣٩ . وهو مبنى مكوّن من ثلاث طبقات من الآجر الأحمر ، رُفعت فوقها قبة بيضاء .

وإنتشرت المجلة الصغيرة فى كل الأرجاء ، فبدأ إصدار الطبعة البريطانية من " الدايچست " فى عام ١٩٣٨ ، ولحق بها إصدار طبعات أخرى فى لغات مختلفة . واليوم يوجد نحو ٣٠ طبعة فى ١٥ لغة .

وفى عام ١٩٥٥ ، فتحت المجلة صفحاتها للإعلان ، أى بعد مولدها بثلاثة وثلاثين عاماً .

لم يُرزق الزوجان أطفالاً ، فخضعا لإرادة الله وواصلا عطاءهما الفكرى والمعنوى والمالى بسخاء أسطورى . فتلقت كلية " ماكاليستر " أكثر من ٥٠ مليون دولار من " والى " وهو على قيد الحياة . أما " جبل حرمون " ، وهو المدرسة الداخلية التى درس فيها وتركها قبل الأوان ، فتلقت نحو خمسة ملايين دولار .

كذلك أسس صندوقاً للبحوث والسفر لطلاب الصحافة ، وقدم مليونا وثمانمائة ألف دولار إلى مكتبة نيويورك العامة - صاحبة الفضل عليه - كما أنه كان يشارك موظفيه فى أرباحه ، وكان يغدق بسخاء عليهم طوال حياته .

بدا " والى " رجلاً عادياً خلال المدة التى حقق فيها ثروته وعظمته . وهو فعلاً كان عادياً ، لكنه إستطاع الإرتقاء إلى أعلى درجات العظمة . كان خارقاً بفضل حبه للإطلاع وطاقته الفريدة على العمل فكان الرجل الهادئ .. قليل الكلام .. الذى عرف كيف يعرض أفكاره فى المجلة العالمية الأولى فى تاريخ الصحافة .

وفى الثالثة والثمانين من عمرهما ، أعلن " ويت وليلى " تقاعدهما . وفى آذار (مارس) ١٩٨١ تُوفى " والى " عن ٩١ عاماً ، أما " ليلى " فعاشت ثلاث سنوات أخرى وتُوفيت وهى فى الرابعة والتسعين .

كان " دى ويت والاس " بحق الرجل الذى يستحق أن يطلق عليه إسم " الرجل الأسطورة " .

فلقد رحل " ويت والاس " تاركاً صرحاً عظيماً عنوانه " ريدرز دايچست " (أى حصيلة ما يهضمه القارئ) ، ومجلة المختار العربية تنقل لقارئ العربية جانباً من " ريدرز دايچست " التى أسسها وسهر عليها وعمل على نموها " دى ويت والاس " وهى مشهود لها بأنها المجلة التى يقرأها أكبر عدد من الناس فى العالم ، ومنها يستوحى الملايين فى أكثر من ١٠٠ بلد الأمل والطريق السليم فى الحياة .

وطالما يذكر محبو مجلة " ريدرز دايچست " ما جاء فى العدد الأول منها حيث تضمن كلاماً عن الدكتور " ألكسندر جراهام " وإيمانه بأن التثقيف الذاتى عمل يدوم على مدى العمر :

" أولى ضرورات الثقافة الصحيحة هى " :

الملاحظة : لاحظ ! تذكر ! قارن ! .

ووجه المحرر هذه " الملاحظة " لكل قارئ .

كانت هذه المقالة تعبيراً دقيقاً عن تفكير " والى " الذى قرر أن تثقيف نفسه وأوجد " الريدرز دايچست " التى يتمتع بالتثقف عن طريقها ملايين القراء شهرياً فى كل أرجاء العالم .

(بقلم : تشارلز فرغسون)

شخصيات لا تنسى ..

(١٥) جو ديكسون

صانع العصا الكاتبة

كان المواطنون القلائل الذين يعرفون الكتابة فى بلده ، فى مستهل القرن التاسع عشر ، يستعملون طرف ريشة أوزة مغموسة فى مداد عصير التوت الأسود ..

أما الأقلام الوحيدة المتوفرة فى ذلك الوقت فكانت رديئة ومرتفعة الثمن نظراً لإستيرادها من أوروبا .

كان الأمريكى " جو ديكسون " مازال غلاماً فى الثالثة عشرة من عمره حينما أدرك أهمية صناعة قلم رصاص جيد ورخيص الثمن ... ولقد أدى به البحث لتحقيق هذا الهدف إلى الكثير من الإختراعات المفيدة ...

• • •

بدأ إهتمام " **جو ديكسون** " بالقلم الرصاص عن طريق الجرافيت ، هذه المادة المعدنية الناعمة الشحمية التى تعتبر أساساً فى تركيب " الرصاص " فى الأقلام المصنوعة بأوروبا .

وكانت السفن الشراعية الأمريكية العاملة فى حقل التجارة مع الشرق ، تحتاج إلى أثقال لموازنتها فى أثناء رحلة العودة فارغة ، وكان ربابنتها يستخدمون لذلك الجرافيت المستخرج من مناجم جزيرة سيلان لرخص ثمنه ، وثقل وزنه وسهولة إستعماله ، ولما كان والد " جو " من أصحاب السفن ، فإن سفنه كانت عند عودتها إلى المرسى تغرق هذه المادة السوداء فى مياة الخليج الضحلة .

وعلى الرغم من أن الغلام لم يكن قد رأى فى حياته قلم رصاص ، إلا أن أحد العلماء ذكر له المواد الأساسية التى يتركب منها " رصاص " القلم - الجرافيت

الممزوج بالصلصال - ووصف له تجويف نصفى القلم الذى يحتوى على هذه المادة .

وإستطاع " جو " - بمساعدة نجار ماهر - بالبلدة صنع قطعتين مستديرتين من خشب الشربين ، كل منهما على شكل نصف قطاع طولى للعصا ، مجوفة فى سطحها المفرطح الأملس ثم مزج مسحوق الجرانيت مع الصلصال ، وأضاف إلى المزيج بعض الماء ليجعل منه عجينة متماسكة . ثم أخذ قطعة من هذه العجينة وفتلها على شكل " رصاص " القلم ، وجففها فى فرن من الآجر الموضوع بجانب مدفأة المطبخ .

ولما أصبح الرصاص متصلباً ، وضعه فى تجويف نصف عصا الشربين وألصق فوقه النصف الثانى بالغراء . وبعد أن تماسكا تماماً بجفاف الغراء ، شذب " جو " طرف هذه العصا الكاتبة وجربها - فإذا بها تكتب ! ، ولم تكن الكتابة متقنة تماماً ولكنها لم تكن أردأ من كتابة الأقلام الأوروبية .

ولما لم يكن لدى " جو " ما يكفى من المال لمواصلة تجاربه ، إلتحق بعمل فى قمين طوب ليستطيع كسب عيشه ، وليتعلم أيضاً فن حرق وتيبيس مختلف المواد .

إنتقل فيما بعد إلى أعمال أخرى ، إلى مطبعة فى بوسطن وإلى مصبغة فى مدينة " لين " بولاية ماساشوستس . وقد كشف فى المصبغة عن مواهبة الإبتكارية بإعادة إستخدام الأصباغ الثابتة الألوان للمنسوجات القطنية . وكذلك إخترع آلة تحفر الرسومات على الإسطوانات المستعملة فى طباعة الأقمشة القطنية .

تزوج " ديكسون " فى الثالثة والعشرين من إبنة نجار فنى وكان كوخهما الصغير بمثابة مسكن لهما ومعمل لتجارب " ديكسون " .

وفى هذا الكوخ صنع " ديكسون " ثلاث آلات : واحدة لضغط عجينة الجرافيت والصلصال فى أنبوبة رفيعة فى حجم محيط رصاص القلم ، وثانية لتقطيع شرائح خشب الشر بين إلى المقاسات المناسبة ، والثالثة لتجويف ست شرائح من الخشب دفعة واحدة . وكل هذه الآلات كانت تدار باليد . وبدأ " جو " يصنع الأقلام ، وقلبه مفعم بالأمل . ولكن النجاح أبى أن يطرق بابه ، ومع هذا

فقد ظل يضع كل فائض ماله فى المواد الخام المستعملة فى تجاربه ، مما هدده بالإفلاس .

إشترى " جو ديكسون " ذات يوم هدية لزوجته : فرناً حديدياً براقاً ، ولكن الفرن بعد نحو أسبوع من إستعماله ، فقد بريقه وبدأ الصدأ يعلوه ، ولم يهتم " جو " كثيراً بالأمر لإنشغال ذهنه بالأقلام ، ولكن عندما إنسكب منه صندوق من الجرافيت المسحوق على الأرض وهمَّ بجمعه إنزلقت قدمه على المسحوق الشحمى وسقط على وجهه . وفى المرآه رأى " ديكسون " وجهه أسوداً لامعاً ، فهتف قائلاً " طلاء للفرن " وشرع هو وزوجته فى طلاء الفرن بالجرافيت ، فإذا به يلمع ببهاء . وتزاحم الاصدقاء والجيران فى طلب هذا الطلاء .

وأخذ الزوجان يسهران الليالى فى تعبئة المادة الجديدة . وأستأجر " جو " بعض العاملات للمعاونة ، وسرعان ما إنتشر طلاء " ديكسون " للأفران فى جميع محال البقالة ومتاجر المصنوعات المعدنية فى شرقى الولايات المتحدة . وأتاحت الأرباح الناتجة من هذه المبيعات الفرصة " لجو " للإستمرار فى مشروع الأقلام الرصاص ، فأنشأ مصنعاً صغيراً . وقد أمكنه فى عام ١٨٣٠ م أن يعرض للبيع أقلاماً بسعر قرشين للقلم الواحد . ولكن الطلب ظل عليها ضعيفاً ..

وعلى الرغم من أن مشروع الأقلام لم يحقق آمال " ديكسون " ، فإن إستمراره فى التجارب أدى به إلى مجالات أخرى فى عالم الإختراع . وضع " ديكسون " بعض الجرافيت مع مواد أخرى فى وعاء من النحاس فظهرت المادة المركبة المعروفة باسم " معدن بابيت " والتى تستخدم فى جميع أنحاء العالم فى تجميل الآلات والأجهزة .

وضع " ديكسون " مرآة دقيقة فى الكاميرا ليتيح للمصور أن يرى على وجه التحديد الشئ الذى سيصوره وكانت هذه هى الأساس لكل تحسين أدخل على الكاميرا وقد أستغل " جو " إلمامه بالتصوير الشمسى مع ما يعرفه عن فن الطباعة والحفر ، وإبتكر صناعة الزنكوغراف " التصوير على الحجر ، ثم على المعادن بعد ذلك " . ولكن قليلين من المشتغلين بتزييف الأوراق المالية هم الذين فطنوا - فى أول الأمر - إلى ما فى هذا الإبتكار من قيمة كبرى .

ولما علم " ديكسون " أن بعض مزيفى الأوراق المالية يستغلون إختراعه فى أعمالهم غير المشروعة ، قرر أن يتعرض لهذا الموقف بطريقة مسرحية ، فذهب ذات يوم إلى بنك مدينة نيويورك ووضع ورقة من فئة المائة دولار على مكتب مدير البنك ، وطلب إستبدالها بأوراق من فئة العشرة دولارات . ثم حذر المدير قائلاً : يحسن أولاً أن تتأكد من صحة هذه الورقة المالية .

وفحص المدير الورقة بعناية ، ثم سلمها للصراف قائلاً : إنها صحيحة كالذهب .

وهنا تناول " جو " قبعته الجلدية الكبيرة وأخرج منها نحو عشر أوراق مالية أخرى من فئة الدولار وقال لمدير البنك الذى فغر فاه دهشة :

- خذ ما تشاء من هذه . فإننى أستطيع أصنع الكثير منها فى البيت . ثم أخرج من جيبه مجموعة أخرى من هذه الأوراق " المصنوعة منزلياً " وكشف عن إختراعه لمقاومة التزييف ، بطبع الأوراق المالية بمداد ملون ، ومن ثم يصعب على المزيفين طبع الأوراق بطريقة التصوير الحجرى .

وقد قال " جو " فى هذا الشأن : هذه طريقة سرية إخترعتها .

وكافأه مدير البنك بمبلغ كبير نظير إختراعه هذا . ومع ذلك فقد نزل " ديكسون " عن إختراعه ، بلا مقابل ، لجميع البنوك التى تصدر أوراقاً مالية فى ذلك الوقت .

وكانت نفقات " ديكسون " تزداد عندئذ وأرباحه من طلاء المواقد تضيع فى مصنع الأقلام . ومن ثم قرر أن يبحث عن صناعة ناشئة ليدخل التحسينات عليها إما لزيادة الإنتاج أو لتحسين الآلات ، وفى أثناء جولته بمنطقة نيو إنجلاند ، إكتشف أن صناعة النحاس الأصفر الناشئة ، تحتاج إلى أوعية صهر أخرى بدلاً من الأوعية التى كانت تستعمل لصهر الزنك والنحاس الأحمر معاً . وكانت الأوعية المستعملة تنكسر كل مرة كلما إرتفعت الحرارة فوق درجة الصهر .

وخلط " جو " فى معمله ، الجرافيت والصلصال فى عجينة لينة وجعلها على شكل أوعية الصهر المستعملة ، ثم أحرقها فى قمين لتتصلب . وبعد أن وضع فى الوعاء الجديد رقائق النحاس الأحمر والزنك ، أدخله فى فرن الصهر . وحولت درجة الحرارة البالغة ١٠٨٢ مئوية رقائق المعدنين إلى نحاس أصفر مصهور .

ولكن الوعاء الجديد بقى ، كما هو ، سليماً . وبعد أن أجرى عليه آخر تجربة فى قوة الإحتمال ، وجد أن هذا الوعاء الجديد يحتمل - دون أن ينكسر - حرارة مقدارها ١٥١٥ مئوية .

وإستخدم وعاء " ديكسون " الجرافيتى هذا فى صناعة إنتاج الحديد والصلب . وإنهالت الطلبات عليه . ومن ثم أنشأ " ديكسون " مصنعاً لبواتق الصهر فى مدينة نيوجرسى . وكان قسم البواتق فى جانب من المصنع ، وفى الجانب الآخر قسماً طلاء الأفران وأقلام الرصاص .

وحين إستعرض " جو " نتائج هذا المصنع فى عامه الأول ، وجد أن أرباحه من صنع البواتق بلغت ستين ألف دولار . وخسائره فى الأقلام الرصاص خمسة آلاف دولار .

وفى عام ١٨٤٩ أسس " **إبرهارت فابر** " - سليل أحد صناع الأقلام فى ألمانيا - شركة فى نيويورك . وزاد عدد المنافسين فى هذا الميدان عندما تكونت شركة " أقلام النسر " ولكن الشركات الثلاث عانت من الكساد .

إشتدت الحاجة إلى أداة للكتابة جافة نظيفة سهلى الحمل فى أثناء الحرب الأهلية الأمريكية ؛ فلم يكن حمل الأقلام المصنوعة من الريش ومداد التوت الأسود إلى ميدان القتال متاحاً ، حتى يكتب الجنود الرسائل إلى أسرهم .

وأسرع " ديكسون " فى إختراع آلة تنتج ١٣٢ قلم رصاص فى الدقيقة ، وفى عام ١٨٧٢ كانت أقلام " ديكسون " تتدفق من مصنعه بمعدل ٨٦ ألف قلم رصاص فى اليوم .

وهكذا أصبح حلم " جو " فى إنتاج " عصا كاتبة " ثمنها قرش واحد ، حقيقة واقعة .

ومات " جو ديكسون " عام ١٨٦٩ بالغاً من العمر ٧٠ عاماً ظلت شركته التى تحمل إسمه من أكبر شركات إنتاج الأقلام الرصاص فى العالم .

(١٦) توماس كانون

المحسن الفقير

ليست هناك مكتبات تحمل إسم " توماس كانون " ، وهو لم يوقف مالاً أو عقاراً على أى كلية . ولم يبن مدرسة ولم ينشئ أى متحف ، ومع ذلك فإن هذا الرجل المتين البنية ، ذو الشعر الذى مسه الشيب ، والبالغ الإثنين والخمسين من العمر ، والذى يعمل موظفاً فى بريد ريتشموند فى ولاية فرجينيا الأمريكية ، قد جاد بتبرعات مالية لأوجه الخير ، ربما فاقت - بالنسبة إلى ضآلة دخله - ما قدمه الكثيرون من الأثرياء وكبار المحسنين .

فقد إستطاع " كانون " بفضل الإنكباب على عمله ، وتقشفه فى عيشته ، أن يقتصد مبالغ كبيرة ، قدمها منحاً وهبات إلى مستحقيها من معارفه والغرباء عنه ، وشمل عونه المباشر عشرات الناس . يقول " كانون " :

" يظن بعض الناس أننى مؤسسة خيرية من رجل واحد ، ولكننى لست كذلك - أنا أعطى الناس لأن الله أسبغ علىّ من نعمته ، وأريد أن أشاطر النعمة مع الآخرين . كما أريد أن أضرب مثلاً يحتذى فى مكافأة العمل الطيب أو الشجاعة الفائقة ، أو مساعدة أولئك الذين ناضلوا وهم الآن على حافة اليأس " .

ومثال ذلك أن لصين مسلحين هاجما مركزاً لتوزيع طوابع الغذاء على المحتاجين الذين يتلقون إعانات من الدولة ... وكان يتولى الحراسة آنئذ ضابط شرطة يبلغ من العمر ٢٢ عاماً ، وحدثت بعد دخول اللصين معركة بالأسلحة النارية قتل فيها الضابط الشاب مخلفاً وراءه أرملة وطفلاً رضيعاً من دون مورد أو من يقوم بأمرهم .

وفى اليوم الثانى قرأ " كانون " فى الصحف خبر الكارثة التى حاقت بزوجة الضابط الشاب ، فأرسل إليها شيكاً بألف دولار . ويقول كانون : " كنت أجهل حالتها المالية ولكن الموقف بالنسبة إلىّ كان موقفاً أستطيع فيه أن أقدم عوناً

فورياً . كانت السيدة يعوزها التشجيع فى تلك اللحظة وفى ذلك اليوم عينه ، وليس بعد ذلك بأسابيع أو أشهر " .

بلغ " كانون " يوماً أن هناك صبياً يجهد فى كسب القوت لأسرته على الرغم من إصابته بورم خبيث بالمخ ، وقد ثابر أيضاً على الدراسة فنال الشهادة الثانوية . وتأثر " كانون " بإقدام هذا الصبى وشجاعته فوقع له على شيك بألف دولار .

وفى نوفمبر ١٩٧٧ قرأ " كانون " قصة شاب راحت زوجته فى غيبوبة بعد أن وضعت طفلها الخامس . وكان هذا الأب الشاب يقوم مجتهداً بعملين لكى يعول أسرته . وحين مرضت زوجته أصبح مضطراً إلى وضع أطفاله أو بعضهم فى دار للحضانة ما لم يجد إمرأة من الجارات تتولى رعايتهم ، وما أن قرأ " كانون " القصة حتى أرسل شيكاً بألف دولار مصحوباً بكلمة وجيزة يقول فيها :

" إن ما يدفعنى إلى إرسال هذه الهبة ، ليس مجرد حاجتك إليها فحسب وإنما أيضاً لما تبديه من أبوة متفانية شُجاعة " .

وليس فى فهم " كانون " لأعمال البر أى سذاجة على الإطلاق ، فهو أدرك منذ زمن بعيد أن مصاعب المحتاجين فى العالم تتجاوز كثيراً موارده المالية الضئيلة ، لكن ذلك لم يثنه على أن يفعل ما فى قدرته وهو يقول : " كنت أستطيع أن أكتفى بالقعود والتأسف على أحوال العالم من دون أن أفعل شيئاً لأن المشكلات كثيرة وضخمة ودخلى محدود ، ولكن تلك ليست شيمتى . فإننى أستطيع الكثير بمجرد ان أفعل ما فى قدرتى " .

ولقد كان لهذا الأسلوب ، بالإضافة إلى مقدار كبير من الإنضباط الشخصى ، الفضل فى إنتشال " كانون " من أعماق الفقر .

فقد ولد فى أسرة فقيرة ولم يكد يبلغ الثالثة من العمر حتى توفى أبوه تاركاً أسرته بلا مورد أو من يتولى أمرهم . وفى سن الثالثة عشرة إنقطع " كانون " عن الدراسة ليعاون فى إعالة والدته ويتولى إعالة نفسه .

وفى السابعة عشرة إلتحق بالجيش ، وعين فى إحدى الكتائب التى تتولى مهمة شحن سفن الذخائر المتجهة إلى منطقة القتال فى المحيط الهادى . ثم نُقِل

إلى مدرسة المدفعية وفى يوم نقله بالذات من كتيبته القديمة ، إنفجرت سفينتان من سفن الذخائر التى كان يشترك فى شحنها ، وقتل فى الحادث ٣٢٢ شخصاً من زملائه السابقين ، فتعجب " كانون " لنجاته ، وأخذ يتساءل عن سببها فقال :

" إننى عزب ووحيد ولا تنجم عن وفاتى خسارة كبيرة ، بينما لكثير من الرجال الذين قتلوا فى الحادث أسر تحتاج إليهم ، ومع ذلك فقد قدرت لى النجاة مما يحملنى على التفكير العميق " .

لكن هذا لم يهده إلى تفسير مرضى ، إلى أن وقع له حادث مماثل آخر : بعد إنتهاء خدمته فى الأسطول إشتغل " كانون " عاملاً فى تفريغ السفن المحملة سكراً ، وذات يوم كانت الرافعة ترفع من عنبر إحدى السفن حملاً من السكر ، ويحكى " كانون " بقية القصة بقوله :

" كنت قد إبتعدت قليلاً لأحصل على رشفة ماء ، وما أن سرت حوالى عشر خطوات حتى سمعت الزملاء يصرخون ، فنظرت إلى أعلى فإذا بى أرى بالة وزنها عدة أطنان تهوى نحوى . وإذا حاولت أن أجرى ، تعثرت قدمى فصدمتنى البالة الساقطة فى أثناء وقوعى وطوحت بى فى بقعة منخفضة وسط بعض أكياس السكر . وبدا ذلك أمراً لا يمكن تفسيره بأنه مجرد صدفة ، فتحققت آنذاك من أن هناك قوة ترعانى ، واقتنعت بأن داعياً دعا لإنقاذى " .

وقرر " كانون " أن يعود إلى المدرسة فسجل نفسه فى الصف الثامن الإبتدائى . ويعترف أن الأمر أثار دهشة الكثيرين حين تقدم ليبدأ الدراسة .

يقول " كانون " : " كنت فى الثالثة والعشرين أكبر تلميذ فى الفصل ، وتحققت المعلمة من طاقتى على متابعة الدراسة فى مستوى أعلى من الصف الثامن فتبادلت الرأى مع مستشار التوجيه المدرسى وإتخذت الترتيبات لكى أتقدم لإختبار القبول فى إحدى الكليات ، وقد نجحت فيه ، فإنتقلت خلال عام واحد من الصف الثامن الإبتدائى إلى الكلية " .

وفى تلك الأثناء تزوج " كانون " وراح يعمل ليلاً فى مصنع للنسيج كى يعول زوجته وطفليهما .. ثم إنتقل إلى خدمة البريد وعمل فى فرز الخطابات فى عربات البريد الملحقة بالقطار ، وهو يقول فى ذلك : " أتاح لى ركوب القطار

فى الليل وقتاً طويلاً للتفكير وأحسست إحساساً بالغ العمق بوجوب مساعدتى للآخرين فى شكل ما ، ولكنى لم أهتد إلى الوسيلة بعد " .

ثم نُقِل " كانون " للعمل فى مكتب البريد المركزى فى ريتشموند ، وتملكته الرغبة فى القيام بعمل مباشر ومنظم لخدمة الآخرين ومساعدتهم . ولكن ما الذى يستطيعه كاتب بسيط بالبريد ؟ .

لقد إتضح لى الأمر بأكمله عندما أدركت أن المال هو أقوى الرموز فى حضارتنا هذه ، فرأيت أننى إذا إستخدمت بعضاً من هذا المال إستخداماً سليماً ، لتمكنت من مساعدة الناس . فإذا إجتهدت فى كسب أكثر ، وراعيت الحرص والإقتصاد فى نفقاتى ، وإستخدمت الفائض من المال لمعاونة الآخرين ، لأصبح للحياة معنى ! .

إن كلمة " فائض " غامضة ، فبعض الناس لا يتوافر لديهم أى فائض على الإطلاق مهما كسبوا . غير أن " كانون " بحكم نشأته الفقيرة يملك إحساساً لا يخيب بما هو ضرورى وما هو كمالى ، فهو يعيش فى بيت بسيط وينفق القليل على الملابس وأقل القليل على العصائر ولا شئ إطلاقاً على التدخين .

ويقول كانون : " إننا ننعم بالدفء ونأكل كفايتنا ولا نفتقر إلى شئ من ضروريات الحياة " .

بيد أن " كانون " لم يهمل أسرته من أجل الإنفاق على الخدمة التى إختار أن يخدم بها الآخرين ... فقد أنفق على تعليم أبنائه حتى تخرجوا من الجامعة .

ويحكى " كانون " أن أعماله لا تقابل دائماً بالثناء ، وإنما على العكس . فيقول فى ذلك : " إن بعض جيرانى يعتقدون أننى مجنون ، شديد الإحتياج ، ويدفعون زوجتى للتصدى لما أفعله ، إلا أنها بعد ٣١ عاماً من الزواج لم تفهم ما أفعله وتدرك دواعيه " .

إلا أن بعض الناس تقدر خدمته حق تقدير ، فقد تلقى " كانون " خطاباً من تلميذه بالصف الثالث الإبتدائى يقول فيه : " إن بلادنا لمحظوظة بأن تضم مواطناً من أمثاله يهتم كل هذا الإهتمام بالآخرين " .

ويقول كانون معلقاً : " إن خطاباً كهذا أثمن من كل ما يشترى بالمال " .



شخصيات لا تنسى ..

(١٧) هيلين آدامز كيللر

شموع ونور

إنحنت برقة لتطفئ الشموع الملونة التى تزين كعكة عيد ميلادها السابع والثمانين .

لم تكن ترى أنوار الشموع التى أضاءت ملامح وجهها ، فتلألأت إبتسامتها بشعاع من النضارة أخفى التجاعيد المحفورة على وجنتيها .

تعانقت أضواء الشموع السبعة والثمانين فى لوحة بديعة من النور الشفاف كالمنبثق من ضياء قلبها خلف قضبان الظلام وقيود الصمت . فلقد أنارت بنور قلبها الطريق للكثيرين من رفاقها ، وحققت أمامهم نموذجاً للحياة المثمرة التى تشمخ أمام العالم كله وتسمو فوق كل المعوقات بإعجاز لا يرتقى إليه الكثيرون من الأصحاء .

• • •

وُلدت " **هيلين آدامز كيللر** " فى مدينة توسكومبيا بولاية ألاباما الأمريكية فى ٢٧ حزيران (يونيه) عام ١٨٨٠ : طفلة جميلة سليمة البنية كاملة الحواس ، ترى وتسمع ، وأظهرت ذكاءً فى عامها الأول فأجادت نطق عدة كلمات ، مما جعلها مصدر فخار والدها ، وكان قائداً عسكرياً ينحدر من أصل سويسرى .

مُنيت " هيلين كيللر " فى شهرها التاسع عشر بحمى بالمخ أفقدتها حاستى البصر والسمع . ولحقت بهما قدرتها على التكلم إذ نسيت ما كانت قد حفظته من

كلمات . وأصبحت الصغيرة هيلين أسيرة الظلام والصمت لا تمتلك إلا الثورة والعنف للتعبير عن نفسها .

وعبثاً طاف بها والداها الشابان على الأطباء والمستشفيات ، وكانا على وشك أن يفقدا كل أمل فى شفاء صغيرتهما ، وسلما بأنها إذا كُتبت لها الحياة ، فستشب لا ترى شيئاً ولا تسمع شيئاً ولا تتكلم كلمة واحدة .

وفى الخامسة من عمرها نصح أحد الأطباء والدها بإلحاقها بمعهد بركنز لتعليم المكفوفين فى بوسطن . وخضعت هيلين لسلسلة من الفحوص والكشوف ، قال بعدها المسئولون بالمعهد بأنها حالة نادرة ، وأشاروا على والدها بإنتداب معلمة من العاملات بالمعهد لتقيم مع هيلين إقامة كاملة بالبيت وتصبح صديقتها ومعلمتها فى آن واحد .

ووقع إختيار مديرة المعهد والأطباء به على **" آن سوليفان "** (١٨٦٦ - ١٩٣٦) لتقوم بهذه المهمة : وكانت " آن " تنتمى إلى عائلة فقيرة من المهاجرين الأيرلنديين وقد وُلدت شبه كفيفة وإلتحقت فى خريف عام ١٨٨٠ بمعهد بركنز فى الوقت الذى كانت فيه " هيلين كيللر " طفلة صحيحة عمرها ثلاثة شهور ! .

وأجريت " لآن " - بالمعهد - عمليتان جراحيتان إستعادت بعدهما نور عينيها . ولكنها لم تبرح المعهد بل قطعت عهداً أمام الله أن تكرس نفسها ، وتهب نور عينيها ودفء قلبها ، للمحرومين من النور . لذا لم تتردد " آن سوليفان " فى أن تقدِّم يد العون لتلميذتها الصغيرة " هيلين كيللر " .

وإنتقلت " آن سوليفان " لتقيم مع " هيلين كيللر " فى يوم ٣ آزار (مارس) ١٨٨٧ قبل أن تبلغ هيلين عامها السابع بشهور قليلة . ولقد أطلقت " هيلين كيللر " فيما بعد على هذا اليوم : **" يوم عيد ميلاد نفسى " ! .**

أما عن إستقبال الصغيرة هيلين لمعلمتها ، فقد كان عنيفاً أشبه بمشادة أو مشاجرة صامتة فكانت تصرخ وتبكى وتركل بقدميها الصغيرتين .

إقتربت " آن " من " هيلين " وهى تتوسط والديها على مائدة الطعام ، ومرت بأصابعها فوق شعرها الجميل فإنتفضت وكأن ثعباناً لدغها فقد أدركت الصغيرة أن هناك إنساناً غريباً أو ضيفاً ثقيلاً ، فتمادت فى نوبة غضبها وثورتها .

إلتقطت " آن " ثمرة من ثمار الشليك (الفراولة) ووضعتها بين شفتيها الصغيرتين فما كان من " هيلين " إلا أن أخرجت الثمرة بأصابعها وقذفتها بها بعنف .

وبالرغم من هذه المعاملة القاسية ، لم تتراجع " آن سوليفان " عن أن تساعد هذه الصغيرة الرقيقة التى أحالتها حياة الظلام والصمت ، إلى دمية صغيرة تتنازعها نوبات الضيق والثورة . وعاهدت " آن سوليفان " نفسها : **" سأكرس حياتى وعلمى وحبى من أجل هيلين العزيزة ، ستصبح تلميذتى وصديقتى الوحيدة " .**

وبعد أربعة أسابيع من المعاملة الجافة بدأت الصغيرة " هيلين " تأمن لمعلمتها " آن سوليفان " ، وتطمئن لوجودها وتلمس محبتها وتثق بها . وأظهرت " هيلين " ذكاءً ومهارة فى إستجابتها للتدريب على حاستى الشم واللمس ، وأبدت مهارة فائقة فى حفظ مدلول كلمات الأشياء التى لم تعرف حتى شكلها .

ونبغت " آن سوليفان " فى إبتكار أبجدية للأصابع التى أخرجت " هيلين " من عزلتها لتتعامل مع العالم الخارجي ؛ فكانت تغمس أصبعها فى الماء ثم تسكب بعضاً منه على يدها وتربت على راحة يدها الأخرى بحركات معينة تكررها مرات عديدة وكأنها تنقش على يدها حروف كلمة ماء . وشيئاً فشيئاً نجحت " هيلين كيللر " فى أن تستدل على الأشياء من حولها .

وفى خلال سنوات ثلاث من التدريب برعت " هيلين كيللر " فى القراءة الصامتة والكتابة بطريقة " برايل " .

وأجادت " هيلين كيللر " تعلم اللغات الإنجليزية واللاتينية واليونانية والفرنسية والألمانية ، وإجتهدت ببراعة فى دراستها للبرامج الدراسية التى أتيحت لها ، فإلتحقت بمعهد بركنز ثم بمدرسة " موراس مان " للصم .

وكانت قد قرأت عن طفل نرويجى أصم تعلم نطق الكلام بذات المدرسة ، وطلبت أن تخضع لنفس التدريبات . وفوجئت " آن سوليفان " مع سائر المعلمين بالمدرسة بشفتى " هيلين كيللر " تنفتحان بعد ١١ درساً مكثفاً ، ونطقت بعبارة من أربع كلمات قالت فيها : **" الآن .. أنا لست خرساء " .**

لم تكن " هيلين كيللر " بالطبع تسمع ما تقول أو ترى تعبيراً على وجوه محدثيها ولكنها إستطاعت بعد التدريب أن تضبط مخارج ألفاظها وسرعتها النسبية فى الحديث .

ولقد نجحت " هيلين " فى أن تستمع إلى الصوت الإنسانى وتفهم أحاديث أصدقائها ، فكانت - كما علمتها " آن سوليفان " - تضع أصبعها الوسطى على أنف محدثها والسبابة على شفتيه وإبهامها على حنجرته ، وتتابع الإهتزازات الصادرة عن الشفتين والرقبة فى أثناء الحديث ، فتفهم ما يقول .

وبذلك إستطاعت " هيلين كيللر " بفضل معلمتها " آن سوليفان " أن تتصل بالعالم الخارجى وتُعلق عليه وتتأثر به .

إلتحقت هيلين بجامعة " راد كليف " فى عام ١٩٠٠ . وقد تُرجمت كل المقررات الدراسية إلى طريقة " برايل " خصيصاً لها ، وكانت تؤدى الإمتحانات على آلتها الكاتبة . وقد أظهرت تفوقاً وحضوراً بشخصيتها مما جعلها مثار دهشة وإعجاب زميلاتها المبصرات .

وكانت " آن " ترافقها فى قاعات الدرس . نبغت " هيلين " فى دراسة الأدب وبخاصة الفرنسى والألمانى . ونالت درجة الليسانس بعد أربع سنوات بتقدير الإمتياز مع مرتبة الشرف .

وتفرغت " هيلين " لعمل الكتابة والصحافة والتأليف . ونشرت لها مقالات كان لها صداها ، فى القضايا العامة آنذاك . فقد كتبت عن مشكلات عمال المناجم ونادت بوضع طبقة من نيترات الفضة فى عين كل طفل وليد لوقايته من الإصابة بالعمى .

ولقد كتبت - فى أثناء دراستها بالجامعة - سيرتها الذاتية وأطلقت عليها إسم " **التفاؤل** " وكان ذلك فى عام ١٩٣٠ . ثم كتبت " **قصة حياتى** " فى العام نفسه ، كما كتبت " **العالم الذى أعيش فيه** " فى عام ١٩٠٨ ، و " **خروج من الظلام** " فى عام ١٩١٣ ، و " **حياتى الأخيرة** " فى عام ١٩٣٠ ، و " **معلمتى** " فى عام ١٩٥٥ .

ولقد تُرجمت كتبها إلى أكثر من ٥٠ لغة وكان القراء يتهافتون على إقتناء كتبها . ويُحكى أنه قد بلغ صيتها وذاعت شهرتها لدرجة أن كتبها كانت توزع

بنفس سرعة طباعتها . ولقد حرصت " هيلين كيللر " على توفير هذه الكتب بطريقة " برايل " لفاقدى البصر .

كما إهتمت بأن تخص بنتاجها الأدبى أولئك المحرومين من النور والمعوقين وأصحاب العاهات ، فأمدتهم بفيض من التشجيع والأمل . إختيرت " هيلين " عام ١٩٢٣ عضواً فى المؤسسة الأمريكية العامة لفاقدى البصر عبر البحار . وكانت تظهر بالندوات وتحاضر للآلاف وقد تبنت دعوة الأثرياء للتبرع لتمويل المؤسسة لخدمة فاقدى البصر .

ولقد ظلت " هيلين كيللر " طيلة نصف قرن تخدم رفاقها من العمى والصم ، وتتابع بإهتمام أحوالهم وتنادى بتحسين الخدمات لفاقدى البصر ، وبخاصة بالبلاد النامية والدول التى تعانى من ويلات الحروب .

ولقد كانت " هيلين " - بتفاؤلها ونجاحها ، رغم عاهتها - عوناً كبيراً لمعوقى الحرب العالمية الثانية من الجنود والبحارة ورجال الطيران ممن فقدوا أبصارهم فى أثناء الحرب . وكانت كلما ظهرت ، تحمل تشجيعاً ونوراً وتفاؤلاً للملايين من العميان .

وأكملت " هيلين كيللر " مسيرتها - بعد إنتهاء الحرب - فتحدت عالم الظلام والصمت فى جولاتها العديدة عبر قارات العالم .

ولقد نالت عدة أوسمة وجوائز تقديرية من الهيئات المهتمة بالعمى فى العالم ، ومن حكومات الدول التى رحبت بزيارتها . ولقد بهرت ولا تزال - مبصرى العالم - بقدراتها الفذة فكانت تبرع فى تمييز عبير الزهور والإحساس بالضباب أو الدخان .

وكانت تميز رائحة المدن التى تزورها . وأفاضت فى كتبها فى الحديث بمباهج الرؤية التى حُرمت منها .

سألوها يوماً : " **كيف تميزين الوردة الحمراء ؟** " .

فأجابتهم بقولها : " **لقد رسمت لى آن سوليفان فى مخيلتى لوحة كبيرة تضم كل الأشياء الحمراء فى هذا العالم** " .

وكانت " هيلين كيللر " تبهر من حولها فى تمييزها للألوان : الأخضر والأزرق والأصفر وغيرها ! .

سألها أحد الصحافيين : " **لقد إنحنيت للجمهور بعد تصفيقه الحاد لكِ عقب إنتهائك من إلقاء المحاضرة ، فكيف سمعت صوت التصفيق وأنت لا ترين ولا تسمعين ؟ " .**

وأجابته بإبتسامة الإنتصار : " **لقد إلتقطت ذبذبات التصفيق من جو القاعة ومن أرض المنصة التى أقف فوقها ! " .**

حظيت " هيلين كيللر " بجمهور من المعجبين والأصدقاء وعلى رأسهم " ألكسندر جراهام بل " - مخترع الهاتف - وكان أستاذاً بجامعة بوسطن . ولقد كان معيناً لها وأسهم فى ترتيب وإعداد برامج زياراتها للبلاد المختلفة ومقابلاتها مع أهم الشخصيات بها .

إعتمدت " هيلين " على نفسها فى كسب معيشتها مع معلمتها " آن " ، بإلقاء المحاضرات وكان الناس يقبلون إلى القاعات قاطعين أميالاً عديدة لمشاهدتها والإستماع إليها . وكان حديثها - رغم إسترساله - يصعب متابعته فى بعض الأحيان ، مما كان يدفع معلمتها " آن " للترجمة .. وكانت ترافق " هيلين " و " آن " فى جولاتهما ، فتاة تُدعى " بولى طومسون " ، إستعانا بها فى خدمتهما بعد أن ضعف نظر " آن سوليفان " مرة أخرى وتهددها العمى كتلميذتها ! .

وبالرغم من إعجاز " هيلين كيللر " فلم يُجمع الجميع على الإعجاب بها أو التصفيق لها ، فلقد إتهمها البعض بأنها طبيعية تماماً وليست عمياء ولا بكماء وصماء ، وإنما هى تجيد فن التمثيل والخداع حتى تكسب عيشها مع معلمتها ، وتبتزا معاً أموال الأثرياء . وإفترى عليها آخرون ، فزعموا أنها بلهاء معتوهة ووصفوها بأنها دمية " آن سوليفان " التى تسترزق من وراءها .

لم تأمن " هيلين كيللر " من شبح الفقر الذى هددها بالرغم من شهرتها ، فإلتزمت مع " آن " بإلقاء المحاضرات ولم تعترض على أن تتخلل محاضراتها عروض الأكروبات والإستعراضات بالمسارح .

ولم تقبل " هيلين " فيض الهدايا والمساعدات التى إنهالت عليها فأهدتها إلى الفقراء إذ آثرت أن تكسب عيشها بنفسها وتنفق على رفيقتيها " آن سوليفان " و " بولى طومسون " .

فى خريف عام ١٩٣٦ إعتلت صحة " آن سوليفان " وفقدت بصرها تماماً .

وقد قيل لها قبل أن تموت فى شهر تشرين أول (أكتوبر) من العام نفسه :
" يجب أن تتماثلى للشفاء ، فستصبح " هيلين كيللر " بدونك ، لا شئ على الإطلاق " .

وأجابت " آن " : **" إذا كان الحال كذلك ، فقد فشلت إذاً فى رسالتى " .**

لم تفشل " آن سوليفان " ، فقد إستطاعت " هيلين " أن تكمل مسيرتها فى الظلام مستمدة من نور قلب ظل ينبض بالحب لها طيلة ست وأربعين سنة قضتها " آن سوليفان " تبذل فيها نفسها لتلميذتها التى من أجلها حفظت عهدها .

وتابعت " هيلين " رسالتها لخدمة المكفوفين حتى توفت فى اليوم الأول من حزيران (يونيو) عام ١٩٦٨ ، أى قبل أسابيع قليلة من إطفاء شموع عيد ميلادها الثامن والثمانين .

• • •

كتبت " هيلين كيللر " عن لذة كفاحها قائلة :

" إن من يريد أن يحصل على المعرفة الحقة ينبغى له أن يتسلق الجبل وحده ، وقد تعثرّت مراراً ووقعت ، لكنى كنت أقف على الفور ، وأتخطى العقبات . إنى أفقد أعصابى أحياناً ، لكنى أبادر فأستعيدها وأعمل على تهدئة ثائرتى ، ثم أمضى قدماً ، فإذا نجحتُ قليلاً شعرت بالتشجيع والإقدام ، فيتضاعف أملى ، ثم أتطلع إلى ما هو أسمى ، فإذا الآفاق قد تفتحت ، ففى كل كفاح إنتصار " .

وعن عجزها قالت " هيلين كيللر " تلك الكلمات التى يجدر أن تعلق فى كل بيت ومدرسة فى العالم كله :

" إننى أشكر الله على كل عجز وإعاقة لدىَّ ، فقد كانت الطريق لإكتشاف نفسى ورسالتى ومحبة الله لىَّ " .

(١٨) بيتالين غراهام

بين فكَّىْ تمساح

خاضت الفتاة مياه المستنقع لتنقذ شقيقها . أما التمساح فأطبق فكيه على ذراع الشاب وراح ينهشه بضراوة .

" **بيتالين غراهام** " فتاة فى السادسة عشرة تدرس فى مدرسة داخلية فى " داروين " التى تقع على بعد ١٨٠ كيلومتراً شمالى شرق " تشانل بوينت " . وفى عصر السابع عشر من نيسان ١٩٨١ وصلت الفتاة إلى بيتها ، وبعد ساعة ركبت الشاحنة الصغيرة وهى تمنى نفسها بنزهة مثيرة فى المناطق الاستوائية الزاخرة بالجواميس والتماسيح والعصافير المتنوعة . وقد أعدّ لهذه النزهة شقيقها " هيلتون غراهام " (٢٣ سنة) . أما والداهما فكانا قد ذهبا فى رحلة قنص .

أدار " غراهام " المحرك وتوجه نحو جزيرة " بالم سبرنجز " التى تبعد عشرين كيلومتراً ويفصلها مستنقع عن الطريق الرئيسية . وهو ليست جزيرة بالمعنى الصحيح ، إذ يصلها بالطريق ممر ضيق .

وبعد وقت قصير توقفت الشاحنة تحت شجرة من تين البنغال حيث وجدا قارباً هوائياً للتنقل بين الأدغال .

وكان " هيلتون " طويل القامة قوى البنية ، فدفع القارب إلى مياه المستنقع الموحلة بدون صعوبة . ثم حمل بندقيته وثبت القارب لتصعد " بيتالين " إليه . وأخذ يبتعد عن اليابسة ويدور حول الجزيرة ويتقدم ببطء وحذر وسط الأدغال لعله يظفر بغنيمة يصيدها . أمّا " بيتالين " فجلست فى مقدم القارب وهى تحدّق إلى الشجر الكثيف دون أن تجرؤ على رفع صوتها .

فجأة ضرب القارب الأرض . وكانت الساعة قرابة الخامسة والنصف . فوضع

" هيلتون " بندقيته جانباً وحاول دفع المركب إلى المياه العميقة . فأفلت مسدسه من قرابه وسقط فى المستنقع . ولم يكن الماء يتجاوز ساق الشاب ، فركع يتلمس القعر الموحل . ونزلت " بيتالين " من القارب ومشت فى الوحل بضعة أمتار . ولما وصلت إلى الضفة قالت : " سأربط القارب ثم آتى لمساعدتك " .

وما كادت الفتاة تنهى كلامها حتى سمع " هيلتون " صوت رشاش ينبعث من خلفه . فأجفل وإلتفت ، فرأى تمساحاً طوله أربعة أمتار وقد فتح فكيه وبدت أسنانه مثل شرك صيد . ورفع الشاب ذراعه اليسرى إحتماء ، فتلقفها التمساح وأطبق عليها بفكيه .

وفيما كان " غراهام " يتأوه من الآلم راح التمساح يتقلب فى الماء . وما لبث أن أرخى فكيه فأفلت طريدته . وإنطلق الشاب يلهث ويستغيث بالفتاة التى وقفت مرعوبة على الضفة . وبرقت فى خاطره فكرة بعثت اليأس فى نفسه : " ماذا يمكن لفتاة أن تفعل فى حال كهذه ؟ " .

وقف " هيلتون " مترنحاً والتمساح يضرب الماء بذيله . وما لبث هذا أن إندفع نحوه وأطبق على إبطه اليمنى وطفق يجذبه بعنف والدم يتدفق من ساعده المجروحة . وحاول الشاب جاهداً تثبيت قدميه فى الوحل لئلا يجره التمساح إلى العمق ، **فمن عادات هذا الحيوان أن يتقلب فى الماء ويغرق فريسته قبل تمزيقها إرباً .** وإذ إبتعد " هيلتون " عن شاطئ الأمان ، إزداد إحساسه بقوة الحيوان العجيب . فرفع ذراعه اليمنى وصاح بالفتاه كى تهب إلى نجدته .

فارق الخوف الصبية ، فخاضت الماء الموحل الذى بلغ ركبتيها وتقدمت نحو شقيقها وأمسكت ذراعه بكلتا يديها . ثم ثبتت قدميها فى المستنقع وثنت ركبتيها وأخذت تجذبه بكل قوتها .

وبدأ التمساح يشق طريقه فى المياه العميقة وهو يطلق رشاشاً ويحكم الإمساك بإبط " هيلتون " . وهال الفتاة أن يجذبها الحيوان ويربح المعركة .

وبعد دقيقة حسبتها " بيتالين " ساعات ، أخذ التمساح يدور بسرعة تحت الماء ثم جذب الفتاة التى ما فتئت تمسك بذراع شقيقها وإتضح لها أن عليها الصمود لتفوت على التمساح فرصة إغراقهما . فرفعت رأسها وأخذت تبحث عن موطئ فى القعر ، ثم ثبتت أصابع قدميها وشرعت تقاوم بكل ما تملك من قوة لعل التمساح يفتح فمه مدّة كافية لتخليص " هيلتون " .

لقد بلغ الماء خصرها ، ولكنها بقيت ثابتة ولم يثبّط من عزيمتها أن التمساح جرّ كتفى " هيلتون " ورقبته ورأسه إلى تحت الماء . ورأت " بيتالين " علامات اليأس على وجه شقيقها كلما طفا ، وخيل إليها أنها فقدته . ومع ذلك ظلت تقاوم لاهثة .

فجأة هدأ التمساح وألفت الفتاة بنفسها تتراجع وتسقط فى المستنقع وهى تجر " هيلتون " . ومالبث الشاب أن رفع رأسه متشوقاً إلى الهواء وهو يلفظ رشاشاً من فمه . وكان الحيوان لا يزال ممسكاً به ، غير أنه أفلته بغتة على بعد خمس خطوات من الضفة وعاد إلى عمق المستنقع .

وراحت " بيتالين " تجذب ذراع " هيلتون " بمزيد من القوة . وصاحت به : " هيلتون ، هيلتون ! لا تستسلم " ، فوقف مترنحاً مذهولاً ووجهه أبيض كوجه الموتى ، والدم يتدفق من ذراعه وإبطه .

وما كاد الشقيقان يتقدمان خطوتين حتى رجع التمساح بجلبته المعهودة وراح ينهش فخذ الشاب بضراوة . غير أن " بيتالين " جذبت شقيقها بقوة فأفلت ثانية من الوحش . وتلون الماء بالدم المتدفق ، وطفا التمساح وهو يراقب ما يجرى .

وبلغ الشقيقان الضفة ثم توجها إلى شجرة تبعد خمسين متراً عن المستنقع ليكونا فى مأمن من التمساح . ولم يعد " هيلتون " يقوى على الحركة من هول الصدمة والنزف ، وكان قميصه ممزقاً وسرواله أشبه بخرق بالية . فأجلسته " بيتالين " إلى جذع الشجرة وقالت له : " إنتظرنى هنا حتى أحضر الشاحنة " . وأخذت تعدو فى الأدغال نحو الشاحنة التى تبعد مسافة كيلومترين .

ومن حسن الحظ أن " هيلتون " كان قد علمها القيادة وهى فى الثامنة من العمر . فلما صعدت إلى الشاحنة أدارت المحرك وسلكت الطريق الوعرة بأقصى ما يمكنها من سرعة . وحين لمحها " هيلتون " تقدم نحو الشاحنة ببطء وصعوبة . فخفت إليه وساعدته فى إعتلاء المقعد حيث تمدد على جانبه الأيسر والدم ينزف من إبطه وفخذه وذراعه اليسرى .

وفى السادسة والدقيقة الخامسة مساء بدأ الشقيقان رحلتهما إلى " تشانل بوينت " . وما أن إجتازت الشاحنة بضع مئات من الأمتار حتى أغمى على " هيلتون " . ولم تعرف " بيتالين " هل ينبغى أن توقف الشاحنة أم لا ، فأخذت

تهزه قائلة : " إنك لن تموت هنا ، أليس كذلك ؟ " فتأوه ثم أغمى عليه ثانية . وعاد يئن قبل وصولهما إلى البلدة ، فتنهدت " بيتالين " قائلة : " هيلتون ! لا تمت ، لا تمت ! " فإستجمع الشاب قواه وقال : " لا تخافى " .

كانت البلدة خالية ، فجر " هيلتون " نفسه إلى جهاز اللاسلكى وإتصل بمحطة " ولترى هومستيد " على بُعد سبعين كيلومتراً . وقال : " لقد نهشنى التمساح ويجب أن أذهب إلى المستشفى . سوف تقودنى " بيتالين " إلى داروين . فأرسلوا من يلاقينا " . وكانت بلدة " لابيل هومستيد " - حيث تسكن مخطوبته وأسرتها - لا تبعد عن " تشانل بوينت " أكثر من ثلاثين كيلومتراً ، غير أن الإتصال المباشر بين البلدتين كان معطلاً .

وأسرعت " بيتالين " وأحضرت مسحوقاً مطهراً وخرقة نظيفة ، ثم ذرّت المسحوق على جروح " هيلتون " وغطتّها من دون أن تربطها ، وأسرعت به إلى المستشفى فى " داروين " . وفى الشاحنة كان " هيلتون " مسترخياً على المقعد ، لكن عينيه بقيتا مفتوحتين . وكانت " بيتالين " تنظر إليه بين الفينة والفينة لتطمئن إلى أنه ما زال واعياً . وفى بعض الأحيان كان ينتابها الخوف فتسأله : " هل أنت بخير ؟ " فيجيبها بإختصار : " نعم " .

وأخيراً رأت " بيتالين " أنوار سيارة بعيدة . وبعد برهة إلتقت مخطوبة " هيلتون " وشقيقها وقد جاءا فى سيارة لاندروفر ، فنقل إليها " هيلتون " وأسرع الجميع إلى مدينة " داروين " .

وما أن أشارت الساعة إلى الحادية عشرة حتى توقفت السيارة عند مدخل الطوارئ فى المستشفى ، ونقل الجريح وأعطى ليتراً ونصف ليتر من الدم ومضاداً للجراثيم وحقنة ضد الكزاز وأخرى لتخفيف الألم . ووجد فى ساعده اليمنى كسران تم تجبيرهما . وبلغ طول الجروح فى إبطه ٢٤ سنتيمتراً فنظفت بعناية وكشطت عنها الأنسجة الميتة . وبعد أسبوع تبين أن الإلتهاب سطحى وأخذت الجروح تلتئم . ومكث " هيلتون " فى المستشفى أسبوعين ، وكانت " بيتالين " تعوده بإستمرار .

ويقول " هيلتون " : " **هى فتاة رائعة ، فعلى رغم قراءتها الكثير عن أخطار التماسيح ، ومع أننا كثيراً ما تحدثنا فى هذا الشأن ، فانها عرّضت حياتها للخطر لتنقذنى " .**

لقد إستعاد " هيلتون " عافيته كاملة ، لكنّ آثار الجروح بقيت ظاهرة فى جسمه . وكثيراً ما عاد إلى مستنقع " بالم سبرنجز " ، إلا أنه لم يبحث ثانية عن مسدّسه المفقود . فهو يعلم أن التمساح عادة لا يبرح المكان الذى يعيش فيه ، كما يشعر بأن هناك عينين تراقبانه على الدوام .

وفى تشرين الأول ١٩٨٢ ، خلال جولة " الملكة إليزابيث " الثانية فى أستراليا ، علقت على صدر " بيتالين غراهام " وسام الجمعية الإنسانية الملكية تقديراً " لأعظم الأعمال شجاعة لعام ١٩٨١ " .

دارت أحداث هذه القصة فى أستراليا .

شخصيات لا تنسى ..



(١٩) لويس بريل

ثقوب من نور

فى عام ١٨١٢ وفى قرية " كوفرى " الفرنسية ، كان طفل صغير ذو عينين بنيتين براقتين ، يلعب فى حانوت والده صانع السروج ، وفجأة إختطف مثقابين حادين وجرى بهما مبتهجاً ، ولكنه لم يلبث أن زل قدمه وسقط على الأرض .

وفى هذا الحادث فقد الطفل بصر إحدى عينيه ، ثم أصبح أعمى تماماً بعد ذلك بوقت غير طويل .. وكان أهل القرية يعطفون عليه ، وكلما سمعوا صوت عكازته ، هتفوا : " ها هو ذا لويس الصغير " وبهذه العكازة كان يقيس طول الطريق إلى الشجرة الكبيرة حيث يجلس فى ظلها ليستريح ، وإلى شاطئ البحيرة حيث يستمع إلى رفاقه وهم يلعبون ويمرحون .

وفى العاشرة من عمره ، إلتحق **" لويس بريل "** بمدرسة العميان بباريس وتعرف على أحرف الهجاء التى كانت تصنع من قطع صغيرة من الخشب يتدرب المكفوف على التمييز بينها باللمس . وإرتقى الصبى من أحرف الهجاء إلى قراءة الكتب ، وكانت الحروف فى هذه الكتب قطعاً من القماش مثبته فوق الصفحات . وكان إرتفاع الحرف الواحد ثلاث بوصات تقريباً وعرضه بوصتين .

وقد كانت هذه الطريقة عقيمة إلى حد بعيد ، حتى إن قصة قصيرة ملأت سبع مجلدات ضخمة زنة كل منها ثمانية أرطال تقريباً .

وحين بلغ " لويس " الرابعة عشرة ، إكتشف أحد زملائه خطأ فاحشاً فى تلك الطريقة العقيمة ولفت نظر الأستاذ إلى ذلك الخطأ فحاول أن يتلافاه ، وأشد ما جزع له " لويس " أنه أدرك أن دراسة منهاج يسير بهذه الطريقة ، تقتضيه زمناً قد يمتد إلى خمس سنوات . وضاق " لويس " بعماه وجهله ، وقال يوماً لوالده :

" إن العميان أشد الناس شعوراً بالوحدة . إنني أستطيع تمييز كل طائر بصوته كما أستطيع معرفة مدخل البيت بلمس المعبر الجاثم فوق بابه . ولكن كيف يتاح لى ان أعرف ماذا تخبئه الأصوات واللمسات ؟ .

إن الكتب وحدها تستطيع أن تتيح الحرية للمكفوفين . غير أن الكتب التى يستطيعون قراءتها لا تساوى شيئاً " .

وفى يوم خطرت له فكرة عظيمة أوحت إليه إبتكار طريقة لوضع عبارات إصطلاحية للكلمات والجمل ، وخيل إليه أنه بهذه الطريقة قد يستطيع المكفوفون أن يكتبوا .

وقضى أشهر الصيف فى تجارب مضنية محاولاً إستخدام قطع من الجلد فى تمثيل الكلمات حتى دميت يداه من طول ما جرب من إستعمال المربعات والمثلثات والدوائر للوصول إلى هدفه ، على غير طائل ، حتى أدركه اليأس من إمكان إستعمالها بطريقة عملية فى تمثيل الأحرف الهجائية المختلفة .

وذات يوم بعد أن أصبح " لويس " مدرساً فى معهد تعليم العميان فى باريس ، كان جالساً فى إحدى مقاهى العاصمة الفرنسية ومعه صديقه يقرأ له الصحف ، وعرف أن ضابطاً من ضباط الجيش الفرنسى إبتكر طريقة للكتابة بواسطة النقاط والشرطات ، القصد منها أن يستطيع الإنسان القراءة فى الظلام .

وجاء فى النبأ أنه من الممكن أن تقرأ رسالة ما باللمس من غير حاجة إلى إستخدام أى ضوء ، وكان هذا النبأ كافياً لإثارة إهتمام " بريل " إلى أبعد حد ، حتى إنه أخذ يصيح بصوت مرتفع ويضرب المائدة بقبضة يده ، وحضر صاحب المقهى محتجاً ، وعنفه بأنه يزعج الحاضرين .

وإعتذر " بريل " بقوله إنه إهتدى أخيراً إلى حل مشكلة العميان التى طال عليها الأمد كما طال عليهم اليأس الذى يشبه الموت .

وفى اليوم التالى ذهب فى صحبة أحد أصدقائه لمقابلة الكابتن " شارل باببر " وبادره بالسؤال : " هلا شرحت لى طريقتك التى إبتكرتها للكتابة فى الظلام ؟ إنك ستكون موضع تمجيد العميان على مر الأجيال " .

وتحدث " بريل " عن حرمان المكفوفين من نعمة النور التى تتيحها قراءة الكتب ، وعن المتعة التى تتيحها القراءة فى عالم يسوده الظلام الدامس .

وأجابه الضابط بأنه لم يفكر فى ذلك أبداً ، وبدأ يشرح كيف يستخدم مثقاباً فى إحداث ثغرات فى ورق سميك يمكن لمس آثارها الواضحة فى الجهة الأخرى من الورق . وكان هناك إصطلاح بسيط فإن النقطة الواحدة معناها " تقدم " والنقطتين معناها " تقهقر " ، وهكذا ..

وإستطرد يقول : " إنك تستطيع أن تضع مصطلحات اللغة كلها على هذا الأساس " .

وأجابه " بريل " بقوله : **" هذا ممكن ، ودعنى أكن أول العميان فى العالم ، فى المبادرة إلى توجيه الشكر إليك " .**

ومنذ ذلك اليوم ، لم تعرف الراحة سبيلها إلى " بريل " على مدى خمس سنوات كاملة ، بعدها ظهر أول كتاب مطبوع بطريقة " بريل " التى كانت تعتمد على المثقاب الذى كان السبب فى حرمان " بريل " نفسه من نعمة البصر .

وفى عام ١٨٣٦ ، حينما كان " بريل " فى السابعة والعشرين من عمره ، كان قد فرغ من إعداد مختارات من شعر الشاعر الأعمى " چون ميلتون " مكتوبة بطريقته المبتكرة ليقرأها المكفوفون . وقد قال فى ذلك : " إنه من الأوفق أن يقع إختيارى على الشاعر العظيم الأعمى ليكون أول ثمرة لطريقتى فى تعليم العميان " .

وإستعرض " لويس بريل " طريقته فى باريس أمام جمهرة من تلاميذه وأساتذته ، فقد شرع فى كتابة بعض العبارات وإعادة قراءتها بسرعة تكاد تبلغ السرعة التى يكتب ويقرأ بها المبصرون .

ولكن المبصرين من زملائه إستبدت بهم الغيرة ، فزعموا أنه حفظ عن ظهر قلب كل تلك العبارات التى كتبا وأعاد قراءتها . وهنا إلتمس " بريل " أن تختبر " الأكاديمية الفرنسية " طريقته المبتكرة ، مؤملاً أن يساعد نفوذها على إستخدام طريقته فى مدارس العميان . ولكن إلتماسه قوبل بالرفض بحجة أن العميان يلقون الكفاية من التدريب والتعليم بطريقة الأحرف البارزة .

على أن التلاميذ فى معهد العميان أسروا إليه برغبتهم فى دراسة طريقته فإستجاب " لويس " لهم ، وبادر إلى تحقيق رغبتهم بل زاد عليها . وإبتكر مصطلحات حسابية فضلاً عن مصطلحات أحرف الهجاء . ولم يلبث بعد ذلك أن

أصبح عازفاً موسيقياً ماهراً ، يجيد العزف على الأرغن ! . غير أنه لم يدرك نجاح تجربته إلا بعد أن نال منه مرضه الأخير .

كانت إحدى تلميذاته المكفوفات تعزف على البيانو أمام جمهور من علية القوم فى باريس وبعد أن فرغت من العزف علا هتاف المستمعين وتصفيقهم إستحساناً وإعجاباً ، ولكنها إنبرت تقول : **" سيداتى ، وسادتى إننى لا أستحق هذا التكريم وإنما يستحقه رجل هو الآن فى طريقه إلى العالم الآخر " .**

كان لتواضعها وعرفانها بالجميل لأستاذها ، أثر فى زيادة جمال وجهها برغم كف بصرها .

وأخذت تروى كيف علمها " بريل " قراءة الكتب والموسيقى . ثم قالت :

" إنه لم يعط العميان إبصاراً فقط بل أعطاهم موسيقى يطربون لأنغامها " ، وكانت تقول هذا وهى تبكى ، وروت للحاضرين كيف حوربت طريقته بدافع من الغيرة والحسد ، ولحساب أولئك الذين كانوا يجنون الأرباح الطائلة من كتب العميان المطبوعة بالطريقة القديمة .

ولما إهتمت الصحافة الفرنسية بنبأ هذه القصة المثيرة ، خضع المسئول بالأكاديمية الفرنسية لرغبة الجمهور وتوافد الأصدقاء على فراش " بريل " يررون له ما حدث .

وقد قال فى تلك المناسبة : **" هذه هى المرة الثالثة التى سمحت فيها لنفسى أن أبكى : بكيت لأول مرة حين فقدت بصرى ، وبكيت للمرة الثانية حين سمعت نبأ إبتكار الكتابة فى الظلام ، والآن بكيت حين أدركت أن حياتى لم تكن فاشلة " .**

ومات بعد ذلك بأيام قلائل ..



شخصيات لا تنسى ..

(٢٠) وليم جون شكسبير

رجل لكل العصور

- شهرته تضارع غموض شخصيته ! .
- يُنشِد فى ذبح العجول أشعاراً ! .
- يصطاد الغزال ، ويحرس الخيل ، ويهوى دنيا الغابات ! .
- الملقّن الذى أصبح عميد المسرحيين الإنجليز ! .
- عبقريته : موضوع الدارسين على مدى الأجيال ! .

صرّح أحد المؤرخين بعد وفاة وليم شكسبير بقرن من الزمان ، بقوله : " إن كل ما تعلمته من التاريخ إستقيته من أدب شكسبير " .

وكتب عنه معاصروه من رجال الفكر والأدب : " إنه لا ينتسب إلى عصره فقط ، إنما ينتمى إلى كل العصور على مدى الأجيال ! " .

ولقد عُرف أن أعماله قد شكلّت الأدب فى كل الأقطار التى تتكلم الإنجليزية . وقيل عنه إنه جمع فى عظمة مجده الأدبى بين عبقرية " سقراط " وموهبة " فرجيل " الشعرية .

• مولده ونشأته :

وُلد " وليم جون شكسبير " فى ٢٣ نيسان (أبريل) عام ١٥٦٤ م فى بلدة ستراتفورد الواقعة على نهر إيفون ، على بعد ٧٥ ميل إلى الشمالى الغربى من

لندن . وكان ترتيبه الثالث بين ثمانية أخوة .

أما أبوه " جون شكسبير " فقد كان صانعاً وتاجراً للقفازات ، كما كان يدير محالاً لبيع اللحوم . وقد أختير عضواً بالمجلس التشريعى للمدينة ، ثم عين عمدة لها . وقد كان حريصاً على الإشراف بنفسه على تعليم إبنه " وليم شكسبير " بالمدرسة المحلية حيث درس اللاتينية واليونانية والتاريخ والشعر .

ولكن الأب تعرض فى آخر أيامه لضائقة مالية إضطرته لبيع ممتلكات زوجته وحرمان إبنه " وليم شكسبير " من مواصلة دراسته .

وعمل " شكسبير " مساعداً لوالده فى محل الجزارة . ويُحكى أنه كان بارعاً فى ذبح العجول والتغنى بها فى مقطوعات شعرية أو نثرية تجذب جمهور المشترين .

• السنوات الضائعة :

ويطلق المؤرخون والدارسون على السنوات ما بين ١٥٨٥ و ١٥٩٢ من حياة شكسبير " السنوات الضائعة أو المفقودة " فقد ظلت أخباره فى تلك الفترة فى طى الكتمان ، إذ لم يعثر على أى مستندات أو وثائق تحكى أخباره أو تروى آثاره . لذا فقد تعددت الروايات حول مطلع شباب حياة " وليم شكسبير " وقصة ولعه بالمسرح وتبنيه قضية الأدب الإنجليزى .

ويرجح بعض النقاد أنه ظل فى لندن مغموراً لسنوات يدرس فن المسرح بإجتهاده الشخصى ، إذ لم يواصل تعليمه أو يلتحق بأى جامعة .

ويذهب فريق آخر من الدارسين إلى القول بأنه لجأ إلى لندن هرباً من عقوبة السجن بتهمة السطو - مع بعض الرفاق - على حظيرة للغزال لأحد النبلاء الإنجليز . كما يحكى آخرون أنه عمل بالتدريس .

• على خشبة المسرح ! :

تكاد تتفق الروايات على أن " وليم شكسبير " قد إقتحم المسرح وإعتلى خشبته بعد أن أمضى سنوات واقفاً على أعتابه يعمل فى حراسة خيل المشاهدين من رواد المسرح ! .

ثم إلتحق بوظيفة ملقن للممثلين ، ولاحظ مدير الفرقة موهبته الأدبية فعهد إليه بتمثيل بعض الأدوار الثانوية .

وبدأ نجم " شكسبير " يلمع شيئاً فشيئاً . قام بتأليف المسرحيات بمساعدة الشاعر المعاصر آنذاك " مارلو " ولقيت أعماله نجاحاً عظيماً ، مما أزعج كبار المؤلفين ! .

وظهر بالأسواق والمكتبات فى عام ١٥٩٢ كتيب يشيد النقاد فيه بوليم شكسبير الممثل والأديب . وإستمر يبدع فى تأليفه بمتوسط إنتاج مسرحيتين كل عام ، حتى تربع على قمة المسرحيين فى عصره .

ولقد إستطاع أن يكتشف من خلال مسرحياته سمات العواطف الإنسانية من إنفعالات المآسى العميقة ، إلى الفاكهة الشعبية فى مسرحياته الهزلية .

ولقد شهد " وليم شكسبير " ورفاقه المسرحيون عصر المسرح الذهبى بعد أن توج " جيمس الأول " ملكاً لإنجلترا ، وكان شغوفاً بالمسرح فمنح شكسبير ورفاقه تصريحاً ملكياً ، وأطلق على جماعتهم الفنية " رجال الملك " .

• مراحل أدب شكسبير :

- المرحلة الأولى ١٥٩٠ - ١٥٩٤ :

ولقد أبدع وليم شكسبير فى هذه المرحلة فى كتابة التراجيديا (الفن المأسوى) والكوميديا (الفن الهزلى) .

ومن أعماله فى تلك الفترة " الملك جون " (**King John**) .

- المرحلة الثانية ١٥٩٥ - ١٦٠٠ :

تابع " وليم شكسبير " مجده الأدبى فى تأليف الكوميديا والتراجيديا ومن أعماله فى تلك الفترة " تاجر البندقية " (**Merchant of Venice**) " وروميو وجوليت " (**Romeo and Juliet**) .

- المرحلة الثالثة ١٦٠١ - ١٦٠٨ :

وتمثل تلك الحقبة عظمة هذه العبقرية الفذة فى التأليف المسرحى . ومن أعماله فى تلك الفترة : " هاملت " (**Hamlet**) و " عُطيل " (**Othello**) و

" ماكبث " (Macbeth) و " الملك لير " (King Lear) وقد بلغ عدد مسرحيات شكسبير ٣٧ مسرحية ، تميز فيها بمهارته فى إرتياد أعماق النفس البشرية وبراعته فى تناول نماذج الشخصيات التى يرسمها بكلماته . فقد ساقه خياله ، وجرى قلمه ، ليكتب عن الملوك والرعاة والنشالين والفاسقين وغيرهم مما زخر به مجتمعه آنذاك .

كما برع " وليم شكسبير " فى وصف الأحداث والشخصيات التاريخية ، فإنطبع تصويره لهذه الشخصيات فى ذاكرة المشاهدين أكثر مما سجله عنها المؤرخون ! .

• وليم شكسبير الشاعر :

ولم يقتصر " وليم شكسبير " على التخصص فى الفن المسرحى فحسب ، وإنما عمد إلى نظم القصائد الشعرية ، وبخاصة فى أوقات إغلاق المسارح بسبب إنتشار مرض الطاعون عام ١٥٩٤ .

وقد جاءت قصائده صدى لخبرات طفولته ، وهيامه بجمال ريف موطنه ستراتفورد ، وسحر مناظره ، بنهر " إيفون " العظيم والغابات الخضراء الممتدة على ضفتيه التى كان يهيم بجمالها ! .

ولقد أفصح " وليم شكسبير " عن أنه يجد نفسه فى إبداعه للأشعار ، أكثر من تأليفه للمسرح .

ولقد لجأ بعض الدارسين إلى إستشفاف بعض سمات شخصية " وليم شكسبير " من قصائد شعره التى تعكس تجاربه النفسية والشعورية . ولقد إعتمد الدارسون فى ذلك على إعترافه بأنه يميل إلى الوضوح والصراحة والشفافية ، وأنه لا يجيز الشِّعر المستعار ، ولا يتذوق الجمال الصناعى ويستنكر إستخدام أدوات التجميل .

• لغة شكسبير :

ساهم " وليم شكسبير " فى إثراء اللغة الإنجليزية بالكثير من المفردات التى إبتدعتها ، ومن أمثلة هذه الكلمات :

Catch cold	يصاب بنزلة برد
Assassination	إغتيـــــــــال
Eventful	زاخر بالأحداث

• السنوات الأخيرة فى حياة " وليم شكسبير " :

تقاعد " وليم شكسبير " فى هدوء فى السنوات الأربع الأخيرة من حياته فى بيته العريق والجميل الذى يطل على النهر ، وقد كان " شكسبير " قد بلغ حداً من الشهرة ومقداراً من الثروة أتاحا له أن يستثمر أمواله فى بلدته ستراتفورد ، وأن يحيى أمجاد أملاك عائلته هناك ، حيث إستمتع بالجو العائلى الهادئ مع زوجته " **آن هاثواى** " - التى تزوجها فى الثامنة عشرة من عمره ، وكانت تكبره بثمانية أعوام ، ومع إبنته الكبرى " **سوزانا** " وإبنته الصغرى " **جوديث** " التى توفى أخوها التوأم فى سن العاشرة .

وعاش " وليم شكسبير " حتى شهد حفيدته الأولى ، وإحتفل بزواج إبنته الصغرى فى عام ١٦١٦ ..

• وصية شكسبير :

كتب " وليم شكسبير " وصيته قبيل شهر من وفاته ، أوصى فيها بأن تؤول كل ثروته لإبنته الكبرى وذريتها . كما أوصى لزوجته ببعض ممتلكاته الخاصة . وقد كان طريفاً ما جاء فى وصيته : " أوصى لزوجتى بفراشى الأثرى و . . . " .

كما أوصى بكتابة لوحة على قبره يرجو فيها رواد القبر بألا يعبثوا بعظامه ، ويحذر من إستحقاق اللعنة لكل من يتجرأ على فتح قبره ! .

ومات " وليم شكسبير " فى ٢٦ نيسان عام ١٦١٦ فى نفس يوم ذكرى ميلاده الثانى والخمسين .



شخصيات لا تنسى ..

(٢١) إريك هوبلير أو ...

صاحب رواية مزرعة الحيوانات

- **عانى من التفرقة فى مدرسته لأنه كان فقيراً .**
- **إختار فى مقتبل عمره أن يعيش فى منزل تجول فيه الطيور والحيوانات ! .**
- **أبدع فى كتابة الرواية والشعر والنقد ، وتشرد بحثاً عن لقمة خبز ! .**
- **وصفه النقاد بأنه من أعظم من أنجبت إنجلترا فى عالم القلم ! .**

فى الثالث والعشرين من شهر حزيران (يونيو) لعام ١٩٠٣ ، فى إحدى مدن البنغال بالهند وُلد " **إريك هوبلير** " . كان والده يعمل فى وظيفة متواضعة ، وجده لأبيه قاضياً وراعى كنيسة فى الجيش الهندى ، أما جده لأمه فكان فرنسياً يتاجر فى الأخشاب .

كانت عائلته من المستوطنين الأجانب فى بورما . . والهند ؛ وكما قال عنه معاصروه إنه ينتمى إلى عائلةٍ تعتبر من أفقر فقراء الطبقة العليا فى بريطانيا فى بداية هذا القرن .

وفى الرابعة من عمره إنتقل إلى بريطانيا ، ودخل المدرسة الإبتدائية ثم الإعدادية . **لقد قاسى كثيراً فى تلك المرحلة الأولى من عمره . فقد كان لهذه الفترة أسوأ الأثر فى حياته حتى إنها تركت بصماتها واضحة على الكثير من أعماله فيما بعد ، وكان هذا راجعاً إلى التفرقة الشديدة فى المعاملة فى مدرسته بين أولاد الفقراء . . وأولاد الأغنياء .**

كان منذ طفولته متمرداً شديد البأس . . يخفى الشعور الشديد بالضياع والإنحدار الطبقى وراء ساتر شديد من العنف فى أغلب الوقت . . **" وكان يحمل**

وجهاً له ملامح الأطفال الذين يولدون كباراً " . . هكذا وصفه المؤرخ والروائى والناقد الإنجليزى " سيريل كولونى " . كما أنه عانى فى شبابه من الوحشة والإنطواء والهوان بسبب ظروفه الإجتماعية الصعبة .

أبدى ولعه الشديد والغريب بالحيوانات فى مقتبل عمره ، **فكان منزله يعج بألوانٍ شتى من الحيوانات والطيور كالعصافير والقطط والكلاب والأوز والبط ، تتجول حرة طليقة فى المنزل .**

وهذه العلاقة الغريبة التى تربط بينه وبين الحيوانات كانت هى المؤثر الخلفى لروايته المتميزة **" مزرعة الحيوانات " Animal Farm** التى نُشرت فى بداية الأربعينيات .

وقد أثارت هذه الرواية ضجة أدبية وسياسية كبيرة ، **إذ تدور الأحداث فى هذه الرواية داخل مزرعة تغنى فيها الوحوش أغنية طويلة تبشر الحيوانات بأن خلاصها من الرِّق والعبودية قد أصبح قريباً .**

وفى الرواية يدعو " ماجور " كبير الخنازير كل الحيوانات إلى إجتماع هام وعاجل فى مخزن الغلال . . والوقوف صفاً واحداً للتخلص من إستغلال صاحب المزرعة الذى هو العدو اللدود للحيوانات . . ويسومها العذاب مستخدماً الضرب والتعذيب .

وتتمكن الحيوانات من التخلص من صاحب المزرعة لتتولى إدارتها بنفسها .. وأكد نقاد الغرب فى ذلك الوقت أن الرواية تلقى بظلالها على الحياة داخل الاتحاد السوفيتى .

وقد نشر أول رواية له وهى بعنوان **" أيام فى بورما "** بإسمه الأصلى (إريك هوبلير) .

أما روايته الثانية **" حياة الإملاق "** فنشرها بإسمه المستعار وهو الإسم المعروف به فى كل الأوساط الأدبية فى أرجاء الدنيا .

وصدرت له بعد ذلك أعمال شامخة منها :

" إبنة الكاهن " - " إحتفظ بالنبات يافعاً " - " سعياً وراء نسمة " -

" إطلاق النار على فيل " - " رواية ١٩٨٤ " .

كما نشرت أول قصيدة له وهو لم يتجاوز الخامسة عشرة من عمره ، وكانت عن الحرب العالمية الأولى وقد نشر له أكثر من ثلاثين دراسة حول **أعماله تؤكد كلها أن كاتبنا هذا كان كاتباً وشاعراً وناقداً وروائياً ممتازاً .**

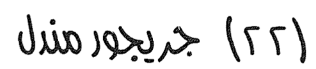
كانت الكتابة مصدر رزقه الوحيد .

وقد تعرض للمحن الكثيرة فى أوقات الأزمات ؛ فقد سافر إلى باريس فى عام ١٩٢٩ فى بداية الأزمة الاقتصادية العالمية . . وعاش هناك حياة الفاقه والعوز . ثم عاد إلى لندن للبحث عن عمل . . ولكن العمل تأخر . فإضطر إلى التشرد تحت أقبية منازل لندن القديمة .

والآن هل تعرفت من قريب على هذا الروائى . . الشاعر . . الناقد ؟ .

إنه كاتب إنجلترا العظيم " **جورج أورويل** " .

شخصيات لا تنسى ..





مؤسس مدرسة علم الوراثة الحديثة

- **لماذا تتشابه ذقنك وذقن أبيك ؟ ! .**
- **الفئران والبازلاء وصفات الوراثة ! .**
- **فشل فى أن يصبح معلماً بمدرسة ، ونجح فى أن يصبح عالماً للوراثة ! .**
- **طول قامتك : كيف ورثته ؟ ! .**

يستطيع كثيرون منا أن يذكروا كيف قيل للواحد منهم أن له عينى أمه ، وذقن أبيه أو ما يشبه ذلك من الصفات ، وتدل هذه الملاحظات على أن المتكلم يعتقد أن الصفات المفردة للجسم كلون العين تنتقل من الأب أو الأم إلى الإبن .

وكان " جريجور جوهان مندل " ، الراهب النمسوى ، أول من وضع أسس علم الوراثة الحديثة ، أى إنتقال الصفات الطبيعية وغيرها من الأبوين للأبناء والبنات .

كان أبوه " أنطوان مندل " عالماً بيولوجياً يملك قطعة أرض بقرية هينزندورف ، وقد إنخرط فى سلك الجندية لمدة ٨ سنوات ، وقد أنجب طفله الثانى " جوهان " فى ٢٢ تموز (يوليو) سنة ١٨٢٢ . وكان " أنطوان مندل " شغوفاً بتربية الفاكهة وكان الطفل " جوهان " يساعد والده فى عمله .

إلتحق " مندل " بمدرسة القرية حين كان يديرها معلم قدير شجع " مندل " على إكمال تعليمه بدلاً من ترك المدرسة . ولما كانت والدته تتشوق لأن يكون لها إبن نابه الذكر ، فإنها شجعته على الإستمرار فى المدرسة .

وعندما بلغ الحادية عشرة ، إلتحق بمدرسة فى مدينة ليبنيك على مسيرة ثلاثين ميلاً من بلدته . وفى سنة ١٨٣٨ أصيب والده فى حادث مروع أدى إلى تهشم

عظام صدره ، فإضطر بسببها إلى الإخلاد للراحة وترك العمل ، كما أنه باع مزرعته إلى زوج إبنته . قرر " مندل " بعد ذلك أن يدرس الفلسفة لمدة سنتين ، ولم يكن ذلك ممكناً إلا بمعاونة أخته الصغرى " تريزا " التى منحته نصيبها من مزرعة الأسرة . والتحق بمعهد الفلسفة .

ولما أكمل " مندل " دراسته الفلسفية ، أصبح شغوفاً بالبحث عن عمل ، فسأل نصيحة الأستاذ " فردريك فلرانز " الذى كان قد قدم بعد مرور عشرين عام قضاها فى التدريس فى " براون " . وتصادف أن طلب من ذلك الأستاذ ترشيح بعض الشبان ليكونوا رهباناً بدير " التبرن " . فرشح " مندل " وفى أكتوبر عام ١٨٤٣ دخل " مندل " الدير وإتخذ لنفسه إسم " جريجور " .

وفى سنة ١٨٤٥ بدأ " مندل " دراسة منهاج أربع سنوات فى علم اللاهوت . وتعلم الأب " جريجور " اليونانية والرياضيات فى أثناء النهار لأنه كان يبيت فى الدير ليلاً .

• لولا فشله فى أن يصبح معلما بالمدرسة ! :

وفى سنة ١٨٥٠ عقد له إمتحان فى التاريخ الطبيعى وعلم الطبيعة ليصبح معلماً بالمدارس العليا ، ولو أنه نجح فى هذا الإمتحان لبقى معلماً طوال حياته ، ولكنه رسب بسبب ضعف إجابته ولأن معلوماته فى هذين العلمين كانت قاصرة على القدر الذى حصل عليه منها عن طريق دراساته الشخصية .

وفى سنة ١٨٥٢ إفتتحت المدرسة الحديثة فى " براون " وبعد ذلك بعام عاد " مندل " لبراون وأسند إليه تدريس العلوم فى المدرسة .

وتؤرخ بحوث " مندل " فى الوراثة فى الفترة ما بين عامى ١٨٥٦ و ١٨٧١ وكان قد أرسل سنة ١٨٥٤ خطاباً لأحد أصدقائه فى " ڤينا " يصف فيه الخسائر التى أصابت محصول البازلاء فى بلدة " براون " بسبب آفة حشرية .

وأخذ " مندل " فى تربية بعض الفئران الأليفة ، ولاحظ إختلاف ألوان نتاج هذه الفئران عن ألوان أبويها ، الأمر الذى أثار إهتمامه بدراسة الوراثة . وقد تحقق " مندل " من أن تجاربه فى الوراثة تحتاج إلى أعداد كبيرة من النتاج ، وأن البازلاء أنسب لهذا الغرض من الفئران .

وقد أجرى العلماء قبله تجارب لدراسة صفات الأبوين وصفات صغارهما وقد أسفرت عن نتائج معقدة يصعب فهمها ، لأنهم كانوا يعالجون عدة صفات مرة واحدة . وكل ما أمكن أن يقرروه هو أن الصغار يحملون صفات أبويهما .

وقد حقق " مندل " نجاحه الأول بأن قصر بحثه على زوج واحد من الصفات المتبادلة ، بأن إختار الطول والقصر مثلاً لأن النبات لا يمكن أن يكون قصيراً وطويلاً فى نفس الوقت .

وعثر على ما يريد من وجود بضعة أزواج من الصفات المتبادلة بين نبات البازلاء النامى فى حديقة الدير فى " براون " ، فوجد أن بعض أعواد هذا النبات قد يبلغ طولها ستة أقدام ، وأعواداً أخرى لا يتجاوز طولها ثمانى عشرة بوصة ، كما أن أزهارها إما أن تكون بيضاء أو ملونة ، وإما أن تكون محورية أو طرفية ، وقرونها إما أن تكون منجنية قليلاً ، وبذورها إما أن تكون ذات لون أصفر أو أخضر ، وقشرة البذرة إما أن تكون ملساء أو مجعدة .

وقد كان على " مندل " أن يفتح زهرة البازلاء الصغيرة وينزع سداها بملقط ثم ينقل إليها حبوب لقاح زهرة أخرى يضعها على مبسم العضو المؤنث للزهرة الأولى ثم يربط هذه الزهرة الملقحة فى كيس صغير ليقيها الحشرات ثم يأخذ البذور الناتجة من هذا " التلقيح الخلطى " ويبذرها فى الربيع التالى .

وإصطلاح " التلقيح الخلطى " يعنى أن الزهرة قد أخصبت بلقاح زهرة أخرى .

ونتائج " مندل " معروفة جداً الآن . فعندما زاوج بين نباتات طويلة وأخرى قصيرة ، فإن طول النباتات الناتجة لم يكن متوسطاً ، بل كان طول النتاج مماثلاً لطول الأب الطويل . كما وجد كذلك أنه لا يهم من أين جاءت حبوب اللقاح وبالمثل كانت أزهار النتاج كلها ملونة وكانت نتيجة تلقيح أزهار ملونة وأخرى بيضاء .

وقد وصف " مندل " هذه النتائج بقوله : " إن بعض الصفات كالطول له السيادة ويسمى " سائداً " وبعضها الآخر يكون متنحياً كالقصر وتلك هى النتيجة الأولى " لمندل " ، وهى أن الصفات السائدة تظهر فى الجيل الأول .

أما الصفات المتنحية فإنها تختفى تماماً فى الجيل الأول ويعرف ذلك بقانون مندل الأول . "

• أزواج البازلاء ونجاح مندل :

كذلك أجرى " مندل " مجموعة أخرى من التجارب على البازلاء ، بأن أخذ زوجين من الصفات فزاوج بين نبات طويل وزهرة ملونة ، مع أخر قصير وزهرته بيضاء ، فنتج جيل من النباتات الملونة الطويلة ، ذلك لأن البياض والقصر هى الصفات المتنحية . كما أن الجيل التالى أنتج الأربعة أشكال المحتملة وبالنسب الآتية :

٩ نباتات طويلة أزهارها ملونة : ٣ نباتات طويلة أزهارها بيضاء : ٣ نباتات قصيرة أزهارها ملونة : نبات قصير واحد له أزهار بيضاء .

وقد وصف " مندل " دراسته على البازلاء فى محاضرتين ألقاهما خلال شهرى شباط وآزار (فبراير ومارس) ١٨٦٥ فى جمعية التاريخ الطبيعى بمدينة " براون " شرح فيها ما قام به من تجارب على البازلاء .

وبالرغم من ذلك فإن بحوث " مندل " لم تلق الإلتفات الكافى من العلماء بسبب إنشغالهم بمناقشة ما جاء فى كتاب " أصل الأنواع " " لداروين " الذى ظهر فى عام ١٨٥٩ . وكان لذلك الإهمال وقع سيئ فى نفس " مندل " إعتبره خيبة أمل .

وفى أزار (مارس) سنة ١٩٠٠ ظهر بحث لعالم نباتى ألمانى إسمه " هوج دى فريز " عن بعض التجارب التى قام بها على النباتات وفيها أشار إلى حقيقة أنه بعد أن حصل على نتائج معينة وجد أن " مندل " قد وصل إلى ما وصل إليه من نتائج قبله بأربعة وثلاثين عاماً . وبعد ذلك بشهر واحد ظهر بحث آخر فى الموضوع نفسه للعالم " كارل كورين " وقد أشار أيضاً إلى بحوث " مندل " المجهولة ، ثم تبعه بحث ثالث للعالم النمساوى " أريخ شخرماك " وبذلك رأت أعمال " مندل " النور مرة أخرى .

ولدى الإنسان اليوم معلومات كثيرة عن الوراثة لكننا نعتبر بحق أن " المندلية " هى أساسها الحقيقى .

شخصيات لا تنسى ..

(٢٣) كارين هارسوك

" لا " .. للإستسلام

قصة من الحياة : وقعت أحداثها فى الفترة بين عامى ١٩٨٢ - ١٩٨٣ .

" النار ! النار ! ".

ظنت " **كارين هارسوك** " ، وهى نائمة فجر الثالث عشر من حزيران (يونيو) ١٩٨٢ ، أنها تحلم . ثم سمعت بوضوح صيحات أبيها اليائسة وهى تتردد فى أرجاء المنزل القديم المبنى بالخشب فى مزرعة عند سفوح جبال " أبالاش " الوعرة فى " كاسلوود " من أعمال ولاية ڤرچينيا الأمريكية .

لقد شبَّ حريق فى المنزل .

وقفزت الفتاة الجميلة إبنة الرابعة عشرة من سريرها وركضت إلى البهو خارج غرف النوم . وشاهدت ألسنة النار وسحب الدخان تتصاعد من الجدران . وإذا بالسلم التى تؤدى إلى تحت تكاد تلفها النار . وهلعت " كارين " وأخذت تنادى أخاها وأختيها الصغار .

وفى ثوان غصت الطبقة العليا بالدخان الكثيف . وخرجت " نورما كاى " ، وهى فى الحادية عشرة ، من غرفتها وهى تنشج من غير أن تتمالك نفسها . وطوقت " كارين " أختها بذراعيها وإندفعت بها نحو الأمان . وفيما والدها الذى أقعد عن العمل بعد جراحة أجريت له قبل وقت قصير على القلب المفتوح ، يكشح النار عن رداء " نورما كاى " ، شقت " كارين " طريقها إلى فوق لمعرفتها أن أختها " لوريتا " البالغة الثانية عشرة وأخاها " چونى " البالغ التاسعة والذى أتى الشلل الدماغى على حركته ، سيهلكان ما لم تبلغهما فى الوقت المناسب . وصرخت عندما إشتعلت النار برداء البوليستر الليلى الذى تلبسه : " يا إلهى ، أعنىَّ " .

وكانت النار قد تسللت إلى كل زاوية من جدران البهو . وحاولت " كارين " أن تتنشق الهواء النقى ، ولكن الدخان الخانق دخل رئتيها . وبينما هى تتلمس سرير " چونى " من غير أن تقوى على رؤية شئ بسبب الدخان ، شبت النار فى جدران غرفة النوم وأنارت طريقها نحو أخيها النائم . ولفته على الفور بحرام صوف وحملته إلى البهو الذى بات يشبه الجحيم .

وهبت النار على إمتداد البهو وطاولت السقف إرتفاعاً . وإلتمع نور فوق رأس " كارين " وسرت النار فى شعرها البنى الضارب إلى الحمرة . وحملت " چونى " بيد واحدة وحاولت إتقاء النار بالأخرى بعدما أحستها فى جلدة رأسها .

وفجأة سقط جزء من ورقة جدار كثيفة مشتعلة على رأس " كارين " وكتفيها . وردته عنها وهى تحمل أخاها بيدها . ثم سقط جزء آخر وتلاه جزء ثالث . وأحست " كارين " ألماً يفوق الإحتمال .

وخشيت أن يغمى عليها قبل أن تستطيع إنقاذ " چونى " . فشدّت قبضتها عليه وأسرعت به إلى أسفل . وأخذ ألمها يخف من غير أن تعرف سبباً لذلك . والواقع أن شعوراً من الغبطة غمرها فى ذلك الوقت . ورأت والدها عند أسفل السلم ، فصاحت بأعلى صوتها وهى تعطيه أخاها : " هذا چونى ! خذه " .

وقال " كلود هارسوك " : **" لقد أخذته ، وجاء دورك الآن . فتعالى فوراً " .**

إلا أن " كارين " عادت وهى تصرخ : " ريرى " ! وهو تصغير إسم أختها " لوريتا " ، من غير أن تدرى أن أختها كانت قد فرت خارجاً . وبعد ثانية سقطت حافة السلم على " كارين " وحشرتها وسط الركام المشتعل .

وهرع " كلود هارسوك " وقلبه الضعيف يخفق بقوة وسحب إبنته من بين الركام وأخذها إلى الخارج . وهناك إرتمت زوجته " راشيل " فوق " كارين " تحاول إطفاء الحريق بجسدها . إلا أن " كارين " بذلت أقصى طاقتها لتنهض وهى تقول : **" لا يزال علىّ إنقاذ ريرى من الحريق " .**

وفى تلك اللحظة أصبح المنزل كله كتلة واحدة من النار . وركض " ديڤيد " ، شقيق " كارين " الأكبر ، لإستقبال سيارة الإسعاف التى طلبها بعدما فر من نافذة غرفته . وأخذت " ريرى " و " نورما " الصغيرة تبكيان وهما جاثيتان مع والدتهما بالقرب من جسد " كارين " المتفحم وهى على وشك أن تلفظ أنفاسها .

وراح الأطباء فى مركز الحروق التابع لمستشفى جامعة ڤرچينيا فى " تشارلو تسفيل " يعملون بلا كلل على إنقاذ البطلة الشابة . وكانت حروق من الدرجتين الثانية والثالثة تغطى جسدها بنسبة ٨٠ فى المئة .

وأقحم أنبوب فى قصبتها الهوائية لمساعدتها على التنفس . وفيما جهاز التنفس الإصطناعى يضخ الأوكسجين إلى رئتيها ، راح المتخصصون يزيلون الجلد المحروق عن ذراعيها وصدرها وعنقها . وإستؤصلت أصابع يديها كلها . وقدّر الأطباء أن حظها فى البقاء لا يتجاوز العشرة فى المئة .

• • •

ظلت " كارين " أياماً تحت الخطر . وزرع لها جلد للمرة الأولى بعد أيام ثلاثة من إدخالها المستشفى . وبات جسمها عرضة لغزو الجراثيم . غير أنها تشبثت بالحياة .

وعلى رغم التخدير القوى الذى تلقته ، فإنها حاولت أن تبقى يقظة وأن تتحمل الألم برباطة جأش . ولم تقو على النطق بسبب الأنبوب الموصول بقصبتها الهوائية والمساحيق التى غطت عينيها المسفوعتين . لكنها إستطاعت التعبير عن أفكارها بتحريك شفتيها والإشارة بيديها إلى لوحة من الحروف البارزة وضعت قبالتها . ولم يصدق أطباؤها والممرضات ما لمسوه من قوتها وهى تؤشر على اللوحة : **" إنى فى حال جيدة ، والفضل يعود لله ولكم . شكراً لكم على ما فعلتم من أجلى " .**

وذات يوم رسمت " كاترين " إشارة فهم منها أنها تطلب شيئاً ما بإلحاج . وبعد جهد كبير عرفت الممرضات أنها تسأل عن أختها " ريرى " التى ظنتها ميتة على رغم تأكيدات ذويها أنها حية . وما هى إلا دقائق حتى جلست " لوريتا " بجانبها على السرير ، ولمستها بحنان وهى تقول :

" أرجوك أن تتعافى سريعاً يا أختى الحبيبة . فإننا جميعاً نشعر بالفراغ وأنت بعيدة عنا " .

وحاولت " كارين " النهوض وهى تلوح بيديها غبطة . وعلى الفور أخذت حالها تتحسن .

إلا أن الشفاء لم يكن بالعملية القصيرة . وصارت " كارين " تحمل مرتين

يومياً إلـى غرفـة المعالجـة حيث ينـزع جلدها الميت بـالمقص والملقط . ويعتبـر كثيرون من الأطباء هذا الأمر أكثر الأساليب الطبية إحداثاً للألم . لكن " كـارين " لم تضعف مرة واحدة طوال فترة المعالجة الممضة .

وكانـت تشيح بوجهها وتقول بصوت ضعيف : " **إنـى فى حـال جيدة . وأنـا متأكدة من أنكم لن تفعلوا أى شئ من شأنه أن يزيد ألمى . فشكراً لكم** " .

وفى أواسط تموز (يوليو) كانت " كـارين " قد خضعت لجراحة زرع جلد ثانية . وعلى رغم زوال الخطر الشديد عنها فإن شبح الموت لم يفارقها إلا بعد أسابيع . وأخذت تبذل جهداً أكبر لئلا تفقد الوعى . وباتت تخشى التخدير وحتى النوم . وراحت تصدر إشارات من يديها لم يفهمها حتى أفراد عائلتها . وإنضم رجل دين إلى الأهل في السهر والصلاة بجانب سرير " كـارين " وهو يراقب إشاراتها بلا إنقطاع . وأخيراً جثا قريباً منها وسألها :

" **أتريدين نسخة من الكتاب المقدس يا كارين ؟** " .

فهزت رأسها إيجاباً . وللمرة الأولى تمكنت من النطق بوضوح ، وإن همساً : " **أجـل ، أرجـوك أن تعطينـى نـسخة** " . وخـرج الأب " **فريـد باتريـك** " مـن الغرفة ، ثم عاد ومعه بعض الأشرطة المسجلة من نصوص الكتاب المقدس . ومـا أن سمعت " كـارين " مقطعـاً مـن الشريط الأول حتـى إرتـسمت عليهـا إمـارات الغبطة . ولاحظ الأطباء من جديد بوادر التحسن عليها .

• • •

مازالت الأيام المقبلة تخبئ بُعداً جديداً لعذاب " كارين " . وهى لم تتمكن حتى ذلك الحين من رؤيـة وجهها وجسدها لأن عينيها كانتا معصوبتين . ولكن بعدما فكت الممرضـات العصابة عن عينيها نظرت أولاً إلـى الجدعات القرمزيـة التـى بقيت من أصابعها ، ثم إلى ذراعيها المكسوتين بالجلد الكثيف المحروق . وبعد ذلك نظرت إلى جسمها وعنقها ووجهها . وأخذت تبكى وتقول للممرضـات : " **أريد أن أموت** " .

وبدأت حال " كارين " تتقهقر . وحاول الأطبـاء والممرضـات تعزيتها ، ولكن بدون جدوى . حتى أمها عجزت عن إقناعها بطرد فكرة الموت من ذهنها . وعرف الأب " **فريد باتريك** " ما يجرى فأسرع إلى غرفة " كـارين " . لكنها

أدارت رأسها وحاولت إخفاء وجهها عنه وهى تقول باكية : **" لا حاجة بى إلى الإستمرار هكذا " .**

وقال لها الكاهن : **" إنك أشجع شخص صادفته فى حياتى . لقد خلقك الله من أجل غاية معينة ، وأنت أظهرت هذه الغاية بوضوح . فهل يجوز الإستسلام بعدما أخذت حكمة الله تعالى تتجلى فيك ؟ " .**

وإذ ذاك إستحالت دموع " كارين " دموع فرح . وذكرها الكاهن بما فعلته فى ليلة الحريق المروعة ، وقال لها إنها حققت غاية وجودها آنذاك ، وما زال عليها تحقيق الكثير . وقوّى ذلك الكلام إرادة البقاء لديها . وأعلنت لذويها أنها تود تحقيق حلم حياتها بأن تغدو ممرضة .

وفى الرابع من آب (أغسطس) ، بعد مضى ٥٢ يوماً على الحادث ، رُفع إسم " كارين " عن لائحة الخطر . وبعد أسابيع نقلت إلى مركز النقاهة حيث أخضعت لعلاج دقيق وإستأنفت دروسها الثانوية .

ولم تمنعها جراحات زرع الجلد الثمانية والعمليات الإضافية المقررة من الشعور بالسعادة . وأخذ شعرها ينمو وبات فى إمكانها المشى بلا مساعدة وتحسن بصرها وقوى صوتها .

• • •

وفى ٢٠ أزار (مارس) ١٩٨٣ ، بعد ثمانية أشهر من المعالجة المكثفة ومئات الجراحات ، خرجت " كارين " من المستشفى . وإنتظرت العائلة كلها أخذها إلى البيت ، وهو منزل زراعى أستؤجر بعد الحادث على سفح جبال " أبالاش " . ورفضت العائلة عروضاً كثيرة من المستشفيات لتطبيب " كارين " مجاناً . فلقد شاءت البقاء بالقرب من أحبائها ، ولاسيما والدها الذى قال له الأطباء إنه مصاب بسرطان فى الرئة لا شفاء منه .

ولبست " كارين " ثياباً مطاطة تغطى جميع أجزاء جسدها المحروقة بما فيها وجهها . وملأت أيامها بالبقاء إلى جانب والدها ومنحه العون النفسى . وسرعان ما إستعادت الفتاة المريضة دورها فى العائلة ، وهو دور الإبنة والشقيقة الكبرى .

وحافظت " كارين " على مرحها حتى بعد مباشرة الجراحة التجميلية . وكانت دروسها وواجباتها تحمل إليها يومياً . وإشتركت فى مجلات طبية وملأت طلبات

لدراسة التمريض وأخذت تتكلم فى المناسبات العامة دفاعاً عن حقوق المعوقين . ومرة قيل لها إنها لا تستطيع التطوع كممرضة فى المستشفى المحلى بسبب حروقها ، فأجابت على الفور :

" ومن ذا الذى يعرف أن يُعنى بضحايا الجروح والحروق أكثر من شخص وقع ضحيتها مدى الحياة ؟ " .

وفى تموز (يوليو) تلقت " كارين " علماً بأن الإختيار وقع عليها لمنحها ميدالية الشباب الأمريكى للشجاعة ووسام كارنيغى للبطولة الخارقة . ودهشت " كارين " وقالت :

" إنى لا أعد نفسى بطلة . وكل ما فى الأمر أنى أحب أفراد عائلتى " .

وظلت تعين والدها على تحمل آلامه ، متجاهلة ألمها المبرح بين الحين والآخر . وفى الثامن من أيلول (سبتمبر) بينما هى معه بمفردها قال : **" أعذرينى يا حبيبتى ، إذ ليس فى إمكانى البقاء معك لمساعدتك "** . ثم أسلم الروح .

وفى السادس من تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٨٣ وقفت " كارين " على سلم البيت الأبيض فيما الرئيس الأمريكى رونالد ريجان يقلدها وسام الشجاعة . وقال الرئيس : **" أعرف يا كارين أن أباك ، ليس معنا اليوم . لكنه ، بمعنى آخر ، حاضر بيننا . وهو فخور جداً " .**

وبعد أسابيع تسلمت " كارين " الوسام الآخر من مؤسسة كارنيغى .

ويقول الدكتور " ريتشارد إيدليتش " مدير قسم الطوارئ ومركز الحروق فى مستشفى جامعة ڤرچينيا :

" إن كارين من أولئك الأفراد النادرين والبارزين الذين لا يلجأون البتة إلى الإستسلام ، والذين يتحلون بمحبة غير أنانية وإيمان روحى هما بمثابة المعجزة التى تحفظ الحياة . وأن إرادتها وعزمها مصدر إلهام لجميع ضحايا الحروق . وبطولتها التى تجل عن الوصف ينبوع إلهام لنا جميعاً " .

(بقلم : شلدون كيلى) .

شخصيات لا تنسى ..

(٢٤) أغلانتين

الوردة البرية

" عندما تكلمت ، بدا لى أن كل شئ آخر يفقد أهميته ، ووافقت على فعل أى أمر تريده منى ! " .

أثارت المرأة ذات الجمال الأخاذ ، التى كانت تحاكم فى محكمة " مانشن هاوس " فى لندن بتهمة تعريض الأمن القومى للخطر ، دهشة أصدقائها . ففى اليوم الخامس عشر من شهر آيار (مايو) عام ١٩١٩ ، شاهدوا " **أغلانتين جيب** " وهى تخطو نحو المدعى العام المتجهم الوجه لتبدأ معه حديثاً جدياً . كانت " أغلانتين جيب " نحيفة طويلة فى الثانية والأربعين من عمرها ، تتوج مقدم رأسها خصلة من الشعر الذهبى الأحمر .

كانت المحكمة قد إستمعت إلى المدعى العام وهو يدرج المخالفات التى أدت عقب الحرب العالمية الأولى إلى إستدعاء " أغلانتين " للمثول أمام المحكمة . فهى نشرت ووزعت ، من دون إذن مراقب المطبوعات ، بياناً يدوياً يظهر صورة طفل نمسوى هزيل كان واحداً من بين أكثر من أربعة ملايين طفل يعانون الجوع فى أوربا نتيجة الحصار الذى كان الحلفاء يواصلون فرضه على الدول المهزومة فى الحرب العالمية الأولى .

وأكتشفت " أغلانتين " ، بما إتسمت به من النشاط والذكاء ، آثار الحصار بمتابعة أنباء الصليب الأحمر والصحف الأوروبية . ووجدت لروعها أن الأمهات المنتحبات فى ڤيينا كن يقتلن أطفالهن الذين لم يكن فى مقدورهن إطعامهم . ونظراً إلى شفقتها الشديدة ، صممت على تحقيق المستحيل ، ألا وهو إنقاذ الأطفال . وهكذا بدأت بالجنيهات العشرة التى كانت لديها صندوق إغاثة للطوارئ

بالإشتراك مع شقيقتها الأصغر منها " دوروثى " ، ونشرت البيان اليدوى الذى أدى إلى محاكمتها .

وعندما كانت فى المحكمة أخذ أصدقاؤها يتساءلون عما يمكن أن تكون وجدته لتقوله لذلك الرجل الذى قدم الدعوى ضدها بقسوة وبلا شفقة . وتحولت " أغلانتين " نحوهم وقالت مبتهجة : **" يقول إنه سيتبرع لصندوقى لإنقاذ الأطفال ، ولكن بعد إنتهاء المحاكمة ! "** .

• • •

وإنتهت المحاكمة بإدانة " أغلانتين " وحملها على دفع خمسة جنيهات غرامة ، وبذيوع شهرتها . فبعد أربعة أيام من إنتهاء المحاكمة ، عقد أول إجتماع عام لصندوق إنقاذ الأطفال فى قاعة " ألبرت هول " الضخمة فى لندن التى ضاقت ، على سعتها ، عن إستيعاب الناس مما أدى إلى إستدعاء الشرطة لتفريق الجمهور . وإعتلت " دوروثى " المنبر تحمل علبة من الحليب المكثف ، ورفعتها للحضور ، وقالت وسط تصفيقهم الحاد : **" إن علبة الحليب هذه فيها من الفضيلة العملية أكثر مما فى كثير من المشروعات الخيرية "** .

ولكن حتى أصدقاء " أغلانتين " كانوا يعتقدون أن صندوق إنقاذ الأطفال مصيره الإخفاق . وحذروها بقولهم : **" ستكونين محظوظة إذا جمعت مئة جنيه "** . لكنهم أغفلوا حماستها الشديدة وقدرتها البالغة على الإقناع . ولم تكد تمضى تسعة أيام على إجتماع " ألبرت هول " حتى كانت الدفعة الأولى من الإعانة فى طريقها إلى ڤيينا . وأخيراً وصل الحليب إلى الرضع الجياع .

وعلى رغم أن " أغلانتين " كانت تخجل من التحدث فى الإجتماعات العامة ، إلا أنها سافرت فى مختلف أنحاء بريطانيا تناشد الناس ببلاغة وقوة حجة على جمع الأموال . وتفاوتت التبرعات من عشرة الآف جنيه قدمها إتحاد عمال المناجم إلى ما يعادل ثمن جنيه تبرع به صبى فى التاسعة من عمره ، كتب يقول :

" لقد تمكنت من إقتطاع شلنين ونصف شلن من صندوق نقودى ، وأملى أن تتمكنى الآن من إنقاذ جميع الأطفال الجياع " .

وخلال سنتين ، تمكنت " أغلانتين " ، مع " دوروثى " وبعض المساعدين ، من جمع ما يقارب المليون جنيه .

ونفذ نداؤهم كالسهم إلى أقصى أرجاء العالم . وعندما وصلت أنباء الصندوق إلى سكان جزيرة " بيتكيرن " ، وهم من نسل البحارة الذين تمردوا على سفينة " باونتى " الملكية البريطانية ، هبوا إلى تعبئة خمسة براميل وصندوقين بالملابس ، ثم أشاروا إلى إحدى السفن العابرة أن تتوقف وتحملها على متنها . وسلمت الملابس إلى مقر الصندوق الرئيسى فى لندن ، وهو المقر الذى كانت " أغلانتين " ، بحلول عام ١٩٢١ ، ترسل منه فرق عمال الإغاثة إلى روسيا لتأمين ١٥٧ مليون وجبة طعام لضحايا المجاعة نتيجة إخفاق الموسم الزراعى فى حوض نهر الفولغا .

• • •

وفى الفترة المريرة التى أعقبت الحرب العالمية الأولى ، كثيراً ما كانت " أغلانتين " وزملاؤها من العاملين معها يوصفون بأنهم غير وطنيين ومحبون للألمان وبلشفيون . لكن أحد مؤيديها الأوائل ، وهو الروائى الشهير " جورج برنارد شو " ، رد على ذلك رداً مفحماً . فعندما إنتقد لأنه يساند صندوقاً يهدف إلى إفادة " العدو " ، علق قائلاً : **" لا أعداء لى تحت السن السابعة ! "** .

وأصبح صندوق إنقاذ الأطفال فى بريطانيا اليوم أكبر مؤسسة خيرية دولية للأطفال . وهو ينفق ستة ملايين جنيه كل سنة على مساعدة الأطفال فى أكثر من خمسين بلداً . ويدير عماله الميدانيون عيادات للأمهات والأطفال فى مناطق مثل أفغانستان وبنجلاديش . وفى أفريقيا الجنوبية وحدها يتولون إطعام قرابة ٢٥٠ ألف طفل يومياً . أما فى بريطانيا فالصندوق يشرف على ما يزيد على ١٥٠ مشروعاً بما فيها الدراسات التى تجرى على التخريب المتعمد للممتلكات ، وتعليم البدو الرحل ، وجمعيات الحضانة المحلية ، وأندية الشباب فى أيرلندا الشمالية .

وقد حافظ الصندوق منذ تأسيسه على مبدأ تقديم المساعدة المحايدة إلى كلا الطرفين فى أى نزاع ، سواء أكان ذلك فى أيرلندا الشمالية أو بيافرا بنيجيريا أو ڤيتنام (شمالها وجنوبها) أو لبنان . ذلك لأن الحرب ، كما كتبت " أغلانتين " : **" سواء أكانت عادلة أو غير عادلة ، هى حرب ضد الطفل "** .

إن " أغلانتين جيب " مُصلحة إجتماعية ، غالباً ما تقارن " بفلورانس نايتنجيل " و " إليزابيث فراى " . ويقول عنها الدكتور " كورت فالدهايم " ، الأمين العام السابق للأمم المتحدة : **" لقد كان لها أثر عميق على قيم جيل كامل وآرائه "** .

أجل فالعالم كله بالنسبة إليها كان أبرشية واحدة ، يتحمل كل من يقيم فيها مسئولية صحة الأطفال وسعادتهم ، من كل بلد أو عقيدة أو لون .

إن إهتمام " أغلانتين " الشديد الملتهب حماسة كان جزءاً من حركة عالمية النطاق . فقد أنشأت دول أخرى ، وفى طليعتها سويسرا وفرنسا ، صناديق إغاثة للأطفال خاصة بها . وسعياً إلى توحيد جميع هذه المؤسسات ، بادرت " أغلانتين " عام ١٩٢٠ إلى تأسيس الإتحاد الدولى لإنقاذ الأطفال الذى إتخذ مقره الرئيسى فى مدينة چنيف . وأعيدت تسميته بحيث أصبح يوم **" الإتحاد الدولى للعناية بالطفل "** .

وهو ينسق جهود ١٧٠ منظمة من منظمات إنعاش الطفل فى ٧٤ بلداً ، كما يشن حملات طارئة لمساعدة ملايين الأطفال فى الكوارث والأزمات المختلفة ، كالقحط فى إثيوبيا والحرب فى لبنان .

وسرعان ما تحققت " أغلانتين " من أن هذه الحركة العالمية الجديدة تحتاج إلى نوع من العقيدة التى توحدها . وفى أحد أيام الآحاد من صيف ١٩٢٢ ، بينما كانت على قمة جبل " ساليف " المطل على بحيرة چنيف ، وضعت مسودة إعلان حقوق الطفل . وجاءت المسودة كأنها نسخة مصغرة من " الماجنا كارتا " (الوثيقة الإنجليزية المتعلقة بالحريات والتى تعود إلى العام ١٢١٥) . ولخصت وثيقة " أغلانتين " الواجبات التى تقع على عاتق الدول فى عاية النمو الجسدى والخلقى والروحى لأطفالها . وإنتهت الوثيقة برأى عاطفى يمثل ما إختصت به " أغلانتين " :

" يجب أن ننشئ الطفل على وعى أن مواهبه ينبغى تكريسها لخدمة إخوته فى الإنسانية " . وثبتت عصبة الأمم **" إعلان چنيف "** عام ١٩٢٤ ، كما تضمنه الإعلان الخاص بالأمم المتحدة عام ١٩٥٩ ، مما خلد إسم " أغلانتين " فى التاريخ الإجتماعى الدولى .

ربما كانت طفولة " أغلانتين " الخاصة هى التى ألهمتها بحلم نشر السعادة على الأطفال فى كل مكان . فعندما ولدت فى ٢٥ آب (أغسطس) عام ١٨٧٦ ، كانت الطفل الرابع من بين ستة أطفال لأبويها . وإسم **" أغلانتين "** غريب ، لكنه تقليدى ، ومعناه **" الوردة البرية "** . وقضت السنوات الأولى من حياتها فى " لايث " ، وهى مزرعة العائلة بالقرب من " اليسمير " فى مقاطعة " شروبسير " الإنجليزية .

وكان والدها على درجة من الوعى الإجتماعى تفوق كثيراً ما كان عليه معظم أفراد طبقة مالكى الأراضى فى تلك الفترة . وأنشأت والدتها " **رابطة الفنون والصناعات المنزلية** " التى أتاحت أوجه نشاط خلاقة للناس العاملين . ونشأت " أغلانتين " وترعرعت فى العائلة ، فى ظل أفكار والدتها الإنسانية التى إنتشرت ونمت حتى أصبحت حركة وطنية .

درست " أغلانتين " التاريخ فى كلية " ليدى مارجريت هول " فى جامعة أوكسفورد . وتدربت لتصبح معلمة فى المدارس الإبتدائية ، وأحبها تلاميذها نظراً إلى حيويتها وخفة ظلها ، وهى أيضاً أحبتهم . غير أن كبر الصفوف والنظام الصارم والمنهاج القائم على التعلم الكئيب بالإستظهار من غير فهم ، **جعل من أيامها كمعلمة فى مدرسة دينية فى مقاطعة " مارلبورو " أياماً غير** سعيدة .

• • •

وأدى التوتر إلى إنهيار فى صحتها كان بمثابة مقدمة لسنوات طويلة من المعاناة من مرض إلتهاب الغدة الدرقية الذى جعلها فى النهاية شبه مقعدة . وإضطرت إلى التخلى عن وظيفتها فى المدرسة ، وحولت مواهبها الخلاقة إلى تعليم ولدى عمها ، " چيم وأغلانتين جيب الصغرى " . وقد أبدع كل منهما فى حياته العملية فى ما بعد ، إذ أصبح چيم رئيساً لكلية " بدفورد " فى جامعة لندن ، على حين أصبحت " أغلانتين جيب الصغرى " رئيسة لمعهد " فروبيل " التعليمى فى " روهامبتون " ، وتقول " أغلانتين الصغرى " عنها : " **إنها حولت حياتنا وأعطتنا إحساساً عظيماً بالمسئولية الإجتماعية** " .

عندما إستقرت " أغلانتين " ، وهى فى العشرينات من عمرها ، مع والدتها الأرملة فى كيمبريدچ ، كانت فتاة جميلة وذكية وشديدة الجاذبية . وقد رفضت عدداً من طلاب يدها للزواج لأنها كانت تحب أحد الشباب العاملين فى الجامعة حباً جماً . لكن هذا خطب فتاة أخرى ، فأصيبت " أغلانتين " بحزن قوى جعلها ترمى نفسها فى ميدان العمل الإجتماعى التطوعى من أجل الفقراء فى كيمبريدچ .

وفى أوائل عام ١٩١٣ ، طلب إليها ، عن طريق شقيقتها " دوروثى " وصهرها السياسى " تشارلز باكستون " أن تسافر إلى مجاهل البلاد المكدونية

لإدارة صندوق لإغاثة ضحايا حرب البلقان . ووصلت إلى موناستير (وهى اليوم فى يوغوسلافيا وتعرف بإسم بيتولا) فوجدت ١١ ألف لاجئ يعانون المجاعة . ووضعت تقريراً وصفت فيه الأطفال بأنهم خائفون وجياع ومرضى ومهجورون ، لأن آباءهم وأمهاتهم ماتوا أو فقدوا . وكانوا ينتظرون ، على نحو مثير للرثاء والإحسان إليهم بكسرة خبز . وظلت صورة أجسامهم المرتجفة ووجوههم الشاحبة تلازمها بقية أيام حياتها .

ولدى رجوعها إلى إنجلترا ، قضت " أغلانتين " أسابيع تلقى المحاضرات من أجل جمع المزيد من المعونة ، ثم عادت إلى كيمبريدج . ومع إقتراب الحرب العالمية الأولى من نهايتها ، إكتشفت هى ودوروثى المعاناة البشعة التى سببها حصار الحلفاء ، ومن هنا إنبثق الوعى بتأسيس صندوق إنقاذ الأطفال .

• • •

كان " أغلانتين " عاطفية وجسورة وذكية . ووظفت جميع قواها المدهشة فى الإقناع الشخصى فى خدمة منظمتها الجديدة . وسرعان ما تبين لعدد كبير من الرجال والنساء المنهمكين فى أعمالهم أن إتجاه حياتهم تغير كلياً بعد إجتماع وجيز معها . ففى زيارة واحدة قصيرة إلى عيادة الدكتور " هكتور مونرو " فى شارع سيمور ، أقنعته بأن يتخلى عن عيادته الراقية فى لندن وأن يسافر فى الحال لكى يعمل مديراً طبياً للصندوق فى ڤيينا . وهو كتب حول ذلك :

" عندما تكلمت ، بدا لى أن كل شئ آخر يفقد أهميته . ووافقت على فعل أى أمر تريده منى " .

وبالإضافة إلى قدرتها على إلهام الآخرين ، تميزت " أغلانتين " بعقل بارع فى التحليل وجرأة تليق بموقع القائد . وكالعديد من أصحاب الأعمال الملتزمين ، كانت تعى أهمية الإعلان البالغة .

ولهذا إستثمر الصندوق مبالغ ضخمة وإستخدم أساليب حيوية وجذابة بعدما كانت أساليبه تقتصر على الدعاية للعقاقير الطبية . ونشر الصندوق إعانات كبيرة مثيرة فى الصحف الوطنية . وإحتل مكانة فى التاريخ الإعلانى إذ كان المؤسسة الخيرية الأولى فى التاريخ التى تنشر إعلاناً على صفحة كاملة من صحيفة التايمز اللندنية .

وسرعان ما أخذت الرسائل تنهال على مكتب " أغلانتين " المتداعى القائم فى إحدى البنايات التى لم تكن تصلح للإستعمال ، فى الميدان الذهبى فى حى سوهو . وقد بلغ عدد هذه الرسائل فى أحد الأيام ١٧ ألف رسالة . وكانت فرق المتطوعين الذين جرى توظيفهم بسرعة تتولى فرز الرسائل وترتيبها فى صناديق الأحذية . وكانت " أغلانتين " مصممة ، إلى أقصى حد ، على عدم تبديد أى فلس . ويذكر زملاؤها كيف كانت تلتقط الدبابيس من ألواح الأرضية العارية ثم تضعها بعناية على أقرب مكتب بالٍ إستحضر من مخلفات الجيش .

وكان أعضاء اللجنة يجتمعون حول طاولتين من طاولات غرف الثكنات التى يمكن طيها . وقد بقيت هاتان الطاولتان تستخدمان حتى عام ١٩٧٤ حين أصبحتا قطعاً غير صالحة للإستعمال . ولا تزال روح " أغلانتين " فى الإقتصاد تلازم صندوق إنقاذ الأطفال حتى الآن . ويفخر الصندوق اليوم بأن نسبة مصروفاته ونفقاته الأساس العامة ضئيلة جداً .

وعندما أصبح الصندق إنقاذ الأطفال منظمة راسخة ومستمرة وعالمية النطاق ، إتضح له أن إرسال المعونة فى الأحوال الطارئة لم يعد كافياً ، وأنه لابد من برامج طويلة الأمد كإقامة مراكز العناية بالرضع ومستشفيات الأطفال ومؤسسات الحضانة وأندية الشباب .

وقد وضع " و . أ . مكنزى " ، الذى كان أميناً لصندوق الإتحاد الدولى لإنقاذ الأطفال فى جنيف عندئذ ، برنامجاً يقضى بأن يكون التبرع ذا طابع شخصى أوثق ، بحيث يتولى مشرف أو ضامن مفرد تقديم المساهمات المنتظمة إلى طفل واحد أو عائلة واحدة ، ويحافظ على إتصاله بها عن طريق الرسائل والصور . وأدركت " أغلانتين " على الفور هذه الفكرة ، فطبقتها عملياً . ومنذ ذلك الحين أصبحت فكرة الضمان أو الرعاية (وهى فكرة نقلتها بضع جمعيات خيرية أخرى) شكلاً يثلج الصدر أكثر من أشكال المعونة الدولية .

وخلال سنوات قليلة من تأسيس الصندوق ، بدأت علائم السن تظهر بوضوح على " أغلانتين " ، فتحول شعرها الذهبى الأحمر إلى فضى أشيب . وأصبحت ، نتيجة لمرض الغدة الدرقية الذى كان يزداد سوءاً ، شاحبة اللون وكأنها شبح أو طيف . كما أن مرض القلب أدى إلى إرهاقها بسهولة . وبقيت " أغلانتين " من دون زواج ، وعاشت حياتها الخاصة فى تقشف ، معتاده ارتداء زى بنى كلباس

راهبة ، وحمل حقيبة على ظهرها أنى توجهت .

• • •

وعلى رغم ما كانت عليه من ضعف جسدى ، إلا أن روحها ظلت تخفق متوهجة كسابق عهدها ، حتى أن العاملين معها خلعوا عليها كنية " اللهب الأبيض " . وعندما كان الصندوق يبنى قرية للاجئين فى بلغاريا ، ذهبت " أغلانتين " لزيارتها وهى ترتدى زيها الشبيه بزى الراهبات ، ووصلت فرحة على قطار بخارى يقوده عاهل بلغاريا آنذاك الملك لويس . وبلغ نجاح تلك القرية حداً أدى إلى بناء قريتين أخرتين فى ألبانيا ، سميت إحداهما " جيب " .

وحين بلغت " أغلانتين " الخمسينات من عمرها ، أخذت صحتها تتدهور بسرعة . وكثيراً ما كانت تواصل أسفارها من أجل الصندوق وتعانى الآلام المبرحة ، بل إنها إستمرت فى رحلاتها حتى عندما إقتضى الأمر حملها على نقالة من القطار . وعلى رغم علمها بأنها كانت تزهق روحها بالعمل فوق طاقتها ، إلا أن قلقها على بقاء الصندوق وإستمراره أجبرها على مواصلة عملها . لكنها ، قبل فترة قصيرة من وفاتها فى السن الثانية والخمسين ، كتبت إلى شقيقتها " دوروثى " عن إقتناعها المتزايد بأن كل شئ سيكون على خير ما يرام :

" إنى أضع ثقتى فى الله فى ما يتعلق بمستقبل صندوق الأطفال ، ولولا هذه الثقة لكانت المسألة برمتها تافهة وغير طبيعية " .

لقد تمكنت " أغلانتين " ، خلال تسع سنوات فقط ، من أن تحول صندوق إنقاذ الأطفال من صندوق مؤقت للطوارئ إلى منظمة دائمة عظيمة لتقديم المساعدة والمعونة ، فأنقذت ملايين الأطفال من المرض والجوع ، وساعدت ملايين أخرى على الإتجاه نحو حياة مجدية سعيدة . وهى كانت على الدوام تؤمن بالمستحيل . وقد حققته فعلاً . وكما كتب " الفيكونت سيسيل أوف تشيلوود " : **" إن أغلانتين جيب تنتمى إلى تلك الجماعة الصغيرة من الرجال والنساء الذين يمكن أن نسميهم بحق قديسين " .**

(بقلم : چانيت جراهام)

(٢٥) أوجين ماكدونالد

بين أجهزة الراديو والمربية اللاسلكية !

كان " **أوچين ماكدونالد** " يحب أن يجلس متكئاً فى مكتبه الواسع فى شيكاجو وهو لا يؤمن بالقاعدة المتبعة التى تقول : إن السبيل إلى النجاح هو أن يكدح الإنسان فى عمل واحد .

فقد كان " ماكدونالد " مستكشفاً ، ويهوى المغامرة ، وقد أنشأ عملاً بعد آخر ، وجاب الجزر الإستوائية وأضاف إلى علم الراديو مخترعات كثيرة عظيمة .

ومما يدل على مغامرته أنه قاد سيارته مرة وهو ذاهل ، فسقطت به من جبل " لوكاوت " . ويدل على مثابرته أيضاً أنه إنتفع بما حدث له ، فقد أصيب من جراء ذلك بصمم فى إحدى أذنيه ، فحمله هذا الصمم على أن يهتم بالأجهزة التى تمكّن الصم من سماع الأصوات .

ولقد أتقن من عهد قريب صنع أحد هذه الأجهزة ، وعرضه فى السوق بسعر أثار الدهش برخصه .

عاش " ماكدونالد " يتلقى التجارب الجديدة وينتفع بها ٥٤ سنة ملؤها المرح والعمل . فكان أول عمل قام به هو عمل ميكانيكى فى مصنع فرانكلين للسيارات فى مدينة بولاية نيويورك ، تقاضى عليه ستة دولارات فى الأسبوع ، ثم إرتقى سريعاً إلى منصب مدير للبيع .

وكانت السيارات فى ذلك الوقت تباع بالنقد فقط ، فبدا هذا " لماكدونالد " وضعاً مختلاً ، ولذلك ترك عمله فى سنة ١٩١٠ وأنشأ أول شركة لتمويل بيع السيارات بالنسبة ، فازدهر عمله وأصاب منه الغنى .

وعقب الحرب العالمية الأولى بقليل وكان فى أثنائها فى قسم المخابرات

البحرية - كان يتجول يوماً فى " جاراچ " فوجد الميكانيكيين حول آلة راديو يستمعون لإحدى الإذاعات الأولى ، فبدأ " چين " لفوره يفكر فى المنافع التجارية لذلك المخترع الجديد . ولقد وجد شابين حوّلا مطبخهما إلى معمل فيصنعان آلة إستقبال لاسلكية كل يوم ، كما يديران محطة إذاعة للهواة ذات موجة قصيرة .

فإشترك " ماكدونالد " مع هذين الشابين ببعض المال ، وأسس الثلاثة شركة أصبح رأس مالها بعد ذلك ثلاثة وثلاثين مليوناً من الدولارات . وكانت تعد من أكبر الشركات التى تصنع أجهزة الراديو فى العالم .

و " ماكدونالد " أشد فخراً بما نفعت به الشركة صناعة الراديو منه بنجاحها المالى ، فهو ورجاله يزعمون أنهم سبقوا سواهم إلى مبتكرات كثيرة فى الراديو فهم :

أول من صنع من المعدن هيكلاً كاملاً لجهاز راديو ، وأول من صنع على وجه تجارى جهازاً متنقلاً ، وجهازاً منزلياً للإستقبال على الموجة القصيرة ، وجهازاً يعمل على قطار متحرك ، وطريقة آلية لضبط الموجة بالضغط على زرّ .

وقد كان إستخدام الموجة القصيرة من أهم ما يعنى به " ماكدونالد " دائماً ، فقد إعتزم منذ سنة ١٩٢٥ أن يقنع رجال البحرية بإستعمال الموجة القصيرة للمخاطبات البعيدة المدى ، ولكن الضباط الكبار لم يحفلوا به . وفى ذلك العام تولى " ماكدونالد " - المستكشف والبحار الهاوى الممتاز - قيادة الباخرة " بيرى " التى كانت تقصد إلى البحار المتجمدة الشمالية ، مقلة بعثة ماكميلان الموفدة من الجمعية الجغرافية الأهلية للبحث فى الأصقاع القطبية .

وأرست الباخرة " بيرى " فى ميناء " جودهاڤن " بجزيرة " ديسكو " ، إحدى الممتلكات الدنماركية ، لتتزود من الوقود ، ولكن الموظف المسئول إعتذر قائلاً : " لابد من إذن الوزير الدنماركى بوشنطون " . فقال ماكدونالد : " سأحصل عليه . " ثم إتصل بسرعة عن طريق جهازه ذى الموجة القصيرة بأحد هواة راديو الموجة القصيرة فى وشنطون ، وطلب إليه أن يهرع إلى مقر الوزير الدنماركى ليحصل على موافقته على تزويد الباخرة بالفحم ، فجاءت الموافقة فى خلال ساعة ، فقال الدنماركيون : " إن ذلك من المعجزات " .

وأبحر " ماكدونالد " إلى " إيتاه " فى شمالى " جرينلند " ليؤسس مقراً شتوياً لقيادة البعثة ، فكان فى طريقه يوزع مجاناً أجهزة راديو على الموظفين الذين قابلهم . وفى " إيتاه " أتم تنفيذ خطة كان قد وضعها قبل أن تغادر البعثة الولايات المتحدة بشهور .

كان قد أقنع الأميرال " ريدلى ماكلين " مدير المخاطبات البحرية ، أن يرقى " فردشنيل " ، وهو شاب من هواة الراديو ، إلى درجة ضابط ، وأن يلحقه بالسفينة الحربية " سيتل " ، وهى سفينة القيادة فى أسطول المحيط الهادى ، وكان الأسطول يمخر عباب المحيط الهادى الجنوبى ، وكان من المنتظر أن يصل إلى أقصى نقطة جنوبية فى سياحته ، عندما يصل " ماكدونالد " إلى بلدة " إيتاه " .

وفى " إيتاه " قام " چين " بعرض رائع ليدل على قيمة الموجة القصيرة ، فقد إتصل بشنيل على ظهر السفينة " سيتل " ، وهى على مسافة ١٢٠٠٠ ميل . وطلب شنيل إلى الأميرال " كونتز " أن يستمع . وعند ذاك أومأ " ماكدونالد " إلى رجال فرقته ، فإنطلق ستة من الإسكيمو يغنون أغانى الإسكيمو ، والأميرال لا يكاد يصدق ما يسمع بأذنيه . وهكذا أرسل الصوت الإنسانى فطاف حول نصف كرة الأرض ، فإقتنع رجال الأسطول .

وأسفرت رحلة " ماكدونالد " إلى المناطق المتجمدة الشمالية عن نتائج أخرى ؛ فعندما عاد إلى شيكاجو أخذ يتسلم من أهل جرينلند ، الذين أهدى إليهم أجهزة الراديو ، رسائل يسألونه فيها أن يبعث إليهم بطائفة أخرى من البطاريات ، أو أن يدلهم على وسيلة لتوليد القوة المحركة لآلاتهم .

فأخذ " مكدونالد " يفكر فيما عسى أن يكون هناك من إحتمالات لتوليد القوة المحركة مستعيناً برياح المناطق الشمالية الشديدة .

وسمع عن شابين من المزارعين فى ولاية " أيوا " كانا يضعان جهازاً يمكنّ طاحونة هواء صغيرة من أن تدير مولداً كهربائياً قديماً من صنع " فورد " ، فتمتلئ البطاريات الفارغة .

وذهب " ماكدونالد " إلى " أيوا " ليقابلهما ، فإشترى ٥١ فى المئة من رأس مالها ، وأوصى على ٥٠٠٠٠ جهاز لشحن البطاريات بطواحين الهواء ، وخفض

سعر البيع بالتجزئة من ٤٠ دولاراً إلى ١٥ دولاراً . وتستخدم هذه الشركة الآن ١٦٠٠ عامل ، وقد أمدت الفلاحين والحطابين ورجال الحدود بأكثر من نصف مليون من هذه الآلات .

خلال السنوات التى ظل " ماكدونالد " فيها يوسع عملاً جديداً بعد آخر ، كان مسكنه الوحيد يخته " ميزباه " وكان هذا اليخت من مشاهد شيكاجو البارزة ، حين كان يرسو عند جسر شارع مشيجن فى الفترات الفاصلة بين رحلاته . وكان " ماكدونالد " فى رحله وترحاله فى البحار ، دائم الإتصال بمكتبه عن طريق الموجة القصيرة .

• • •

تزوج هذا الشاب الذى يملأ الأفواه والأسماع ، فى سنة ١٩٣١ . وبعد سبع سنوات أخترع " ماكدونالد " - وقد أصبح أباً تعنيه شئون أسرته - الآلة المعروفة بإسم " المربية اللاسلكية " - وهى ميكروفون يوضع بالقرب من مهد إبنته الصغيرة ، ويتصل بمكبر للصوت يمكن أن ينقل إلى أى مكان من اليخت ، فيستطيع كل إنسان ، حتى هو نفسه بأذنه الصماء ، أن يسمع كل صوت يصدر عن الطفلة .

وكان الإنتقال من " المربية اللاسلكية " إلى الجهاز الجديد الذى يسمع الصم به خطوة منطقية ، فسأل نفسه : إذا كان الناس يستطيعون أن يشتروا بعشرين دولاراً جهاز راديو يلتقط الموسيقى المذاعة من ألفى ميل ، فلماذا يجب أن يدفع الصم ثمانية أمثال هذا المبلغ نظير أداة مشابهة له ، تمكنهم من سماع إنسان آخر فى نفس الحجرة ؟ .

وإستقر عزمه على أن يستخدم أساليب الإنتاج الواسع النطاق التى خفضت ثمن أجهزة الراديو فى عشر سنوات من ١٧٥ دولاراً إلى ٢٩ دولاراً .

وبعد خمس سنوات من التجريب ، طلع مهندسو شركة " زينيث " على الناس فى أواخر سنة ١٩٤٣ بالجهاز الحديث المساعد على السماع ، وفيه آلة لضبط إرتفاع الصوت وميكروفون بلورى ، ومنظم أتوماتيكى للإستقبال ، ومصابيح لاسلكية صغيرة ، ودائرة كهربائية أدخلت عليها تحسينات لتطيل أمد بقاء البطاريات .

وهذا الجهاز يسهل ضبطه وتثبيته على الأذن . وقد صنع الجزء الذى يثبت على الأذن ، من مادة شفافة فى لون البشرة ، معرضاً عن اللون الأسود الذى يشى بأن صاحبه أصم يستعين بآلة على السماع .

وحين عرض الجهاز الجديد فى شيكاجو عجز خمسة عشر عارضاً بائعاً عن أن يجيبوا طلبات جميع الطالبين ، ولقد جربت أم شابة أحد هذه الأجهزة ثم أنفجرت باكية ، إذ إستطاعت أن تسمع لأول مرة ثرثرة طفلها . وجلس شاب إلى جانب جهاز للراديو فى دكان ، وأبى أن يغادره قبل أن تنتهى إذاعة إحدى السيمفونيات .

وقد إتبعت " زينيث " طرائق مستحدثة فى البيع ، فقلبت بيع أجهزة السماع رأساً على عقب ، وهى تتفق وأساليب " مكدونالد " فى إقدامه إقداماً لا يدخر فيه وسعاً على كل شئ يتولاه . وقد وجهت إعلاناته البارعة عناية القوم إلى مشكلات الصم ، وكان من إجراء حمله الجمهور على إدراك المشاق التى يعانيها الصم ، أن أضفى على الحاجة إلى أجهزة الإستماع سمة الإحترام ، فدنا الناس من الوقت الذى لا يحدث فيه جهاز السماع من الفضول أكثر مما تحدث النظارات الآن .

إن أفكار " مكدونالد " كانت عوناً لملايين الناس . وعماله مفتونون بحبه من أجل طريقته فى مقاسمتهم الأرباح ، ومكافآته السخية ، ولكنه لا يرضيه أن يوصف بأنه رجل محسن ، فهو رجل عمل ، ومغامر ولوع بالحياة ، لا ينضب إهتمامه بكل جديد ، ولا تنتهى حماسته لرفع مستوى الحياة .

شخصيات لا تنسى ..



(٢٦) إرنست رذرفورد

لم يكن يقصد تدمير العالم بإختراعه !

ولد " **إرنست رذرفورد** " فى عام ١٨٧١ فى نيوزيلندا ، وكان قد هاجر إليها مع جده " چورچ رذرفورد " الذى كان يعمل سائقاً للعربات فى إسكتلندا ، ليبدأ حياته من جديد . فقام ببناء طاحونة هواء فى إحدى الجزر القريبة من نيوزيلندا .

وكان " إرنست " منذ طفولته فتى خارق الذكاء ، متفوقاً فى الرياضيات والطبيعة والكيمياء ، وكثيراً ما حصل على جوائز مالية وميداليات التفوق .

تحدث أحد زملائه فى المدرسة عن سر ذلك فقال : **" إن أهم ما لفت نظرى هو قدرته الهائلة على دراسة الموضوع الذى يريد بحثه ، وقوة تركيز فكره مهما كان حوله من ضوضاء .. كنا أحياناً نسخر منه ، فنضربه على رأسه بكتاب ثم نهرب ، وهو لا يشعر بنا ، لأنه فى عالم آخر من البحث والتفكير " .**

وكان شغوفاً بالآلات الميكانيكية كغيره من التلاميذ الصغار . كان يصنع العجلات ويحاول الوقوف على سر حركة الساعة وآلاتها الدقيقة ، حتى لقد صنع بنفسه آلة فوتوغرافية كاملة .

وفى السابعة عشرة ، حصل " رذرفورد الصغير " على منحة مالية تشجيعية إلى جانب دراسة أربع سنوات فى الجامعة مجاناً حتى الدبلوم .

وفى السنوات العشر الأخيرة من القرن التاسع عشر ، وهى الأعوام التى رأى العالم فيها عدداً من الكشوف والإختراعات الهامة التى غيرت وجه العلوم والعالم ، سمع " رذرفورد " عن الموجات المغناطيسية الكهربائية التى كشف عنها " هيرتز " .

وصنع " رذرفورد " جهاز ذبذبة ووضعه فى معمل صغير أعده فى كهف مظلم بارد ، وبدأ العالم الشاب يبحث أولى المسائل التى شغلته ، وهى صنع

جهاز حساس يستطيع قياس أدق الموجات . ونجح فى صنع جهاز مغناطيسى يستطيع قياس موجات على بعد عشرين متراً .

ونشرت صحيفة علمية أولى تقاريره . وكم كانت دهشته عندما علم أن علماء كبار إهتموا بأبحاثه ، وهو الفتى النيوزيلندى الصغير . وحصل " إرنست " بعد ذلك على منحة علمية لإتمام دراسته وبحوثه فى جامعة كامبردج .

وإقترضت أسرته الفقيرة بعض النقود ، حتى تستطيع دفع نفقات السفر الطويل إلى إنجلترا . وإستقبله " ج . ج . تومسون " رئيس معهد الأبحاث فى كامبريدج فى خريف عام ١٨٩٥ . وإذا بالشاب الصغير يجد هناك أوسع الآفاق لبحوثه التى أخذ بها وسحرت لبه ، وخاصة الموجات المغناطيسية الكهربائية . وقد حمل معه من نيوزيلندا الجهاز الذى صنعه بنفسه والذى أخذ عنه " ماركونى " تصميم أجهزته اللاسلكية ، وإن إختلفت طريقة كل منهما .

إذ كان جهاز " رذرفورد " عبارة عن ساقين من المعدن وحزمة من أسلاك الصلب الرفيعة الممغنطة . فعندما تصل الإشارات اللاسلكية إلى جهازه تفقد الأسلاك مغناطيستها .

ونجح " رذرفورد " بجهازه فى الحصول على إشارات لاسلكية من مسافة ثمانمائة متر ، تمر خلالها عبر منازل وحواجز مختلفة . وقد هزت هذه التجربة الفذة مشاعر زملائه من علماء معهد " كافندش " ، ومعاهد الأبحاث الأخرى فى دول العالم أجمع ، وكذلك طلبته فى الجامعة .

ولم يمض على وجوده فى معامل " كافندش " أكثر من بضعة أشهر حتى ذاع خبر كشف " رونتجن " عن أشعته المجهولة . وبعث " تومسون " فى طلب الصور الفوتوغرافية الأولى التى أخذت بواسطة هذه الأشعة التى تصور ما خفى من باطن الأجسام والأشياء المغلقة .

وأخذ " ج . ج . تومسون " بمعاونة " رذرفورد " فى إعادة التجارب وتصويرها فى لذة وحماس . وكتب إلى أمه وإلى مخطوبته يقول :

" تصورى أنك تستطيعين بواسطة الأشعة المجهولة رؤية صور لعظام اليد والذراع . وطريقة صنع الجهاز اللازم غاية فى البساطة .. إنها أنبوبة زجاجية مفرغة من الهواء تمر فيها شرارة كهربائية ، فيظهر ضوء له لون أخضر

جميل ، وإذا طلينا قطعة من الورق المقوى بمادة كيماوية ، وجعلنا بينها وبين الأنبوبة حواجز من الخشب ، فإن ذلك لا يمنعنا من أن نرى على اللوحة صور الأشياء التى نريد رؤيتها ! " .

ومن باريس جاءهم خبر كشف " هنرى بيكريل " عن الإشعاع الذاتى لليورانيوم ، الذى فتح الطريق أمام تلميذته النابهة " مدام كورى " للكشف عن عنصر مشع آخر فى اليورانيوم هو الراديوم .

وأجرى " إرنست رذرفورد " على عنصر الراديوم الجديد مختلف أنواع التجارب ، ووصل إلى تلك النتيجة الرائعة ، وهى أن عنصر الراديوم المشع يخرج منه نوعان من الإشعاعات ، الأولى يمكن وقفها بواسطة حاجز من الورق المقوى ، والثانية تخترق ما تجده فى طريقها من حواجز إلى مسافة طويلة وهى أشعة قوية النفاذ جداً .

ولم تجد جامعة " ماكجيل " فى " مونتريال " أستاذاً لعلم الطبيعة أفضل من " رذرفورد " ، مع أنه كان لا يزال شاباً فى السابعة والعشرين . وكان لهذا المنصب أكبر الفضل فى دفع أبحاث " رذرفورد " إلى الأمام ، وكذلك الحصول على أعز أمانيه وهى الزواج من مخطوبته ، فأرسل إليها لتلحق به فى مونتريال بكندا .

وعندما بدأ محاضرته فى الجامعة ذهل عندما رأى عيون الطلبة تنظر إليه فى دهشة وإستفهام وكأنهم لا يفقهون شيئاً مما يلقيه عليهم ، فخشى أن يفشل فى التدريس بسبب ذكائه الخارق ، الذى جعل مستوى تفكيره أعلى من مستوى تفكير طلبته العلمى . فبدأ يعد محاضراته بطريقة أقل تعقيداً وأقرب إلى فهمهم .

أما فى معمل الأبحاث فقد وجد السعادة بأبحاثه عن الراديوم وإشعاعاته . وكان زملاؤه وطلبته معجبين به وببحوثه ، وإن كانوا لا يريدون أن يصدقوا ما حدثهم به عن هذه الإشعاعات ، وعن إمكانات إستغلالها بتحويلها إلى طاقة هائلة . **وكانت هذه أول مرة يعلن فيها أحد العلماء عن إمكان إستغلال الطاقة الناتجة عن تحطيم الذرة عن طريق إشعاعاتها .**

وكان يقول فى بعض الأحيان وهو يضحك : **" ربما أدى جنون أحد العلماء ، إذا أخطأ فى إستعمال هذا التفجر الذرى ، إلى إفناء كوكبنا الأرضى " ..**

إنها النبوءة التى يعيش العالم الآن فى ظل الخوف من أن تتحقق إذا نشبت حرب ذرية لا تُبقى ولا تذر .

وفى سنة ١٩٠٤ نشر أول كتاب له عن " الإشعاع الذرى " ، فذاع صيته فى ربوع العالم أجمع ، وطلب إليه الكثيرون من العلماء فى أقطار بعيدة أن يسمح لهم بزيارته . وكان بعضهم يعتبر تسلم خطاب أو بطاقة منه شرفاً عظيماً . وعاد إلى إنجلترا فى عام ١٩٠٧ ليتولى منصب أستاذ بجامعة مانشستر ، ومديراً لمعامل أبحاثها .

وفى هذه المعامل قام بتجاربه المشهورة . إذ إستطاع رؤية دقائق إشعاعات ألفا المنبعثة من الراديوم وهى تصطدم بجزئيات الغازات فتصدر عنها بقع ضوئية صغيرة تظهر على لوحة وضعت فى مكان مناسب لرؤيتها . كان " رذرفورد " يعرف الصورة الحقيقية لتكوين الذرة ، مع أنه لم يكن ليأمل أن يراها فى يوم من الايام لصغرها البالغ .

وهو الذى قال بإمكانية تحويل العناصر إلى بعضها . بل إن عملية التحويل هذه تحدث بين عناصر الطبيعة المختلفة بإستمرار . وقد أثار هذا القول إتهام البعض له بأنه يريد تقليد مُدعى العلم فى العصور الوسطى ، وهم الذين كانوا يدعون القدرة على تحويل الرصاص إلى ذهب ! .

وقد حصل " إرنست رذرفورد " على جائزة " نوبل " وهو بعد فى السابعة والثلاثين ، ولعل أعظم تقدير له ما قالته مدام كورى : **" إن رذرفورد هو الرجل الوحيد الذى يستطيع أن يؤدى للعالم الخدمات العظيمة بعد الكشف عن الراديوم . فلتتجه إليه جميع الأنظار ، لأن العالم يتوقع الوصول إلى كشوف بالغة الأهمية والخطورة " .**

وكان " رذرفورد " مثل " مدام كورى " مثالاً للبساطة والتواضع . فهو فى كتبه وأبحاثه ينسب كشوفه إلى زملائه ومعاونيه .

ولقد تنبأ " رذرفورد " بأن الذرة المتناهية الصغر ، تحمل فى داخلها طاقة هائلة ، فى الإمكان الحصول عليها ، إذا إستطعنا تحطيم نواة الذرة . وهو الذى قال إن تحطيم الذرة شئ معروف فى الطبيعة ويحدث فى كل لحظة .. كما فى حالة الراديوم والعناصر المشعة الأخرى .

وقد قام " نيلز بوهر " - أحد تلاميذ " رذرفورد " - بتصوير نظريات أستاذه فى رسوم ومعادلات رياضية . وخرج منها بالنظرية المشهورة : " نظرية رذرفورد - بوهر " وهى النظرية التى تقول إن الفرق بين الأيدروچين واليورانيوم أو بين الذهب والرصاص ، إختلاف بسيط فى وزن نواة الذرة ..

فنواة الذرة تتألف من بروتونات موجبة الشحنة ، وهى الجزء الأكبر من النواة وإلى جانبها نيترونات متعادلة الشحنة ، وأن عدد البروتونات فى نواة الذرة مساو دائماً لعدد الإلكترونات السالبة الشحنة ، التى تدور فى محاور حول النواة . ويمكن تحويل أى عنصر إلى عنصر آخر بتغيير عدد البرتونات ، فإذا أخرجنا : ثلاثة بروتونات موجبة من الرصاص ، خرجت معها من المحاور الخارجية ثلاثة إلكترونات . فيتحول الرصاص إلى ذهب ! .

وفى أعقاب الحرب العالمية الأولى ، عين مديراً لمعهد أبحاث " كافندش " ، وأستاذاً لعلم الطبيعة فى جامعة كامبردج ، مكان أستاذه العظيم " ج . ج . تومسون " . فقام بتجربته الخالدة لتحطيم الذرة ، وقام بإستنتاج لا يقل روعة عن تجربته : " إذا كانت الأجزاء الناتجة من تحطيم نواة الذرة قد عادت لتلتحم من جديد لتكون عنصراً جديداً ، فإن هناك جزءاً صغيراً أختفى تماماً ... " .

هذا الجزء قد تحول إلى طاقة . وهكذا أثبتت النظريات التى كان يحلم بتحقيقها عملياً هو وغيره من العلماء أمثال " إينشتين " ، وهو أن الكتلة قد تتحول إلى طاقة ...

وفى عام ١٩٣٧ مات " رذرفورد " من نوبة قلبية وهو فى السابعة والستين من عمره ... قبل أن يشهد إستغلال إكتشافه فى الحرب والتدمير خلال الحرب العالمية الثانية .

فقد كان " رذرفورد " يريد تحطيم الذرة من أجل العلم وسعادة العالم وخيره ، لا من أجل التدمير والهلاك .

(٢٧) ليو جينغ شن

خطاط بلا ذراعين !

* كلما قرأت هذه القصة أشعر بفضل الله علّى للنعم الكثيرة التى منحها لى ومنها الصحة والحركة ، وأدرك كم أنا مقصّر فى إستثمار هذه النعم فى خدمة الله وفى خدمة مجتمعي ... وكلما أصابنى الضيق أو اليأس ... أذكر بطل هذه القصة الواقعية ، فأتعلم منه قوة الإرادة ، وكيف يكون الصبر .. وكيف تتحقق الإنتصارات فى الحياة رغم الإعاقة .

نموذج من حياة المعوقين :

" **ليو جينغ شن** " .. عامل كهرباء فى مصنع للورق ، أصابه صاعق كهربائى عالى الجهد سنة ١٩٧٨ . غاب عن الوعى مدة أسبوع ، أدرك بعده أنه قد فقد ذراعيه . فأصبح فى حال يرثى لها . . ولكنه لم يستسلم بل تغلب على الأزمة التى ألمت به وتجاوزها حتى أصبح اليوم فى عداد المشهورين بين المعوقين الشباب بعاصمة الصين : بكين .

إنتخب عضواً بمجلس الشعب نيابة عن الحى الذى يقيم فيه ، وهو إلى جانب ذلك نائب الرئيس لجمعية المعوقين ببكين ، وأيضاً مدير جمعية المعوقين الشعبية للرسم والخط ببكين .

لم تكن إستعادته لنفسه ولقواه أمراً سهلاً . كانت قد راودته فكرة الإنتحار يأساً من الحياة بعد الحادثة . قال :

" كنت فى السادسة والعشرين من عمرى نابضاً بحيوية الشباب . وفى

غمضة عين أصبحت فى عداد المعوقين . لم يخطر على بالى أبداً بأننى سأستطيع أن أدبر أمورى بنفسى " .

ثم نبذ فكرة الإنتحار فى ذهنه . . وبعد شهرين من مغادرته للمستشفى ، شرع يتدرب بنفسه . أحس بأنه لو يستطيع أن يمسك بالقلم ، فمن الممكن أن يجد عملاً . فأخذ يضع القلم فى فمه وحاول الكتابة . كان التوازن عسيراً من غير ذراعين . ثم حدث أن جاءه صديق ومعه نصيحة بأن يشد على كتفه وثاقاً ثم يثبت القلم فى فمه . . وأخذ يتدرب بلا إنقطاع .

ولما توفق فى إستخدام قلم الحبر تمرن على إستخدام فرشاة الخط . وقال أحد العمال - الذى تكفل برعايته فى ذلك الحين - بأنه تدرب كثيراً حتى أن الحيز الذى تحت سريره قد امتلأ بقصاصات الورق التى تدرب على الكتابة فيها .

وفى الوقت نفسه درّب نفسه وعوّدها على الحالة التى هو فيها .. تعلم كيف يقرأ الروايات - يقلب الصفحات مستخدماً قدميه ، وفى غضون عام أصبح خطاطاً قديراً .. كلمات واضحة وخط واضح منتظم . وفى الأيام الأخيرة أصبح مهتماً بالرسم بالحبر الصينى .

ويعمل " ليو " أمين مكتبة فى مصنع الورق الخامس ببكين . وقال : **" لا أستطيع أن أحضر الكتب من الرفوف ولكن لى قدمين وعينين ومخاً مثل أى إنسان سليم آخر . "**

وبهذا بدأ فى عمله بين الرفوف ليعرف موقع كل كتاب ليسهل إخبار المستعيرين بعد ذلك . وقال : **" إنه ليصعب تذكر موضع آلاف المجلدات . أحياناً أكون غير متأكد ولكن المستعيرين يقدمون مساعدة جليلة " .**

كانت قصة نجاح " ليو " إلهاماً للمعوقين الآخرين . . أصبح بيته ملتقى ، يناقشون هناك مشكلات مشابهة ، ويتوصلون إلى حلول مشابهة . وكثيراً ما يأتى إليه الآخرون يطلبون منه النصيحة ، وهو بدوره دائماً يقدم العون للآخرين فى حل مشكلاتهم .

ليست هذه هى الناحية الوحيدة التى وجد فيها المعوقون الإلهام ، وإنما أيضاً فيما هو فيه من حياة سعيدة . كتب إليه معوقون : **" عندما عزمنا أن نزورك كان ما أردناه أن نعرف بأنفسنا كيف قدرت على العمل . لم نكن نتوقع أنك ترفل فى الهناء والسعادة " .**

فى البداية . . لم يخطر على بال " ليو " أن يعيش حياة عادية . وعندما ألمح رئيس نقابة العمال فى المصنع إلى أنهم يحبون أن يساعدوه فى إيجاد من يساعده ويملأ عليه حياته . . رفض هذا العرض فى أدب ، ظاناً أنه لن يكون إلا عبئاً على الزوجة .

ولكن نمت الثقة لديه . . جرأته ومقدرته إستحوذتا على إعجاب الآخرين به . إن " **ماو دا هوا** " قد أحبت هذا الإنسان الذى صمم على النجاح .. تزوجا وأنجبا ولداً – " ليو شو " .

" ماو دا هوا " تساعد " ليو " فى التغلب على ما يواجهه من عقبات يومية ، كما تشجعه على تنمية إهتماماته . تحضر له الكتب والصحف والمجلات . ومع أن تحصيلها التعليمى ليس إلا فى مستوى التعليم الابتدائى ، إلا أنها إستمعت إلى محاضرات جامعية لمدة سنة وسجلتها لزوجها .

ولما صار " ليو " يشتهر بخطوطه تعلمت كيف ترتب أعماله وتعرضها توفيراً للنفقات . ودائماً ما تصطحبه إلى المعارض الفنية لمشاطرته فى إهتماماته ، وتعلم فنون جديدة فى الترتيب والعرض ..

وتعلم " ليو " كيف يغسل قدميه ويمشط شعره وكيف يتناول الطعام ويقوم بأعمال أخرى تخفيفاً عن زوجته التى ترعاه وتهتم بإبنهما علاوة على والديها . ومما يقوله الإبن الذى يذهب إلى دار الحضانة : " عندما أكبر سأفكر فى إختراع حمام آلى كى يسهل على والدى الإستحمام .. " .

(بقلم : تشنغ شوتشى)

عن مجلة : الإخاء الصينى

(٢٨) جين كوروت

الرجل الذى عرف الطريق إلى : السلام الداخلى

لم يكن فى مقدور الرجل العجوز أن يدفع إيجار منزله طيلة عدة شهور خلت ، بل لم يكن فى إستطاعته أن يكسب قوته منذ أمد غير قصير ، كان بصره آخذاً فى الزوال ، وهدده المالك بطرده من المنزل ، ولكن الرسام " **كوروت** " إذ وصل إلى سمعه ما وصل إليه ذلك الرجل الفقير من سوء الحال . وضنك العيش ، راح يشترى له المنزل ويعطيه إياه ...

كان فى إستطاعة " **كوروت** " أن يبتاع منزلاً لرجل آخر .. فقد كان واحداً من فنانى القرن التاسع عشر المشهورين فى فرنسا .. وكانت لوحاته التى تمثل الريف فى شروق الشمس أو غروبها تباع بأسعار باهظة لمحبى الفن فى جميع أنحاء العالم .

وأكثر من ذلك تعلم " كوروت " الكثير فى أيام شبابه التى لم يضيعها سدى ، والتى كانت تكلفه قليلاً .. تعلم كيف يعيش سعيداً بجنيه واحد فى اليوم ، وعلى الرغم من أنه كان يكسب كثيراً إلا أنه لم يزد من حاجاته ، كان يؤثر أن يستخدم ماله لمساعدة الآخرين .

وكان ما يسعده هو أن يزيد ساعات العمل الطوال ، كان يستيقظ مبكراً قبل أن تبزغ الشمس ، ثم يحتسى فنجاناً من القهوة ويضع حقيبته على كتفه ويأخذ طريقه فى الظلام الدامس خلال الحقول والغابات ، حتى يصل إلى البقعة التى يقع عليها إختياره ، وهناك يقيم مرسمه وينشر خيمته ، وينتظر فى لهفة وشغف أعجوبة القدر ، الفجر الباسم ، وهو يبدد ظلمة الليل ..

ويظل يعمل فى لوحته ساعات طوالاً . فإذا صادفه الحظ ، وسار كل شئ على ما يرام ، أتم لوحته فى جلسة واحدة .

وكانت لوحاته تمثل مناظر الغابات والحقول ، تمثل مساحات شاسعة هادئة تظللها ألوان فضية ساحرة للفجر الجميل ، أو ألوان مخضبة بحمرة الشفق الساحر الخلاب وهكذا كانت لوحاته كلها سحراً وخيالاً ، إستحق مديحاً وثناء من النقاد الفنيين ، وإستحق تقديراً وإعجاباً من جمهور النظارة .

وأحياناً كان " كوروت " يضيف إلى لوحاته بعض الشخصيات ، كإمرأة مثلاً أو بعض أولاد الفلاحين ، وهم يسيرون بين الضباب أو ثوراً من تلك التى تستخدم فى جر العربات ، أو رجلاً من هؤلاء الذين يعملون فى القوارب .

كما كان يستبدل بتلك المناظر مناظر تقليدية مبسطة فيها سحر وخيال ، فيدخل فيها بعض آلهات الجمال ، أو بعض المخلوقات التى تجمع بين البشرية والحيوانية .. ولم تكن هذه الشخصيات التى مثلها فى لوحاته أكثر من تفصيلات معبرة جعلتها تكتسب شهرة عالمية ، لما كانت تحويه من طبيعة خلابة .

وكان الرجل نفسه هادئاً كهدوء لوحاته التى رسمها ، متوسط القامة يميل وجهه إلى الحمرة ، له خصلة من الشعر الأشقر ، وكان يرتدى بنطلوناً قطنياً خشن الملمس ، وكانت له عينان زرقاوان تميزان وجهه فى وضوح .

• • •

ولد " **جين بابتيست كاميل كوروت** " من أبوين مكافحين . كانت أمه مصممة أزياء فى باريس ، وكان أبوه يعمل فى إدارة محل زوجته ... ومضى عملهما فى نجاح مطرد .

وعندما كان إبنهما فى الحادية والعشرين من عمره كان فى إستطاعتهما أن يبتاعا منزلاً صغيراً حوله قطعة أرض كبيرة على حافة البحيرة الصغيرة بضاحية باريس وإستطاع هذا الجو الريفى أن يؤثر تأثيراً فعالاً فى " كوروت " الصغير فقد إستطاع أن يتأمل طويلاً فى الأشجار المتناثرة ، فى حقول العشب ذات الورود ، وفى الرياض المنبسطة ، وفى تلك الأشجار العالية التى تدلت أغصانها فى البحيرة .

وأخذ أبواه يدربانه على أن يكون من رجال الأعمال ، ولكنه كان يميل للفن . فاضطرا آخر الأمر أن يعطياه فى كل عام منحة قدرها ٣٠٠ دولار سنوياً ليستطيع أن ينمى مواهبة وميوله من الناحية التى أرادها لنفسه .

ولم يشعر قط أن هذا المبلغ كان ضئيلاً ، حتى أصبح فى الخمسين من عمره ، وإذ كان يتحلى بمرتبة الشرف ، قال له والده :

" ... إنك الآن وأنت تتحلى بهذا الشريط الأحمر ، عليك أن تبدو أكثر لياقة وأحسن مظهراً .. " .

وكانت له هوايته الخاصة ، ولكنها ظلت مجهولة للعالم أجمع ، فقد كان يهوى رسم النساء الحسناوات الجميلات ، ولم يكن غرضه من ذلك مجرد اللهو والعبث أو إرضاء نزواته الخاصة وإنما كان " كوروت " يبغى من وراء ذلك أن يخلد لهن ذلك الجمال الطبيعى الخلاب .

وبقى " كوروت " عزباً دون زواج ، وعندما كان والده يحثه على ترك حياته البوهيمية ليتزوج ، قال له :

" .. إننى لست وحدى يا أبتاه .. فمعى دائماً من يملأ علىّ حياتى ، فأنا أصلى وأتعبد لله خالقى ، ومُلهمى وصاحب المواهب والعواطف التى منحها لى .. إن إبتهالاتى له تؤنس وحشتى ، وتملأ قلبى بالسلام والطمأنينة " .

وكانت له فضيلة أخرى هى الإحسان .. ولم يقتصر إحسانه على شرائه منزلاً للرجل العجوز الذى كاد يفقد بصره ، والفنان الشهير " هونريه دوامير " ، بل أنه حدث عندما توفى " چين فرانسواز ميلليت " الفنان العظيم دون أن يترك من ورائه شيئاً ، أن أرسل " كوروت " لأرملته ١٠٠٠٠ فرنك ..

وكان يقول إن الإحسان يجلب له الرزق الوفير مكافأة من الله .. وقال :

" أعطيت ذات يوم زميلاً فقيراً ٢٠٠ دولار ، وحدث أن اللوحة التى رسمتها فى ذلك اليوم كانت فى منتهى الروعة وبيعت بمبلغ ١٢٠٠ دولار .. وهذا هو الطريق الذى أسير فيه دائماً ، أجيد الرسم بقلب ملئ بروح إيجابية نحو الله والناس " .

سألته متسولة متأنقة الملبس أن يعطيها ٢٠٠ دولار ، وإنتظرته أمام بابه فى عربة تاكسى ، وخرج " كوروت " ومعه قبضة كبيرة من أوراق البنكنوت ، وأمر بإعطائها لها .. ولما عارضه صديقه فى ذلك قال له :

" .. إن أقسى ألوان البؤس هو ذلك الذى يتحلى بالحرير .. " .

وكـان " كـوروت " يميل إلـى التواضـع فـى كل شـئ .. فقد كـان منزلـه مزوداً بأثاث متواضع ، وحدث ذات مرة أن أقيمت حفلة غداء تكريماً له ووضـعت أمامـه ألذ قطـعة مـن لحـم الدجاجـة ، ولكنـه فـى خفـة أعطاها لمن كـان يجلس بجانبـه .. وعندما عارضه فى ذلك رافضاً أخذها ، قال له :

" .. إننى آخذ دائماً عصا الطبلة .. أى رقبة الدجاجة " .

وكـان " كـوروت " يحظـى بـإحترام كبيـر . مـنح ميداليـة ذهبيـة تقـديراً لفنـه وعظمته فى الحفل الفنى الرائع الذى أقيم له فى باريس .. وعندما وقف ليرد على هذا التكـريم قـال فـى تواضـعه المعـروف : **" .. إنـه لمـن العجـب حقـاً أن أكـون محبوباً هكذا .. "** .

ورحل " كوروت " إلـى الـدار الآخرة فـى عـام ١٨٧٥ ، ولـه مـن العمر ٧٩ عاماً قضاها فـى أمـن وسـلام مـع نفسه ومـع العالم الـذى عـاش فيـه ، فلـم تفسد عليه ثروتـه وثراؤه حياتـه الغاليـة .. وتعد هذه الظـاهرة نـادرة بيـن الـذين إحتوتـهم الشـهرة بين ذراعيـها وأفسدت عليـهم حياتـهم .. ! .

(بقلم : مالكولم فوخان)

(٢٩) وليم سامبل

فارس الأحلام

" أخلص هذا الرجل لمئات الأطفال المرضى ، فحول أحلامهم إلى حقيقة " .

طوال السنوات الست الأخيرة ، كان ضابط الشرطة " **وليم سامبل** " (٤٠ سنة) متولياً للشئون الأمنية فى مستشفى " سان كريستوفر " للأطفال فى فيلادلفيا (ولاية بنسلفانيا الأمريكية) . وكان بين المرضى عدد كبير من ذوى الإصابات المزمنة أو الأمراض الخبيثة . وبينهم من يعانى من السرطان وتليف المثانة وإلتهاب الكلية . وبحكم وظيفته تعرَّف " سامبل " على العديد من المرضى وذويهم ، وعرف عن كثب مشكلاتهم المالية والنفسية . وكان يتمنى على الدوام أن يستطيع شيئاً لتخفيف عذابهم .

وذات مساء من شهر تشرين أول (أكتوبر) من عام ١٩٧٦ ، طرأت على ذهنه فكرة كالأحلام . وقال لخطيبته " إيلين " التى كانت تعمل فى إدارة المستشفى : " **لابد من أن يكون لكل من هؤلاء الأطفال أمنية . وغنى عن القول أنى لا أملك إبراءهم جسدياً . ولكن ربما أمكننى مساعدتهم فى تحقيق أحلامهم** " .

وتأملت " إيلين " فى الأمر ثم قالت : " **دعنا نباشر تنفيذ فكرتك** " . وللحال توليا دعوة تسعة أشخاص ، من رجال ونساء يهتمون كثيراً بالأطفال ، إلى إجتماع . وسرعان ما إنتقلت حماسة " وليم " كالعدوى إلى الآخرين . وأقترح أحدهم إطلاق إسم " **نور الشمس** " على المشروع ، " **لأنه سوف يحمل قبساً من النور إلى حياة كل من أولئك الأطفال** " . وصَفقَ الجميع موافقة على الإقتراح .

وقال وليم : " **حسناً ، إذاً ! لتكن مؤسسة نور الشمس** " .

فى كانون الثانى (يناير) ١٩٧٧ أطلقت المؤسسة شعاعها الأول عندما وجد ذلك الضابط المرح المستدير الوجه طفلاً فى الخامسة إسمه " بوبى " جالساً مع والديه فى غرفة الإنتظار فى مستشفى سان كريستوفر . وكان الطفل يصارع سرطان الدم . وسأله " وليم " عما يَودَ تحقيقه ، فقال إنه لا يدرى . لكن ممرضة كانت قد أخبرت الضابط أن " بوبى " يتشوق إلى اللعب على الثلج .

وسأله : **" ما رأيك فى تمضية نهاية الأسبوع فى فندق جبلى وسط الثلوج ؟ عندئذ سيرافقك أفراد العائلة كلهم : أختك وأخوك ووالداك ... ماذا تقول ؟ "** . وهزّ " بوبى " رأسه . ونظر " وليم " إلى الأب والأم اللذين هزّا رأسيهما أيضاً إيجاباً . غير أنه قرأ علامات الشك فى نظراتهم جميعاً .

فى تلك الأثناء لم يكن لدى المؤسسة فلس واحد . وهكذا أرسل " وليم " حوالة من حسابه الخاص إلى المنتجع الشتوى لتغطية نفقات إقامة " بوبى " وأفراد عائلته . وقرر " وليم وإيلين " وبعض أنصار الجمعية مرافقة العائلة . ويقول وليم : **" لم يكن ذلك بدافع التدخل فى شؤونهم الخاصة ، وإنما شئنا إختبار صحة أفكارنا . أتكون المؤسسة ذات فائدة حقّة ؟ "** .

وجاءت النتيجة كالمتوقع . ويتذكر " وليم " أن " بوبى ركب عربة الثلج والمزلقة وأنه إرتفع عالياً فوق الثلج . وقال أبوه إنه أظهر نشاطاً لم يُظهره خلال سنة كاملة . وجعله الإستمتاع بتحقيق أمنيته ينسى ألمه . ولازمه ذلك الشعور البهيج أياماً ، مُدخلاً الفرح إلى قلوب ذويه أيضاً " .

وبعد أيام تلقى " وليم " مخابرة من والدة الصبى التى قالت : **" إننا لن ننسى تلك العطلة ، لن ننسى ما فعلته من أجل بوبى ، لن ننساك "** .

ذلك الحادث كان نقطة إنعطاف فى حياة " وليم سامبل " . إلا أن تحقيق الأحلام لا يتم بدون مال . ولم يكن لدى المؤسسة فكرة لجمع المال اللازم .

وفى أيار (مايو) ١٩٧٧ كان " وليم " قد إستدان ٤٥٠٠ دولار لحساب " نور الشمس " وبدأ ، وهو المتفائل العنيد ، يخشى أفول حلمه .

ثم ، فى ذروة يأسه ، أتاه بعض أمل حين أشار معلق صحافى محلى إلى المشروع وأخذ " وليم " نفسه يشارك فى برنامج إذاعى محلى . وأدّى ذلك إلى وصول بعض الهبات لحساب المشروع . ومع حلول العام ١٩٧٨ ، أصبح لدى

" نـور الـشمس " نحـو ثلاثـين متطوعـاً . وإنطلـق هـؤلاء يبيعـون كتـب الطـبخ ، وقوالب الحلوى ، ويقيمون الحفلات الخيرية لجمع المال .

وجمعوا مقداراً من المال مكّن " وليم " من إستئجار بيت قرب الشاطئ . فـى ذلك الصيف ، أمضت عشر عـائلات أسبوعاً علـى الشاطئ . وللمـرة الأولـى فـى حيـاتهم ، تمكن بعض الأطفـال المرضـى من اللعب علـى الرمـل والجلـوس علـى حافة الماء حيث تتكسر الأمواج .

وفى العام نفسه تسلمت المؤسسة ٢٥ ألف دولار هى الدفعة السنوية الأولى من ثـلاث دفعـات خصـصتها لهـا سلطات ولايـة بنـسلفانيا . ووجـد " ولـيم " فـى ذلـك تـشجيعاً كبيـراً دفعـه إلـى تكليـف عـدد مـن مـوظفى المستـشفى بإكتـشاف أمنيـات الأطفال المرضـى ، كما كتب رسائل إلى مستشفيات الأطفـال فـى المدن الأمريكيـة الرئيسية ، للغاية عينها . وجاءتـه الأجوبـة منهـا جميعاً ، ومـا لبثت تأتيـه منذ ذلك الحين .

فمن طفلة فـى ولايـة أوريغون تريد جواد سباق ، إلـى طفـل فـى إيلينـوى يحلـم بركوب سفينة تعبر به نـهر المسيسيبى ، إلـى فتـاة فـى إنديانا تـوّد أن تلمـس بيديها شجر الصنوبر فى كاليفورنيا .

لـم تخيِّـب المؤسـسة أيـاً مـن سـائليها . وهنـاك فتـاة مـن أوكلاهومـا عبّـرت عـن رغبتها فى زيارة أنسباء لها فى كاليفورنيا ، لكن المرض أشتد عليها ، ومنعها من الـسفر . وهكذا جاءتهـا المؤسـسة بأقربائهـا . وفـى نيـوجرزى طفـل مقيَّـد بكرسـيه النقال وهو لا يقوى على الكلام . وقد أرسلت إليـه المؤسسة جهـازاً إلكترونيـاً بـات يستخدمه بقصد " التحدث " مع أفراد عائلته .

وأحيانـاً يتعـاون جيـران الطفـل المـريض ، علـى تلبيـة نـداء " نـور الـشمس " . ومرة كتب والدان من غرب ڤرچينيا أن طفلتهما المصابة بسرطان الدم والتى تنـام معهما فى غرفة واحدة ، تحلم بغرفة خاصة . وتولت المؤسسة إرسال مـواد البنـاء عبر شركة محلية . وبعد ذلك هبّ الأصدقاء والجيران يساعدون والـد الفتـاة علـى بناء الغرفة الإضافية .

وهنـاك العديد من الأهل الذين يترددون فـى طلـب المساعدة إمـا لكبريـائهم وإمـا لشكهم فى إستجابة المؤسسة لهم . لكن " نـور الشمس " فـى حـالات كهذه تجمع

المعلومات عن طريق معارف العائلة المعنية وتمد يد المساعدة فى الحال .

وهذا ما حصل بالنسبة للفتى سام البالغ الثالثة عشرة ، والمصاب بمرض خبيث نادر فى عموده الفقرى . فقد تلقت المؤسسة رسالة من صديق للعائلة يصف فيها حال سام ويقول إن أمنيته الكبرى ، هى حضور مباراة كرة القدم للعام ١٩٨٢ فى بلدة بونتياك من أعمال ميشيغان . وخابرت المؤسسة العائلة وقالت لوالدة سام إنها ستحقق أمنية إبنها . وردت هذه متعجبة : " **أكاد لا أصدق ما أسمع** " .

كان ذلك فى أواخر كانون أول (ديسمبر) ١٩٨٢ ، وموعد المباراة الرابع والعشرون من الشهر التالى . وكانت البطاقات قد نفدت كلها . لكن " نور الشمس " إتصلت بنادى " النسور " الرياضى فى فيلادلفيا وطلبت خمس بطاقات من مخصصات أعضاء النادى . وكانت الموافقة فورية .

وعندما أخبر سام بالأمر قال وهو يبكى فرحاً : " **أحقاً أنى ذاهب ؟ ، إنى لا أصدق ذلك** " . وأذهلته المباراة وغمره فرح لا يوصف إذ أهدى إليه قائد الفريق الفائز رسماً ممهوراً بتوقيعه . وكتب والداه إلى المؤسسة يقولان : " **الكلمات تخون المرء وهو يريد أن يشكر أحداً على محبة وعطف يفوقان التقدير** " .

أحياناً يطلب الأطباء مساعدة " نور الشمس " . ومن هذا القبيل ما كتبه طبيب من أوهايو حول مريض لديه فى الثانية عشرة إسمه غارى ، يعانى من داء خلقى فى القلب : " **إنه مريض منذ ولادته ، وأشك فى أنه سيعمر سنة منذ الآن . وهو حالياً لا يستطيع السير خمسين متراً من غير أن يشعر بالإرهاق وإنقطاع النفس . وكسائر الأطفال ، يحلم بالذهاب إلى " عالم ديزنى " فى فلوريدا . إلاّ أن أبويه عاجزان عن تأمين المبلغ اللازم لذلك** " .

وأمّنت المؤسسة إرسال غارى إلى حيث يريد ، وهكذا حوّلت حلماً آخر إلى حقيقة . وبعد عودة العائلة من " عالم ديزنى " كتب الطبيب إلى المؤسسة مرة أخرى : " **لقد حدثت معجزة حقة ، لا يمكننى تفسيرها طبياً . ذلك أن حال غارى الصحية تحسنت كثيراً ، وإستطاع المشى بسهولة خلال الأيام الخمسة التى أمضاها هناك . وكان يتنفس بلا مشقة طوال الوقت . وليس فى إمكانى عزو ذلك إلاّ إلى المناخ . وإن والد غارى يفكر جدياً فى العودة إلى فلوريدا للبحث عن عمل هناك . وهذا مثل واحد يدل على أن مؤسستكم أمكنها أن تطيل عمر**

طفل وتحقق أمنية غالية لديه " . والواقع أن عائلة غارى إنتقلت إلى فلوريدا حيث لاءمه المناخ جسدياً ونفسياً .

إن مؤسسة " نور الشمس " تعتبر جميع الطلبات التى تتلقاها ملحة . ولقد توفى عدد من الأطفال قبل تحقيق أحلامهم ، وآخرون بعيد تحقيقها .

وفى تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩٨١ كتبت أم عن إبنها ذى السنوات الأربع عشرة الذى دعته المؤسسة إلى فلوريدا قبل عام : **" إن قلبى ينعصر وأنا أقول لكم إن ولدى بريان صرعه المرض فى الثانى من تشرين الأول (أكتوبر) . وإنى أرسل إليكم حوالة بقيمة خمسين دولاراً . والمبلغ جمعه بريان نفسه ببيعه سلعاً منزلية قديمة . وهو شاء أن يعود المبلغ إليكم لأنكم حققتم أهم حلم فى حياته . وهذا لا يقتصر على الذهاب إلى فلوريدا ، بل يتعدى ذلك إلى تكوين نظرة جديدة عن الناس الذين يبذلون ذواتهم من غير منة . وهو لم ينفك يتكلم عنكم وعن رحلته تلك " .**

لقد حققت المؤسسة أكثر من ٦٠٠ أمنية . ونما مقرها ليغدو ثلاث غرف فوق مخزن للأوانى الخزفية فى فلوريدا ، بعدما كان مقتصراً على حقيبة يد " وليم سامبل " . هناك تعمل أربع شابات متطوعات ، فيجرين الترتيبات اللازمة لتحقيق أحلام الأطفال المرضى . كما يُرسِلن ، عند الطلب ، إستمارة إلى أهل الطفل المريض تقتضى الإجابة عن أسئلة متعلقة بالوضع العائلى . ولدى تسلم الإستمارة مع الأجوبة ، يتم الإتصال بطبيب الطفل لإرسال تقرير يتناول تشخيص المرض وتقدير الحال الصحية ، ومع ذكر معوقات السفر فى حال وجودها .

وليس بين أنصار المؤسسة أثرياء أو شركات . كما أن " وليم " لم يترك عمله كضابط أمن فى المستشفى . وعلى رغم أن سنوات الخدمة تتيح له التقاعد ، إلا أنه مازال يعول على راتبه . وهو يقول : **" مؤسستنا فى أول عهدها . وكثيراً ما وقفنا مرتبكين لعدم وجود المال لدينا لتحقيق أمنية طفل أو طفلة ، إلا أن البريد كان يحمل إلينا ، فى اليوم التالى أو اليوم الذى بعده ، ما نحتاج إليه من مال " .**

ويضيف وقد إستحال صوته الهادر همساً : **" أحياناً يُخيل إلىَّ أن الأطفال الذين حققنا أحلامهم قبل أن يموتوا ينظرون إلينا من فوق كيما نستطيع تحقيق أحلام الآخرين " .**

(بقلم : جوزيف بلانك)



(٣٠) إليزابيث جاريت

عنـاد إمرأة !

أسرعت الأم إلى غرفتها مهرولة والغضب يحتويها ، وألقت بنفسها على الفراش وبكت .. كانت تبكى بحرقة والدموع تسيل من عينيها ساخنة غزيرة .. وكانت تهمهم : **" ليزى .. سوف يقتلنى العار الذى جلبته لأسرتك ! "** .

أما الأب فكان صوته أشبه بعاصفة رعدية ، تجلجل فى البيت حتى كادت الجدران تهتز له : **" إبنتى تسلك هذا المسلك المذل المهين ! يا للهول ! "** .

وأما الإبنة سبب هذه الثورة العارمة التى هزت كيان الأسرة هزاً ، فقد كانت تقف هادئة شامخة بأنفها فى غرفة المكتب ، وكأن شيئاً من هذا الذى يحدث أمامها ومن حولها لا يعنيها فى قليل أو كثير .

كان إسمها **" إليزابيث جاريت "** ، وكانت وقتها فى الرابعة والعشرين من عمرها ، فتاة جادة رشيقة القوام تتميز بتقاطيع حادة ، وربما كان الشئ الوحيد الذى لم يكن يبدو طبيعياً فى وجهها فى تلك اللحظة هو شفتها السفلى التى إمتدت إلى الأمام فى حركة لا إرادية ، وقد بقيت تلازمها طول حياتها وأصبحت علامة مميزة لها فى تاريخها الحافل الجرئ كلما وقفت تفكر وتتأمل . ولم تكن " إليزابيث " تقف ساكنة .. كانت تتكلم وكأنها تهمس ، وتكرر نفس العبارة التى رأى فيها والداها " كفرا ما بعده كفر " : **" أريد أن أدرس الطب يا أبى .. أريد أن أصبح طبيبة ! "** .

كانت " إليزابيث " تعيش فى عام ١٨٦٠ فى بريطانيا عندما إختارت هذه المهنة التى كان مجرد التفكير فيها بالنسبة للمرأة خطيئة لا تغتفر ! . فقد كانت المرأة تعيش فى عالم الرجل وحده .. لا مكان لها خارج جدران البيت الذى يحتويها مع أسرتها الكبيرة أو الصغيرة .. الزوج والأبناء هم دنياها التى تعيش لها ومن أجلها .

وكانت الفتاة تعلم بين ما تعلم أنها بإصرارها على دراسة الطب ، قد أشعلت ثورة .. فقد كانت المرأة الوحيدة التى سبقتها إلى هذا الميدان الذى يصول فيه الرجل ويجول ، هى " إليزابيث بلاكويل " ، وكانت أمريكية ، وكانت أول إمرأة تعمل بالطب فى العالم .. وقد إفتتحت مستوصفاً صغيراً فى أحد الأحياء الفقيرة بمدينة نيويورك ، لعلاج المهاجرين الجدد وتوزيع الدواء عليهم بالمجان .. وقد كان لقاؤها بها فى بلدها ببريطانيا عندما جاءت الطبيبة الأمريكية لتتحدث إلى المرأة الإنجليزية وتحاضر فى " الطب كمهنة للمرأة " بعد النجاح الذى حققته " فلورنس نايتنجيل " ، التى حملت المصباح وأضاءت به الطريق أمام كل إمرأة تريد أن تشارك فى هذه الرسالة الإنسانية النبيلة .. وكانت " فلورنس " حديث أوروبا كلها فى تلك الحقبة من الزمن .

• • •

وبدت الفتاة وكأنها وجدت ما كانت تبحث عنه لإقناع والدها الثرى الثائر الحانق :

" إذا كانت المرأة قد نجحت يا أبى فى التمريض ، فلماذا لا تنجح فى العلاج والتطبيب . لماذا تبقى دائماً فى الصفوف الخلفية .. كان يجب أن تكون فخوراً لأن إبنتك تريد أن تتخطى الحواجز وتقف فى الصفوف الأولى حيث وقف الرجل وحده دون منافس على مدى قرون طويلة وكأنه يملك الأرض وما عليها ! " .

ولم يكن ممكناً أمام هذا العناد والإصرار ، إلا أن يقتنع الأب ، وأكثر من ذلك ، فقد وعدها بأن يفعل كل ما فى وسعه لمساندتها فى كل خطوة على طول الطريق الذى كانت بالفعل قد بدأت تسير فيه وبخطى ثابتة هادئة بلا تردد .

ولكن العوائق ما لبثت أن قامت فى طريقها من جديد .. وكانت فى هذه المرة من خارج البيت .. لقد زرعها كبار رجال الطب فى " هارلى ستريت " ، وفى إجماع غريب وقفوا جميعاً يرمقون هذه الفتاة " الشاذة " بنظرات مليئة بالسخرية ، عندما ذهبت إليهم بصحبة أبيها تسألهم الرأى والمشورة :

" ماذا تقولين يا سيدتى الصغيرة .. ليس هناك إمرأة واحدة تستطيع أن تحتمل منظر الدماء والرعب فى غرفة العمليات .. ليس هناك كلية للطب تقبل إدراج اسمك ضمن الطلبة الدارسين .. ليس هناك لجنة تقبل جلوس إمرأة وسط الممتحنين ! " .

وأسقط فى يدها .. لقد فشلت قبل أن تبدأ ! ، ولكنها لم تستسلم فقد أصرت فى عناد على المضى فى الطريق وإقتلاع كل ما يصادفها من أشواك ! . ومن خلال بعض الأصدقاء ، إستطاعت أخيراً أن تقابل أحد الرجال الذين وعدوا بمساعدتها .. وكان مديراً لمستشفى " ميدل سكس " .. وقال الرجل وهو يرمقها بنظرة فاحصة لا تخلو من التحدى : **" كل الذى أستطيع أن أفعله الآن هو أن أوصى بقبولك فى مدرسة الممرضات لمدة ستة أشهر .. هذه الفترة سوف تعطيك فرصة لإكتشاف نفسك وإكتشاف مدى تحملك لقسوة هذه المهنة " .**

وأحست بنافذة صغيرة تفتح أمامها وسط تلك الأبواب المغلقة من حولها ، وإلتحقت " إليزابيث " بمدرسة التمريض ، وبعد شهر من إلتحاقها كانت تقف ولأول مرة فى غرفة العمليات أو غرفة " التعذيب " كما كانوا يسمونها .. كان المريض يستلقى على ظهره فوق المائدة وعيناه مفتوحتان ، ودخل الجراح فى معطف قذر إمتلأ بآثار دماء بشرية جافة إنتقلت إليه من عمليات أخرى سابقة .. الإبر والخيوط تتدلى فى إهمال من صدر المعطف .. وبدأ الجراح يقطع ، وصرخ المريض وتلوى من الألم .

فلم يكونوا قد إكتشفوا المخدر ، ولا حتى أى شئ يخفف من عملية التمزيق والتقطيع فى الجسد المريض .. وصاحبه يرقب كل ما يحدث بعينين مفتوحتين إمتلأتا بالخوف والألم والهلع .. ولم تسقط " إليزابيث " مغشياً عليها كما توقعوا .. رأت ما رأت وشحب لونها وزاغت عيناها .. ولكنها تحملت التجربة .. فى هذ اليوم ولدت " إليزابيث جاريت " الطبيبة ، رغم أن رحلتها الطويلة مع المرض والمرضى لم تكن قد بدأت بعد .

• • •

لم يكن قد مضى على لقائها بما يحدث فى غرفة التعذيب أكثر من بضعة أيام حتى كانت حديث الأطباء ، فى المستشفى .. لقد أثارت شجاعتها الإعجاب ، وتطوع أحد الأساتذة بإعطائها دروساً خاصة فى التشريح وفى الفسيولوچيا ، علم وظائف الأعضاء ، ثلاث مرات فى الإسبوع . وفجأة وجدت نفسها قد أصبحت جزءاً من هذا المستشفى ، وحفزها هذا التقدير ، على التقدم بطلب إلى إدارة المستشفى بالسماح لها بحضور محاضرات الأستاذ الذى تطوع بمساعدتها وهو يرى منها هذا الحماس الشديد للمهنة التى أعطتها كل وقتها وحياتها .

ولكن متاعبها لم تنته ! . ففى أحد الأيام ، وبجوار فراش أحد المرضى ، كان هناك أستاذ كبير يشرح لمجموعة من الطلبة حالة هذا المريض وكيف يراها ، كانوا جميعاً يتناوبون على علاجه ثم سكت فجأة ووجه سؤالاً .. ولكن أحداً لم يجب . فقد إستعصيت عليهم الإجابة .. ثم جاء صوت ناعم رقيق من بعيد يحمل أخيراً الإجابة الصحيحة .. وكان صوتها هى . وثار الطلبة .. كل الطلبة وكان عددهم يربو على الأربعين وطالبوا بمنع النساء من حضور المحاضرات فى المستشفى ، يجب أن تذهب " إليزابيث " .. **" إما نحن وإما هى "** .

• • •

وصُعقت الفتاة .. كانت تظن أنهم زملاء وأصدقاء .. ولم يكن فى وسعها أن تفعل شيئاً فى وجه هذه المقاومة .. كذلك لم يكن فى وسع مستشفى ميدل سكس أن يحتمل هذا الإضراب الجماعى عن مواصلة الدراسة .. وجرت مشاورات عاجلة ، وجاء الحكم فى النهاية ، **" لقد وجدت إدارة المستشفى أنه من غير المناسب السماح للسيدات بحضور المحاضرات فى المستقبل "** .

كانت تخرج من معركة لتدخل معركة جديدة ، وحتى عندما كانت تشعر بالهزيمة لم يكن هذا الشعور يذهب معها إلى فراشها وهى تغمض عينيها وتستسلم للنوم . فقد عودت نفسها على التخلص منه خلال ساعات النهار .. فلم تكن تنظر وراءها أبداً .. كانت دائماً تستعد للغد وتعيش اللحظة التى هى فيها .

وخرجت تطرق أبواب الجامعات .. أوكسفورد ، وكامبريدج ، وأدنبره ، وجلاسجو ، والكلية الملكية للجراحين .. إنها تبحث عن هيئة تقبل أن تجلس أمامها وتمتحنها .. ولكن الأبواب كلها بقيت موصدة فى وجهها .. لقد كان أساتذة هارلى ستريت على حق : **" ليس هناك لجنة تقبل جلوس إمرأة وسط الممتحنين من الرجال " ..** ولكنهم أيضاً قالوا أنها لن تحتمل منظر الدماء فى غرفة العمليات .. وإحتملت .

• • •

ألا يمكن أن يكونوا قد أخطأوا مرة أخرى ؟ ، ربما ! . ولاح لها أمل بعيد فى الأفق .. إن جمعية الأبوثيكارين تتمتع بحق إمتحان الطلبة والترخيص لهم بمزاولة الطب ولكن ليس من حقها أن تمنحهم الشهادة التى يحصل عليها الطبيب عند تخرجه فى الجامعة ! . وعلى الطالب فيها أن يقضى خمس سنوات فى

التدريب ، ويستوعب ستة مقررات علمية من خلال المحاضرات ، ويقضى ستة أشهر فى علاج المرضى فى مختلف أجنحة أحد المستشفيات العامة .. وخبا الأمل أو هكذا خيل لها عندما وجدت نفسها عاجزة عن أن تمر من جديد بهذا كله ، بعد الشوط الطويل الذى قطعته فى إتجاه آخر .

ولكنها لم تلبث أن عادت إليهم وإنتظمت فى دراستها وأنجزت كل ما طلب منها وإنقضت السنوات الخمس ، وجاء موعد الإمتحان .. وكانوا ثلاثة .. شابان وفتاة واحدة . ونجحت " إليزابيث " وأصبحت أول إمرأة تمارس الطب فى بريطانيا وجاء ترتيبها الأولى بتفوق كبير على زميليها .

• • •

ولكنها بقيت فى الشارع ، فقد رفضت كل المستشفيات تعيينها ، لأنها لا تحمل شهادة علمية ، وإن كانت تحمل ترخيصاً بممارسة الطب ، وإفتتحت عيادة صغيرة فى شارع صغير لعلاج النساء والأطفال .. ثم إنتقلت إلى الأحياء الفقيرة شمالى ماريلبون وحول ليسون جروف ، وكانت تعالج مرضاها بالمجان وتصرف لهم الدواء مقابل بنس واحد لكل مريض .

وكانوا يأتون إليها ويقفون فى طوابير طويلة تمتد حتى نهاية الشارع ، وهى دائماً وسطهم تخفف من آلامهم وتصف لهم العلاج حتى كان عام ١٨٦٦ عندما إنتشر وباء الكوليرا فى صيف ذلك العام ، وسمعت لندن عن الفتاة الصغيرة التى تنتحر كل يوم وهى تحاول إنقاذ عشرات المرضى بهذا المرض الخطير وكان يقف معها إثنتان من الطالبات تحت التمرين .. وجاءوا إليها يحملون المساعدات المالية التى ما لبثت أن إنهالت على عيادتها الصغيرة .

وبفضل هذا العون المادى إستطاعت " إليزابيث " أن تمضى فى إتمام رسالتها حتى إذا تحقق القضاء على الكوليرا فى النهاية ، كانت فكرة قبول المرأة للعمل فى العيادات والمستوصفات قد لقيت قبولاً من جانب الهيئات العلمية والطبية .

• • •

وجاءوا يعرضون عليها وظيفة طبيبة زائرة فى مستشفى جديد للأطفال ... وقبلت " إليزابيث " العرض وذهبت للقاء رئيس مجلس إدارة المستشفى وكان شاباً إسكتلندياً وسيماً يدعى " جيمس أندرسون " ، لم يخف رأيه فى فكرة إسناد

مثل هذه الوظيفة المرهقة للمرأة ، فقد أعلنه حتى قبل مجيئها : **" إنه شئ مخالف لما ألفناه ويتعارض مع طبيعة المرأة "** .

ولكنه ما لبث أن أحنى رأسه تحية لها ، وهو يراها تمر أمامه بعد أن جلست أمام اللجنة التى تولت مهمة إختبارها .. وعندما ردت عليه تحيته ، لم يجد إلا أن يقول وفى كلمات قوية معبرة **" سوف أكون لك صديقاً وسنداً يا سيدتى "** .

وكان المستشفى " الجديد " مفاجأة لها ، فقد إكتشفت أنه لم يكن أكثر من مخزن وورشة قديمة لصناعة السفن الشراعية وكان يزدحم بالمرضى الأطفال الصغار الذين كانوا يموتون بأعداد كبيرة حتى بلغت نسبة الوفيات بينهم أكثر من ٢٥ % فى عام واحد ! .

ووقفت " إليزابيث " تحارب بعنف القذارة والإدراة الخربة والفوضى التى كانت تعم المستشفى " الجديد " فى كل مرافقه .. كتب " ناتانيال هكفورد " ، الرجل الذى أخذ على عاتقه مهمة تأسيس المستشفى : **" لولا إليزابيث لما إستطعنا أن نستمر .. لقد كانت هذه الفتاة وراء كل عمل ناجح حققناه "** .

وفى حربها الطاحنة ، كان صديقها " أندرسون " يقف دائماً بجانبها إلى أن كان اليوم الذى قرأت فيه أن كلية الطب فى جامعة السوربون فى باريس قد فتحت أبوابها أخيراً فى وجه المرأة وأحست بأملها فى الحصول على الشهادة العلمية يتحقق أخيراً .. فحزمت أمرها ، ورحلت إلى باريس وكلمات صديقها تسبقها : **" أتمنى لك التوفيق يا عزيزتى "** .

ولكن الفرنسيين لم يكونوا متحمسين كثيراً للطلبة الأجانب الذين يريدون أن يفيدوا من فتح هذا الباب الذى بقى موصداً فى وجه المرأة قروناً طويلة ، ودارت مناقشات على مستوى عال : **" هل نسمح أو لا نسمح لهذه الفتاة الإنجليزية بتأدية الإمتحانات لنيل الشهادة فى الطب ؟ "** .

• • •

ومن أجل إرضاء هيئة الممتحنين ، مَّرت " إليزابيث " بستة إختبارات .. فى قاعة السوربون الفخمة الضخمة ، وقفت الفتاة الصغيرة أمام المائدة الطويلة التى جلس حولها ثلاثة من " القضاة " فى أثوابهم الجامعية السوداء ... بينما إزدحمت قاعة الجمهور بالمحاضرين والطلبة الذين جمعهم كلهم شعور واحد بالعطف

والتأييد لهذه الفتاة الإنجليزية الصغيرة التى وقفت فى جرأة وشجاعة تبحث لنفسها عن مكان صغير فى عالمهم الواسع .... عالم الطب . ومضت الأسئلة تنهال عليها .. وكانت الإجابات تخرج من شفتيها هادئة رقيقة وسط تصفيق الحاضرين مع كل مرة يهزّ فيها " القضاة " رؤوسهم مؤيدين .

سؤال واحد وقفت أمامه حائرة لم تجب ، فقد إستعصت عليها الإجابة ، وكان عن الطبيب المشهور الدكتور " جريفز " الذى يعيش فى دبلن . ولم تكن " إليزابيث " قد سمعت عنه . وساد السكون القاعة الفسيحة .. لقد أشفقوا عليها . وقال أحد الممتحنين فى صوت يشوبه الإستنكار : " **أوتجهلين مشاهير الأطباء يا سيدتى ؟** " . وأجابت الفتاة فى شجاعة وبلا تردد : " **ولكن عالم الطب ملئ بالرجال الكبار يا سيدى** " .

• • •

وإبتسم القضاة وحصلت " إليزابيث " على الشهادة أخيراً بعد أن إنتهت من قراءة أطروحتها عن الصداع النصفى .. وعندما فتحت أبواب القاعة الكبرى وقف الحاجب يعلن " **لقد أدت إليزابيث جاريت الإمتحان بنجاح وأصبحت أول إمرأة تحصل على شهادة فى الطب فى تاريخ جامعة السوربون** " .

وعادت إلى لندن ، وكان " جيمس أندرسون " صديقها القديم هناك فى إنتظارها .. قال : " **أريد أن أهنئك أولاً ثم أريد أن أعرض عليكِ الزواج .. هل تقبليننى زوجاً لكِ ؟** " .

وتزوجا .. وعاشت " إليزابيث " مع زوجها ستاً وثلاثين سنة ، وكانت تقول : " **غريب أمر هذا الحب الذى جمع بين قلبينا .. إنه لم يذبل أبداً للحظة واحدة طوال تلك الفترة ، حتى ونحن نعيش فى خريف العمر** " .

وأنجبت " إليزابيث " ثلاثة أطفال ، بنتين وولداً واحداً ، ماتت طفلتها الثانية فى شهرها الخامس عشر ، أما الولد ، فقد أصبح فيما بعد رئيساً لمجلس إدارة المستشفى الذى أسسته أمه ... مستشفى " إليزابيث جاريت أندرسون " .. وحرصت على أن يكون كل العاملين فيه من النساء ...

وبقى المستشفى قلعة للمرأة سنوات طويلة قبل أن يفسح لها الرجل مكاناً تجلس فيه بجانبه .

(بقلم : منير نصيف)

(٣١) كونسيل

العصا الوحيدة

" .. العصا الوحيدة التى يجوز له أن يتخذها هى الثقة بالنفس ، فإذا فقدها فقد كل شئ " ! .

يمكنك أن تراه فى أى يوم يمشى بخطوات سريعة وواثقة ، بقامته المديدة ، وصدره العريض ، ورأسه المرفوع ، وليس معه عصا يهتدى بها أو كلب يساعده .

والدكتور " **كونسيل** " هو آخر من يزعم أن هذا أمر طبيعى أو سهل على كل مكفوف البصر . فقد كان يؤكد دائماً :

" لست أحب أن أجازف بحياتى ، ولكن المكفوف الذى يحاول أن يكون جزءاً من العالم البصير ، لابد له أن يتسلح بالجرأة وحب المغامرة . وعليه أن يحاول أن يُنسى المبصرين عماه . والعصا الوحيدة التى يجوز له أن يتخذها هى الثقة بالنفس ، فإذا فقدها فقد كل شئ . ولو أننى تصرفت كما يُنتظر من المكفوف أن يتصرف ، لفزت بالرعاية التى تُمنح للمكفوفين ، ولكنى كنت حينئذ خليقاً أن أصبح منبوذاً بالعمى فى كل نواحى الحياة " .

ولقد ظل " كونسيل " طوال حياته يأخذ بهذه الفلسفة ويتوسع فيها ، وفى بدنه من الندوب وآثار الجروح ما يثبت ذلك .

وإلى أبويه يرجع الفضل فى جلادته . ولقد كان أبوه قصّاباً (يبيع اللحم) وكان يتقصى أخبار إبنه فى كل ليلة :

" لا تخشى أن يصيبك أذى مع الصبية غيرك ، فأنت مثلهم جسامة ! ، فانهض إذا وقعت ! " .

وتضيف أمه :

" كل إنسان يقع - ما عاش - والأقوياء وحدهم هم الذين يبلغون القمة . لأن فيهم شجاعة تجعلهم يتشددون وينهضون مرة أخرى " .

وهكذا راح الصبى " كونسيل " يلعب ويقفز ويصطدم بالشجر ، ويعود إلى البيت وفى جلده خدوش . ولم يعرّفه أبواه - قبل أن يبلغ السادسة - ما بينه وبين غيره من الصبيان من الإختلاف ، وأن هؤلاء الأطفال حين " يرون " عصفوراً يفوزون بأكثر من سماع صوته .

ولم تكن السنوات السبع التالية بالمدرسة الداخلية للمكفوفين التى ألحق بها " كونسيل " مرضية إلا من أجل أجازات آخر الأسبوع ؛ إذ كان يستقل القطار عائداً إلى بلدته ، ويصغى إلى صوت عجلاته على القضبان ، ويستقل سيارة النقل بلا معين ويسرع إلى بيته .

ولما بلغ " كونسيل " الثالثة عشرة من عمره ، قصد المدرسة الثانوية للمبصرين ببلدته ، وناشد مدير المدرسة أن يقبل إلتحاقه بها وقال له : **" لا أستطيع أن أعود إلى مدرسة العميان ، لأنى إن فعلت ، سأتعلم الخوف من السير فى الشوارع بمفردى ، فأرجو أن تتيح لى الفرصة لأتعلم مع المبصرين " .**

وحاول المدير أن يصرفه عن مبتغاه ، لأنه كان يخشى على الصبى من التعثر . فقال " كونسيل " : **" لقد اعتدت على درجات السلم " .** وكان يقع فى المدرسة فعلاً ، ولكنه كان يذهب إلى المدرسة ماراً بسبع بنايات بغير مرشد . وكان يعمل موزعاً للصحف بمنطقة سكنه مستعيناً بما يتذكره من لمس بوابة حديدية أو درجة سلم متآكلة ، أو إنحدار فى رصيف . وكان يزاول التزحلق على الثلج لا لأنه كان يهوى ذلك دائماً ، بل ليقنع نفسه بأنه غير خائف .

وأتم فى ثلاث سنوات برنامج دراسة السنوات الأربع ، وفاز بأعلى الدرجات . وإستطاع الإلتحاق بجامعة " كريتون " بولاية أوماها ، وكان يستقل الترام ذهاباً وإياباً ويقطع به إثنى عشر ميلاً ، ويعتمد فى مصروفاته على ما يكسبه من تفريغ سيارات الشحن ، والنسخ على الآلة الكاتبة والتدريس .

وحمله نجاحه فى التدريس على العزم أن يكون معلماً ، وبعد أن جربه ناظر

المدرسة مرتين ، قال لمفتش المدارس : " **أظنه يصلح ، إذا أوتيت الشجاعة اللازمة لتعيينه " .**

وهكذا عاد " كونسيل " فى عام ١٩٣٥ إلى مدرسة " سوث " الثانوية التى كان يدرس بها وهو صبى . عاد وهو فى الثالثة والعشرين من عمره ليعلم المبصرين . **ولقد نال الدكتوراه فى التاريخ الأمريكى وحصل على درجة أستاذ ، فى دراسات مكثفة أجراها فى فترات الصيف ، من جامعتى كريتون وكاليفورنيا بلوس أنجليس .**

ولما خلا منصب مدير قسم الدراسات الإجتماعية بمدرسة " سوث " ، ترك المسئولون عنها للمعلمين أن يختاروا مديراً مؤقتاً ، فإختاروا الدكتور " كونسيل " . وقد قام بالأمر خير قيام ، فعين فى العام التالى فى ذلك المنصب .

ولقد برع فى قيامه بتدريس المبصرين ، وقد كان يحفظ أسماء التلاميذ المئة والأربعين الذين يعلمهم فى فصوله الأربعة ، كما كان يحفظ أصواتهم ويربط فى ذاكرته الأصوات بالأسماء والمقاعد .

وقد أشاد به أحد تلاميذه قائلاً : " **إن الدكتور " كونسيل " مخلص جداً وشديد الإهتمام بعمله كما أنه عطوف " .**

وقد كان " كونسيل " دائماً يصر على أن يكون من عالم المبصرين حتى أصبح مهتماً بكل إنسان فيه . والإهتمام يثير الإهتمام ويولد الثقة . وعالم المبصرين هو عالمه ، وزوجته من هذا العالم .

ويقول " كونسيل " ناصحاً :

" إذا أريد للعميان من الأطفال أن تتاح لهم فرصة ، فإنه يجب أن يتلقَّوا على الأقل بعض التعليم فى مدارس المبصرين . شجعوهم على أن يكونوا كغيرهم من الأطفال ، ولا تقصوهم عن الحياة اليومية . وأعينوهم على التسلح بالجرأة والتزود بالشجاعة وقوة الأعصاب وأغرسوا فيهم حب الرغبة فى تجربة كل شئ . ولا تدعوهم ييأسون بسبب ما يواجههم من صعوبات . فليست عاقبة اليأس سوى الإخفاق " .

(٣٢) كاميل كيلى

أم واحدة لآلاف الأطفال !

هى إمرأة ضئيلة الجسم ، ولكنها تحمل عبء دعوة ينوء بها الرجال ، تلك هى القاضية " **كاميل كيلى** " بمدينة منفيس فى ولاية تنيسى . فقد جعلت همها أن تقنع كل جافى الطباع من الآباء وغيرهم أن ليس ثمة شئ يسمى " الطفل الفاسد " ، وأن كل ما يحتاج إليه علاج الطفل العاصى العنيد هو قدرٌ صالحٌ من الحب والحنان والفهم . وقد بلغت ما أرادت .

وقد قضت على منصة القضاء عشرين عاماً حافلة بالعجب ، وكفلت بحنانها ٤٥٠٠٠ طفل ، وبلغت من التوفيق مبلغاً جعل إختيارها لمنصبها يتكرر ستَ مرات بغير معارضة من أحد .

وهى فى ملبسها أشبه بأميرة صغيرة نحيلة تختال فى أجمل ثيابها ، فإذا تكلمت ، والكلام عادتها التى لا تنقطع ، لم تلق بالاً إلى كثرة سامعيها أو إلى إختلاف طبائعهم وعقولهم . ففى نفسها عقيدة لا تزال تدفعها وتحركها ، إذ غمرها قلبها بحب البشر جميعاً :

أبيضهم وأسودهم ، غنيهم وفقيرهم ، فتراها تظل ست عشرة ساعة لا تملّ ، وهى تشرح رأيها الذى تؤمن به للناس ، من الزعماء إلى المربيات إلى العمال إلى النواب . وترى عدداً جمّاً من الناس يحوطها بمحبته ، من رجال ونساء وأطفال يحتشدون كل يوم على مقربة من دار المحكمة ، ومن كبار المشهورين إلى صغار المغمورين ، كانوا يقفون ينتظرون لكى يلقوا إليها بالتحية .

وقد قالت إمرأة مدت إليها القاضية يد المعونة : " إن الذين يتولون بذل الخير للناس ، يتصنعون أحياناً إبتسامة توطد الثقة بينهم وبين أولئك الناس . أما القاضية " كاميل " فهى إذا إبتسمت لك شمختَ برأسك ، وأحسست كأن الدنيا أصبحت طوع يديك " .

وقال رجل من أصحاب الأعمال كان قد وقف بين يديها فى المحكمة وهو صغير : " إنها فيمن عرفت ، هى الإنسان الوحيد الذى يستطيع أن يجعلك تشعر بأن لكرامة المرء وعزته لذة لا تعادلها لذة " .

وغرفة محكمتها مكان تبتهج العين لرؤيته ، ولكنه جليل يشعرك بالهيبة . فيه مقاعد وثيرة ، وفيه - بدل منصة القضاء المألوفة - منضدة تتلألأ عليها باقة من الزهر . وتعالج القاضية " كاميل " قضاياها غير متقيدة بتقاليد المحاكم ، وتحرص على أن تجعل لغتها بسيطة واضحة . فإذا جلست فى مجلسها قالت : " ليست هذه الغرفة إلا ساحة للتقاضى ، تتاح فيها الفرصة لكل إمرئ أن يتكلم ، ولن أدع أحد يغادرها وهو مهموم أو ضيق النفس . فتعالوا نعالج هذا الأمر معاً " .

وقد أراد أحد مشاهير المحامين أن يستعجل النظر فى إحدى القضايا ، فانتهرته القاضية قائلة : " لا أحب أن يتعجلنى أحد ، هذه محكمة همُّها الأخلاق قبل كل شئ . وسأستنفد من الوقت ما يتيح لى أن أقوّم الأخلاق " .

وأهل بلدتها جميعاً يظاهرونها أقوى مظاهرة ، فلقد إستطاعت أن تجمع حولها طائفة من أقدر المحاكم ، ومن أجل ذلك كان سبيلها فى الإصلاح والتقويم أجدى من سبل القضاة الآخرين .

وهى تقول : " **إنك لا تستطيع أن تخرج سوء الخلق من طبيعة الطفل بالعنف ولا بالتقريع . فالطفل سريع التحول والإنصراف ، فلا تكاد تمضى فى محاولة تهذيبه قليلاً ، حتى تراه قد صار أصم لا يستمع لما تقول . فإذا وجدت فى خلق الطفل ما يسوء ، فعليك أن تفحص عن العلة الكامنة وتحاول علاجها** " .

وهى ترى أن العقاب الذى يؤلم البدن شئ لا جدوى منه . وهى ترى أيضاً أن الطفل إذا كان ثائراً حديد الطبع (وهما وقود الحياة) ، فهو خليق بأن يرجى منه خيرٌ كثير . وتقول : " **إذا بذلت معونتك لطفل هادئ الطباع عاجز قليل الحيلة ، كنت خليقاً أن تظل له كافلاً ومعيناً مدى الحياة ، ولكنك إذا أعنت آخر من ذوى الهمة والطباع الحديدية ، فجرت ينبوعاً متدفقاً لا يقف أمامه شئ** " .

وقد وجهت القاضية " كاميل " طائفة من الصغار ذوى الحدة والشراسة ، فجعلتهم يقيمون وهم لا يدرون ملعباً بمعونة من المجلس البلدى ، ويشتركون مع

الجماعات الأخرى القائمة فى البلدة . ويحظى الطفل منهم بالمعونة التى تتيح له أن ينمى مواهبه الخاصة . فتراها تحث الآباء مثلاً على أن يشجعوا الطفل الذى يجيد العمل بيده على أن يصبح صانعاً من الطبقة الأولى بدلاً من أن يصبح موظفاً من الطبقة الثانية .

فإذا رأت القاضية أن الآباء والأطفال قد عرفوا الطريق الذى ينبغى أن يسلكوه ، نفضت يدها من معونتهم . وهى تؤمن بأن من الواجب على كل إمرئ أن يعتمد على نفسه ، وأن يكون عنيفاً فى زجر الضعاف الواهنين ، وأن يمقت التدليل والطراوة .

• • •

كان والد القاضية " كاميل " أحد الجراحين الممتازين وهو الدكتور " ج . ب . ماكجى " ، بيد أن فتاته " كاميل " ، لم تمل نفسها قط إلى أن تعيش عيشة الفتيات المدللات المترفات . ومات أبوها وهى فى ميعة صباها ، فعزمت على أن تصبح طبيبة أيضاً . وظلت تزيّن لولاة أمرها أن تلتحق بمدرسة الطب ، فلم تلبث أن تُوفيت أختها الكبرى ، وتركت بنين صغاراً . فهجرت " كاميل " ما كانت فيه لتربى أولاد أختها .

وقبل أن تبلغ العشرين من عمرها لقيت شاباً محامياً هو " توماس فيتزجرالد كيلى " ، كان مثلها شباباً وتوقداً ، فتزوجا وعاشا فى سعادة مشرقة الجوانب ، وظلت " كاميل " سنوات ولا همَّ لها إلا رعاية زوجها وصغارها الثلاثة .

كان " توماس " قد أعجبه ما فى زوجته من عقل ، وأحب لها تصرفه فيما ينفع ، فأغراها بأن تدرس القانون عنده فى مكتبه . فظلت سنتين تشاركه فى عمله ليلاً ، ثم بقيت ١٨ شهراً تعاونه فى سائر أعمال مكتبه بعض الوقت . ثم رأت يوماً ولدها الصغير وقد خرج قاصداً مدرسته ، فإنتبهت فجأة وجعلت تتسائل : أى ضرب من الأطفال - صغارهم أو كبارهم - سوف يعاشرهم إبنها هذا بعيداً عن رعايتها ونظرها ؟ . وجعلت تقول لنفسها : " من الخطأ أن تظن أن مهمة الأم الفاضلة لا تتجاوز ما يجرى بين جدران بيتها " .

فما هو إلا أن إختارت أجمل قبعاتها ولبستها ، وإنطلقت شطر المدرسة التى فيها ولدها ، وقدمت نفسها للأساتذة المدرسين ، ثم لم يمض وقت طويل حتى كانت قد بذلت جهداً فى تأليف جماعة للآباء والمعلمين ، وظفرت بإنتخاب أول

إمرأة لمجلس التعليم فى بلدتها . ثم أجالت طرفها فى نواحى البلدة ، لتنظر ما يفعل الأطفال بعد المدرسة ، فلم يَرُقها ما رأت .

فلما مضت سنوات ، وصارت البلدة فى حاجة إلى قاضية لمحكمة الصغار ، كانت " كاميل " قد طارت شهرتها فى البلدة بأنها المرأة التى تستطيع أن تستميل أى إنسان للجهاد فى سبيل تهذيب الأطفال . ومع أنها لم تنل إجازة الحقوق ، فقد سن المجلي التشريعى للولاية قانوناً يتيح لها أن تكون أول امرأة تتولى القضاء فى ولاية تنيسى ، وثانية إثنتين فى البلاد كلها .

ولم تنل " كاميل " إجازة الحقوق ولكن المحاكم العليا لم تنقض من أحكامها فى ثمان سنوات سوى حكم واحد .

فلما نجحت فى تهذيب أطفال بلدتها ، صرفت جهدها إلى توعية الآباء والأمهات وتبصيرهم بدور الحب والحنان فى تربية صغارهم . ولقد خصصت القاضية مكاناً يقصده الآباء مع أطفالهم طلباً للمشورة والنصح .

ولقد وُصفت دائماً بأنها صاحبة القلب المخلص الكريم الذى يعطى بسخاء ! .

(٣٣) ألان براون

منقذ الارواح الصغيرة

كنت طبيباً حديث التخرج عندما جئت إلى مستشفى الأطفال لأصبح تلميذاً له ، وتحت رعايته .. ولقد تعلمت كل الأشياء المهمة حقاً فى طب الأطفال من هذا الرجل الصغير الجسم الثائر الذى كان يتحرك دائماً بنشاط فى مستشفى تورنتو للأطفال الذى أصبح تحت إدارته ، أعظم مستشفى من نوعه .

فقد جاء الدكتور " **ألان براون** " عندما كان الناس يسخرون من طب الأطفال ويعتبرونه بدعة من البدع .

كان معظم أطباء ما قبل الحرب العالمية الأولى يواجهون أمراض الأطفال ، يخالجهم إحساس قوى بأنها أمر لا مفر منه . وكان الطفل الذى يدخل إحدى المستشفيات مصاباً بمرض كالدفتريا أو الإلتهاب الرئوى ، أو الإلتهاب السحائى ، لا تزيد فرصة خروجه حياً من المستشفى على ٥٠ % .

سافر " براون " إلى نيويورك ليدرس فى مستشفى الأطفال ، ثم زار المراكز الطبية الكبرى فى أوربا ليحصل على المزيد من التدريب ، وفى عام ١٩١٤ ، عاد كأول طبيب متخصص تماماً فى طب الأطفال فى تورنتو كلها ، وكان يتلهف على تطبيق خبراته ، وقدم نفسه لمستشفى الأطفال ، ولكنه رفض ! ، وقال له أطباء المستشفى التقليديون إنه لا مجال هناك للأفكار الحديثة التى يحملها طبيب أطفال تلقَّى تدريبه فى الخارج ! .

وبحث " ألان براون " عن الأرقام الخاصة بمعدل الوفيات بين الأطفال فى المستشفى ، وكانت نسبة مزعجة إذ بلغت ١٥٥ بين كل ألف طفل من النزلاء .. وذهب " براون " إلى " چون دوس روبرتسون " مدير مجلس إدارة المستشفى ، وقال له بصراحة : " أعطنى مكاناً بين أطباء المستشفى وحرية فى التصرف ، وسوف أخفض هذه النسبة إلى النصف " .

ووافق " روبرتسون " الذى كانت إبنته قد ماتت بالحمى القرمزية منذ فترة ليست بعيدة ..

وسرعان ما إنطلق " براون " فى المستشفى كلفحة من هواء نقى ؛ يجدد الأساليب العتيقة التى كانت تستخدم . فعدّل الأسلوب الذى كان متبعاً منذ وقت بعيد ، لتقليل الوقت الذى يخصص للرضاعة فى عنابر المواليد حيث كان أحد المساعدين يقف بين كل مهدين ، وهو يحمل زجاجة للرضاعة فى كل يد .. وأصدر " براون " أوامره قائلاً : " إحملوا الأطفال ! ، فليست هناك طريقة أهم من هذه لرضاعة ٢٠ دقيقة " .

ومن الأفكار التى أدخلها هذا " الخبير فى تغذية الأطفال ، والذى تلقى تدريبه فى الخارج " التحصين ضد الدفتيريا ، وبسترة لبن المستشفى ، وإستخدام الأشعة فوق البنفسجية لخفض نسبة الأمراض الثانوية .

وحقق " براون " أكثر مما وعد به " روبرتسون " ، وسرعان ما عُين كبيراً للأطباء . وساعدت شهرته على إجتذاب الأطباء والباحثين الشبان الذين يبشرون بمستقبل زاهر . فجاء السير " فردريك بانتنج " إلى المستشفى كطبيب إمتياز ، ثم أصبح طبيباً إستشارياً فى الوقت الذى توصل فيه إلى إكتشافه التاريخى مع الدكتور " تشارلز بيست " وهو أن مادة تسمى " الإنسولين " تهيئ حياة جديدة لملايين من مرضى السكر المهددين بالموت .

وبدأ الدكتور " فردريك تيزدول " و " دريك " دراسات واسعة النطاق فى التغذية ، وإنضم إليهما " براون " ، يخالجه شعور من الفرح لأنه عثر على شخص بمثل هذه الروح إلى جواره . وعندما إقتنع الثلاثة بأن الطحين الأبيض المصفى الذى يستخدم فى غذاء الأطفال له - كما يقول براون - " قيمة غذائية قليلة " ، راحوا يعملون فى إنتاج حبوب غنية بالڤيتامينات تطهى للأطفال . وإشتهرت هذه الحبوب فى العالم بإسم " بابلوم " .

وفى غمرة المعركة الحامية التى دارت مع تجار الألبان حول بسترة اللبن إجبارياً ، توجه " براون " إلى " ميتشل هيبرن " ، رئيس وزراء أونتاريو فى أثناء مأدبة عشاء رسمية وقال له : " إذا كنت تريد أن تعرف لماذا نحتاج إلى بسترة الحليب ، فتعال إلى المستشفى غداً " .

وجاء " هيبرن " ، وشاهد الأطفال المصابين بالسل البقرى وهو من النتائج السيئة للحليب الخام .

وفى ذلك العام أصبحت " أونتاريو " أكبر مقاطعة حكومية تُفرض فيها بسترة الحليب بطريقة إجبارية .

وفى أواخر العقد الرابع من القرن التاسع عشر بدأ " براون " يتحدث عن إنشاء مبنى جديداً مزوداً بأحدث المرافق ومعدات الأبحاث ... وعلى الرغم من أن أموال المستشفى كان من العسير الحصول عليها ، فإن أحداً منا لم يدهش كثيراً عندما أقام " براون " بناءً حديثاً يضم ١١ طابقاً ليكون مستشفى جديداً يحوى ٦٤٧ سريراً وقال : " ها هى ... وستكون جاهزة فى أوائل عام ١٩٥١ " .

وقام المستشفى الجديد ليصبح أثراً من آثاره ، وأكثر أعماله خلوداً .. وقد أنفق الكثير من الوقت فى مكان البناء فى أثناء تشييده ، حتى إن حفيدته مرت بالمستشفى ذات يوم وصاحت قائلة : " أماه ، أنظرى ! ، هذا منزل جدى الجديد ! " .

وعندما أنتهى بناء المستشفى أصبح من أعظم مراكز الأبحاث والعلاج فى طب الأطفال ، وكانت تكاليفه التى بلغت ١٣ مليوناً و ٩٠٠ ألف دولار ، لا تقاس بالأعمال الطبية التى نشرها أطباؤه ... فهناك معهد للأبحاث أنتج فيه أطباء العيون عيناً صناعية يمكن ربطها بالعضلات الطبيعية فتبدو كالعين الحية حتى إنها خدعت فصلاً من طلبة الطب ... وهناك توقف القلوب التالفة ، ويتم إصلاحها وإعادتها لتنبض من جديد ..

وظل " براون " عاماً كاملاً يختال زهواً فى الممرات اللامعة ، يستعرض المستشفى الجديد كأنه من أملاكه الخاصة ... وفجأة إعتزل العمل وقال لى فى تلك الليلة التى أعلن فيها النبأ :

" أمض بأقوى ما يمكنك ، وإلى أبعد مدى ممكن ... ولكن عندما تصبح غير قادر على أن تبذل أقصى ما تستطيع ... أترك العمل " .

لقد كان " براون " طبيباً عبقرياً ، وكان عندما يحمل طفلاً مريضاً ، يصبح صورة مجسدة للرقة والحنان . وعلى الرغم من كل حدته ، فقد كان معلماً رائع الإلهام . وعندما أعتزل العمل فى أواخر عام ١٩٥١ ، كان هناك ١٨٦ طبيباً من

بين أطباء الأطفال فى كندا - وعددهم ٢٥٥ طبيباً - قد تلقوا تدريبهم على يد " ألان براون " .

وأحتفظ براون بعيادته الخاصة لبعض الوقت ... ولكن فى يوم حار من أيام الصيف فى عام ١٩٦٠ ، قام الدكتور " براون " بآخر زياراته لمرضاه ... وفى الليلة التالية أصيب فى حادث أصاب الأوعية الدموية للمخ - ومات كما كان يرغب - فى أن تكون نهايته ... سريعة وبلا ضجيج ...

وأحسست أن تورنتو كلها كان ينبغى أن تكون فى جنازته . ولكن لم يكن هناك ثمة خوف من أن يطوى النسيان " ألان براون " .. ففى الأسبوع الماضى فقط ، كان لدىَّ مريض ذكرتنى أمه بأنها كانت تعالج بمعرفة الدكتور " براون " وهى طفلة ، وأنه كان يصف لها هذا وذلك من الدواء ...

ولم أشعر بأى إستياء لأنه لا يزال يطل من ورائى ، بل أحسست فى الواقع بالفخر لأننى أحد تلاميذه .

(بقلم : الدكتور فيليس سيلفرثورن)



شخصيات لا تنسى ..

(٣٤) فرانسسكو جويا

فنان الرسومات السوداء

فرانسسكو جويا (١٧٤٦ - ١٨٢٨) .

كان " **جويا** " بعيداً كل البعد عن كونه واحداً من هؤلاء الفنانين الذين لم تُقدّر أعمالهم ، ولم ينالوا قدرهم من الشهرة إلا بعد وفاتهم . إلا أنه فى الواقع ، كان " جويا " فناناً محبوباً ومشهوراً فى حياته . وكان أيضاً على قدر كبير من الثراء المترتب على قدراته الفنية الواضحة .

بدأ " جويا " عمله الفنى كمصمم للنسيج المطرز باليد فى البلاط الملكى الأسبانى ، لكنه سرعان ما إنهالت عليه الطلبات من شخصيات المجتمع البارزين ليقوم برسم صور لهم .

وقد أدرك معاصروا " جويا " ملكاته الفنية المميزة ، وموهبته فى تصوير الأشخاص ورسم المناظر الطبيعية ، فعُين رساماً رسمياً لبلاط الملك " شارل الخامس " .

• • •

وعندما بلغ الأربعين من عمره ، كاد يُقضى عليه بمرض لم يستطع أطباء عصره تشخيصه .

ورغم نجاته منه ، فإنه أصيب بعده بصمم بالغ .

ورغم التأثير السلبى للصمم على شخصيته ، مما دفعه إلى الإنعزال الشديد لفتره ، فقد إستمر " جويا " فى إنتاجه المبهر للبلاط وأعضاء الطبقة الإرستقراطية . وأنتج خلال تلك الفترة مجموعة ضخمة من الرسوم الطبيعية التى نبعت من خياله الخصب الواسع .

وقد عكست بعض لوحاته التى بدت عليها الكآبة ، العنف بل والرعب والفزع ، فى بعض المراحل العصيبة التى مر بها الفنان " جويا " كتلك اللوحات فى المجموعة المسماة " **بالرسومات السوداء** " التى قام برسمها فى أيامه الأخيرة .

كان " جويا " مبدعاً حقاً . جرَّب الفن بأنواعه المختلفة على أرضيات عديدة . فقد أنتج بعض اللوحات الخشنة على الجبس ، وأخرى - غاية فى الدقة - على خشب الأبنوس الثمين . ورغم أن بعض رسوماته غير واضحة لبعض الناس ، فلوحاته لها وقع عظيم على كل من يراها .

ويشهد من رأى لوحات " جويا " ، أنها تعكس العاطفة الجياشة ، والقدرة الإبداعية على التصوير ، وتمكن يد هذا الرسام .

● ● ●

أما عن حياة " فرانسسكو جويا " الشخصية ، فقد ولد فى عام ١٧٤٦ فى مجتمع زراعى فقير ، وتوفى والده " جويا " فى الرابعة عشرة من عمره . وترك " جويا " فى رعاية أحد الرسامين ، فساعده فى عمله ، وتدرب على أسلوب إنتاج اللوحات التقليدية التى كانت تزين الكنائس والقصور فى ذلك الوقت .

حاول " جويا " عدة مرات الحصول على منحة دراسية فى أكاديمية " سان فيرناندو " بمدريد (Academy of San Fernando) ولكنه رُفض ! .

ومن الجدير بالذكر أنه عُين رئيساً لتلك الأكاديمية عينها فى أيام شهرته ! .

تزوج " جويا " ورزق بخمسة أبناء ، وفى سن السبعين ، بدأ مرحلة جديدة من حياته . كانت زوجته وأربعة من أبنائه قد توفوا تاركينه فى عزلة وكآبة ، حتى إنه عَبَّر عن حزنه بمجموعة من اللوحات الغامضة " السوداء " التى رسمها على جدار منزله ، وهى لوحات قاتمة حزينة .

ترك " جويا " إسبانيا فى أيامه الأخيرة ، وتوفى فى فرنسا حيث دفن أول الأمر لعدة سنوات ، ولكن جثمانه نقل فى سنة ١٩٠١ إلى مثواه الأخير بإسبانيا فى إحدى الكنائس التى كان قد زينها بفنه المتميز فى شبابه .

(٣٥) دافيد هارتمان

طبيب رغم الظلام

" حاول كل من قابله ثنيه عن عزمه ، لكنه إستطاع أن يحقق المستحيل ! " .

قد يصادف المرء كل فرص النجاح وينجح ، ويحقق ما تصبو إليه نفسه وسط معطيات مسبقة تسهل له سبله ! .

وقد يجد الإنسان نفسه وسط عراقيل خارجة عن نفسه .. تنبئ كلها بأن لا سبيل إلى تحقيق غرضه ولو هدف واحد من أهدافه فى الحياة ! ، وقد يخفق ، وقد ينجح فى التوصل إلى تحويل أمنية أو أكثر إلى حقيقة .. ! .

أما إذا كانت الصعوبة تكمن فى داخل إنسان ما فإن توقع الإخفاق يصبح حتماً .

لذلك فقد توقع الجميع من حول " **دافيد هارتمان** " أنه لن يحقق نجاحاً فى دراسته .. حتى والده .. ووالدته .. وأخته : أفراد عائلته ! .

• • •

إجتمعت أفراد الأسرة كعادتها حول مائدة العشاء :

فريد هارتمان : الأب .. ضابط فى بنك فلادتفيا عرف بحزمه .. وأنه رجل عملى ..

چوى : الأم ، فى مطلع الأربعينيات .. جميلة إلا أن علامات التأثر تركت آثارها القوية فى تقاسيم وجهها ألماً وخوفاً على مستقبل وحيدها " داڤيد " .. ! .

شيرلى : الإبنة (الوحيدة) لفريد هارتمان وشقيقة داڤيد - شابة فى العشرين متفهمة لبقية أفراد الأسرة ، محبة للوالدين وعطوف متعاونة مع شقيقها .

بادر " داڤيد " والده بسؤال قديم طالما وجهه إلى كثيرين من قبل ، لكن سؤاله هذه المرة كان بأكثر إلحاح ! .. والدى ، هل يمكن أن أكون طبيباً ؟ .

ولم يكن رد الوالد على السؤال فوريا ، فقد حرص أن يكون رده على سؤال إبنه مشجعاً بالدرجة المُبالغ فيها ، لاردا مغرقاً فى الواقعية فيشعر إبنه بالعجز .. ! .

كان الأب حريصاً ألا تتحطم آمال إبنه " داڤيد " ، لكن كيف يصبح المكفوف طبيباً ؟ .

إن " داڤيد " كافح حتى أوشك أن ينتهى من الدراسة الثانوية ، لكن أى كلية للطب تسمح بأن يكون بين طلابها مكفوف ؟ .

إن الوقت قد حان ليضع " داڤيد " نفسه على الطريق الصحيح ، لكن كيف يُواجه سؤاله بالرد القاطع بأنه لن يكون طبيباً ! . إذ أن عاهته ستكون حائلاً قوياً منيعاً فى طريق أمله فى دراسة الطب ؛ حتى لو سمحت إدارة كلية الطب بإنتظامه فى هذه الدراسة التى تتطلب العقل والعيون والأيدى .. وكل أعضاء الجسم سليمة لأى طالب فى هذا المجال .. ! .

فكر الأب بإستغراق فى كل الإحتمالات حول طموح إبنه ، والكلمات التى يمكن أن يرد بها على سؤاله ، وإستجمع نفسه ، وشد من أزر نفسه وهو يقول :

" داڤيد ، يصعب أن تعرف : هل دراسته الطب ممكنة أو غير ممكنة إلا بالمحاولة ؟ . حاول يا بنى ! " .

قال الأب : هذه الكلمات ، وتمكن من أن يكون صوته خالياً من التأثر البالغ ، ولو كان " داڤيد " يرى لوجد دمع حائرة فى مآقى الآب المتألم من أجل إبنه ! .

وساد الصمت ، ووجم الأب ، وكذلك الإبن وسط تأثر بالغ من الأم والأخت .. ! .كانت أسئلة " داڤيد " الدائمة المتعاقبة لوالده ووالدته : هل يمكن أن أفعل .. ؟ هل يمكن أن ألعب كرة القدم ؟ .

وكانت أسئلته تتلاحق منذ طفولته ، فقد ولد بقصور شديد فى قوة الإبصار ، وأصبح مكفوفاً تماماً فى سن الثامنة . ومنذ سن العاشرة كان رد والدته أو والده على سؤاله : لنجرب ! .

وكان أول سؤال فى اللعب هو : هل يمكن يا والدى أن ألعب كرة القاعدة (البيسبول) ؟ . وكانت الإجابة لنجرب ! . وإتجه الوالد وإبنه إلى الحديقة حيث

كـان يميز " داڤيد " إتجـاه الكـرة بـالحفيف الـذى تحدثـه وهـى تتدحرج إليـه علـى (الحشائش) !! .

• • •

وحاولت الأسرة أن يعتمد " داڤيد " علـى نفسه قدر الإمكـان ، لكن فـى بعض الأوقـات كـان الـصبى " داڤيد " يتجـه إلـى أمـه قـائلاً : " أمـى ، إننـى لا أحتمل ألا أرى ! " إنه شئ فظيع أن أكون فى هذا الظلام ! . وكانت الأم الحنون تربت على كتفه برفق وتقول .. أعرفـ ذلك يا ولدى ! " .

ومرت الأيام ، ووجد " داڤيد " نفسه يحتمل الظلام ، ويتصرفـ برغمه ! .

كانت الأم حريصة على أن يتأقلم " داڤيد " وحالتـه ، وبعد أن تـأتى من عملها كمحاسبة فى إحدى الشركات وتنتهى من أعمالها المنزلية تجلس إلـى جواره فى كل مساء ، وتقرأ له ما يناسب سنه فى المجالات المختلفة ، لتوسع آفاقه وتثقفه ! ، ذلك مع الحرص أن يكون إعتماده على نفسه فى المرتبة الأولى .

• • •

كان كلما نسى ساعة يده " بطريقة برايل " فـى حجرتـه ، وسـأل أختـه أو أمـه على الوقت ـ تطلبان منـه أن يعرفـ الوقت بنفسه .. ! . وهكذا تعلم " داڤيد " أن يكون معتمد على نفسه ، وتعلـم أيضاً أن فقدان نعمـة البصر لـيس بالمصيبة التـى توقفه عن الحياة ! . وفى الثالثة عشرة من عمره أعلن أنه سيتعلم ليكون طبيباً ! .

أصر " داڤيد " أن يترك مدرسة المكفوفين ويلتحق بالمدرسة الثانوية العامـة فى مدينة هارڤارد ! . وقد تمكن من تحصيل قدر طيب من التعليم ، بالإضـافة إلـى تفوقه فـى فريق المصارعة الخاص بالمدرسـة ، كمـا أنتخب نائبـاً لـرئيس مجلس الطلبة بالمدرسة ! .

وإلـى هنـا والأسرة تتـابع مـا يحرزه " داڤيـد " مـن النجـاح لـه ولأفراد أسـرته أيضـاً ، إلا أن حلمه الذى يراوده ليصير طبيباً بل متخصـصاً فـى الطـب النفسـى ـ أبعد كثيراً من أحلام أسرتـه لتحقيقه إياه ! .

• • •

وبـدأ " داڤيـد " يعلـن عـن رغبتـه فـى الإلتحـاق بكليـة الطـب بعـد إنتهائـه مـن الدراسة الثانوية وهنا إعتقدت الأسرة أنهـا لـم تكـن بالدرجـة الكافيـة مـن الصـراحة

معـه ، وزاد خـوف الأسـرة عليـه حـين تـتحطم أحلامـه بإخفاقـه فـى تحقيـق هـذا الهدف ! .

كما حاول عدد من معلميه فى المدرسة الثانوية ثَنْيَه عن فكرة الإلتحاق بكلية الطب ، ليدرس ما يتفق مع ظروفه كالتاريخ أو الفلسفة أو علم النفس مثلاً ، لكن " داڤيد " كـان يقـول : إننـى لا أختلـف أنـا وأى شـخص آخـر ، لأننـى إذا مـا تخصصت فى الطب النفسى فسوف أكون أقدر من زملائى فى هذا المجال فى معالجة من هم فى ظروفى نفسها ! .

ومـع إصـراره ، وبالـدرجات التـى أحرزهـا فـى نهـائى الدراسـة الثانويـة - أقدم علـى مرحلـة مـن الإلتحـاق بكليـات طـب مختلفـة ، وكـان ذلـك فـى مـارس عـام ١٩٧٢ . ولم يمض نحو الشهر حتـى تسلم رفض تسع من الكليات العشر التى تقدم بأوراقه للإلتحاق بها ! .

وكان رفض الكليـة التاسـعة فـى السابع والعشرين من شـهر أبريل ، فبدأ يفقد الأمل وبدأ يحزن ويتساءل : لمـاذا يقف كـف بصـرى فـى طريق تحقيق أملـى ؟ ، وما ذنبى ؟ .

كلية واحدة للطب لم تكن قد رفضت طلبه ، وهـى كليـة الطـب التابعـة لجامعـة " تمپل " بولاية فيلادلفيا ، حيث كانت حالته تدرس فهو الحالـة الأولـى من نوعهـا التـى تعـرض علـى هـذه الكليـة أو كـل الكليـات العمليـة فـى الولايـات المتحـدة أو خارجها : مكفوف يطلب الإلتحاق بدراسة الطب ! .

وفحصت أوراقه برياسة " د . برنس بريجهام " مساعد عميد الكلية المختص بقبول أوراق الطلبة الملتحقين ، وقد حظيت بقبول أوراق " داڤيد " بدراسة مكثفة من جانب المجلس المختص بل دارت مناقشات حامية حول : هل يُقبل " داڤيد " ليدرس الطب أو لا ؟ .. ولماذا ؟ .

وهنا قرر " د . بريجهام " :

" إن من حق هذا المجلس إذا كـان لجنـة أولومپيـة أن يرفض من حيث المبدأ قبول شاب ذى عاهة يرغب فى الإشتراك فى مباراة على بطولة لعبة ما ، لكن إذا ما تمكن شاب بساق واحدة من العدو (حجلاً) بساقه لمسافة مائة ياردة وقطعها فى ٩ ثوان أعتقد أنه من حق هذا الشاب أن يكمل السباق ! .

لذلك فإن ما فعله " داڤيد هارتمان " صاحب هذه الأوراق التى ندرسها الآن يعد أمراً مستحيلاً فى إصراره لإستكمال دراسته بالشكل الذى يؤهله للإلتحاق بكلية الطب لكن لماذا لا نعطيه الفرصة ؛ لنرى : إلى أى مدى يمكن أن يحقق نجاحاً ؟ . وإنتهت المناقشة بالموافقة على إلتحاق " داڤيد هارتمان " بكلية طب جامعة " تمپل " .. ! .

• • •

تسلمت والدته خطاب موافقة الكلية على إلتحاق إبنها بها ، وكانت فرحة للجميع : له وللأسرة والأصدقاء .. ولمعلميه بالمدرسة الثانوية .. ! .

وكان على " داڤيد " أن يبدأ دراسته ..

كما كان عليه أن يرتدى قفازه فى محاضرة التشريح .. وكانت الصعوبة ! . لم يكن " داڤيد " يستطيع تحسس الجثة التى يتم تشريحها وهو يرتدى القفاز ! . كان يستطيع بسهولة تمييز الأعضاء الكبيرة ومواضعها من الجسم البشرى فى أثناء دراسته للتشريح ، لكنه لا يستطيع أن يميز المناطق الدقيقة مثل شبكات الأوعية الدموية : ففى مثل هذه الحالة لا يميزها إلا بأيديه العاريتين من القفاز ! ..

ودفعه ذلك إلى المثابرة فى المعرفة السريعة لعينات التحليل قبل أن تتخدر أصابعه بسبب " غاز الفورمالديهايد " الحافظ الذى يستخدم فى حفظ الجثث التى يتم دراستها فى علم التشريح .

• • •

وكان ما هو أكثر صعوبة عليه الدراسة المجهرية لبناء الخلايا ، فكان مضطراً للإعتماد على وصف زملائه من الطلبة ليشرحوا له من خلال ما يرونه فى المجهر ومن خلال الرسوم التى أعدها أستاذه خصيصاً له بحروف بارزة تشبه طريقة " برايل " .

وفى الوقت نفسه أعد " داڤيد " فى منزله مكتبة غنية بمصادرها العلمية الطبية المسموعة بالتسجيلات الصوتية لكثير من المصادر المكتوبة ، وقد أهدت له إحدى المؤسسات المختصة ٣٠ مجلداً مسجلة .

وإستطاع " داڤيد " - برغم الصعوبات - أن ينجح ، وينقل إلى السنة التالية فى دراسة الطب .. ! .

لكن الصعوبات زادت فى السنة التالية فى محاولاته اللحاق بزملائه المبصرين فى تلقى ٦ محاضرات فى اليوم الواحد ! . وكان عليه أن يسجل ما يلقيه أستاذه بآله التسجيل الخاصة به كل محاضرة ، وفى منزله يقوم بعملية تسجيل أخرى لتلخيص المحاضرة على مسجل آخر ؛ مما كان يستغرق ساعتين منه لتسجيل محاضرة مدتها ساعة واحدة وبذلك كان عليه أن يستذكر واجباته لمدة ١٢ ساعة فى اليوم بالإضافة لوقت المحاضرات بالكلية ! .

وبذلك لم يكن له قسط كافٍ من النوم ، ومن ثم ضعفت قدرته على التحصيل ! ، فلجأ إلى أحد أساتذته ، ووجد معه الحل : هو أن يقوم " داڤيد " بأخذ مذكرات فى أثناء المحاضرة ، أو يهمس فى مسجله بملخص ما يقوله أستاذه فى أثناء المحاضرة .. ! .

وفى السنة الثالثة الحرجة لدراسة " داڤيد " للطب واجه صعوبات من نوع جديد ! ، وبدأ زملاؤه ينظرون إليه بعين عدم اليقين فى إحتمال نجاحه ! ، إذ كيف يستطيع " داڤيد " أن يقرأ ما يتم تصويره بأشعة (إكس) ؟ . كما أنه - مثلاً - لا يستطيع فحص أذن مريض ولا عينه ولا فمه بدون الإستعانة بزميل له .

كذلك لا يمكنه رؤية لون بشرة المريض إذا كان شاحباً أو لا ، وكأن يعتمد فى ذلك على ممرضة أو على المريض نفسه ! .

غير أن " داڤيد " كان له من القدرات ما يغطى نقصه بعدم الرؤية ، فكان له سمع مرهف وحاسة قوية فى اللمس ، فكان يتحسس ، ليعرف : هل صدر المريض مستوى أو به بعض المظاهر غير العادية أو عيب ملموس ؟ .

وفضلاً على ذلك كان سامعاً ممتازاً ، وهذه ميزة يفقدها كثير من زملائه فى الطب .. أو حتى الأطباء المتمرسين ! . وكان ذلك ينفعه كثيراً وخاصة حين قال أستاذه " چون مارتن " أستاذ مادة التشخيص " إنك لو أعطيت مريضك الفرصة للتحدث عن حالته فإن المريض أفضل من يحدد ما يحتاج إليه العلاج فى جسمه .. فقط أعطه الفرصة للتحدث عما يؤلمه " .

• • •

وكان " داڤيد " يعوض كف بصره بسمعه أكثر من كل مريض وبسبب موهبته هذه ، وسماعه لنصيحة أستاذه فى مادة التشخيص - إستطاع أن يكون أول دفعته فى هذه المادة .

وفى السنة النهائية لدراسته الطب .. حوّل " داڤيد " بكفاحه ومثابرته كل الذين شكوا فى قدرته إلى مؤمنين به وبنجاحه ! . ووثق الجميع فى نجاحه العملى بعد التخرج إلا هو ! .

عاش " داڤيد " سنوات الدراسة بنجاح من سنة إلى أخرى ، لكن إحساسه بعدم لياقته الصحية لممارسة الطب بعد التخرج لم يفارقه لحظة ! .. خاف المستقبل ؛ فكل ما يدرسه كان تحت إشراف دقيق من أساتذته ومعاونة وطيدة من زملائه وزميلاته ! . لكن كيف يضمن نجاحه فى معالجة مرضاه حين يكون وحيداً بعيادته ؟ . وأدلى بمشاعره هذه لأحد زملائه ذات ليلة ، لكن زميله ربت على كتفه وقال له : " ثق يا داڤيد أن بصرى صحيح ١٠٠ % وأرى كالصقر ، لكننى لا أخفى عنك أيضاً أن لى شعور التخوف نفسه من ممارسة الطب مستقبلاً ! .

• • •

وفى شهر مايو عام ١٩٧٦ حصل " داڤيد هارتمان " على درجة البكالوريوس فى الطب ، وكانت هذه الدرجة تعنى له فى المرتبة الأولى أنه لا فرق بينه وبين أى شخص ! . والواقع أن مجلس الكلية الذى سمح منذ سنوات بإلتحاقه بالكلية وصفه بأنه شخص غير عادى ، لأنه حقق أمراً غير عادى للذين فى مثل ظروفه.

وبعد تخرجه ببضعة أسابيع أقامت جمعية تحقيق الأهداف للمكفوفين حفلاً بمناسبة أمرين هامين : • مرور ٢٥ عاماً على إنشاء الجمعية .

• ونجاح أول مكفوف فى دراسة الطب ! .

ووصف رئيس الجمعية " داڤيد " وهو يسلم له جائزة لهذه المناسبة :

" إنك حققت نصراً للروح الإنسانية وبالمثل الذى ضربته لنا تجدد إيماننا بالإمكانات غير المحدودة لكل البشر على السواء مهما كانت العوائق ! " .

ووقف جمهور الحاضرين تحية " لداڤيد " الذى ألقى كلمة بسيطة رد على رئيس الجمعية قال فيها : **" لقد كان والدى على حق .. لن تعرف ما تستطيع ما لم تجرب أولاً " .**

وبعد أن إنتهى " هارتمان " من سنته الأولى فى التخصص فى طب التأهيل فى جامعة " تمبل " .. قام بالإنتساب إلى جامعة بنسلڤانيا لمتابعة برنامج خاص يؤهله للعمل فى ميدان الطب النفسى ، وأتمه بنجاح .

فهرس الكتاب

شخصيات لا تُنسى

١١- شخصيات لا تُنسى ....
موهانداس غاندى (**الرجل الذى إنتصر على دولة بسلاح الحب !**)

١٢- شخصيات لا تُنسى ....
تشارلز ديكنز (**عبقرى بين الفقر والفئران والثراء وقمة النجاح !**)

١٣- شخصيات لا تُنسى ....
بارنى روس (**من مذكرات : بطل العالم للملاكمة**)

١٤- شخصيات لا تُنسى ....
دى ويت والاس (**هذا الرجل وجامعة الجيب**)

١٥- شخصيات لا تُنسى ....
جو ديكسون (**صانع العصا الكاتبة**)

١٦- شخصيات لا تُنسى ....
توماس كانون (**المحسن الفقير**)

١٧- شخصيات لا تُنسى ....
هيلين آدامز كيللر (**شموع ونور**)

١٨- شخصيات لا تُنسى ....
بيتالين غراهام (**بين فكّىْ تمساح**)

١٩- شخصيات لا تُنسى ....
لويس بريل (**ثقوب من نور**)

٢٠- شخصيات لا تُنسى ....
وليم جون شكسبير (**رجل لكل العصور**)

٢١- شخصيات لا تُنسى ....
إريك هوبلير أو ... (**صاحب رواية مزرعة الحيوانات**)

٢٢- شخصيات لا تُنسى ....
جريجور مندل (**مؤسس مدرسة علم الوراثة الحديثة**)

المجموعة الكاملة لمقالات

" مبادئ إنسانية "

للكاتب الكبير والشاعر والأديب المعاصر " **نعيم عاطف** " .

والتى نُشرت بمجلة " هو وهى " - تم صدورها فى خمسة أجزاء :

١. الحب .. والزواج .. والأبناء .. والأسرة ..

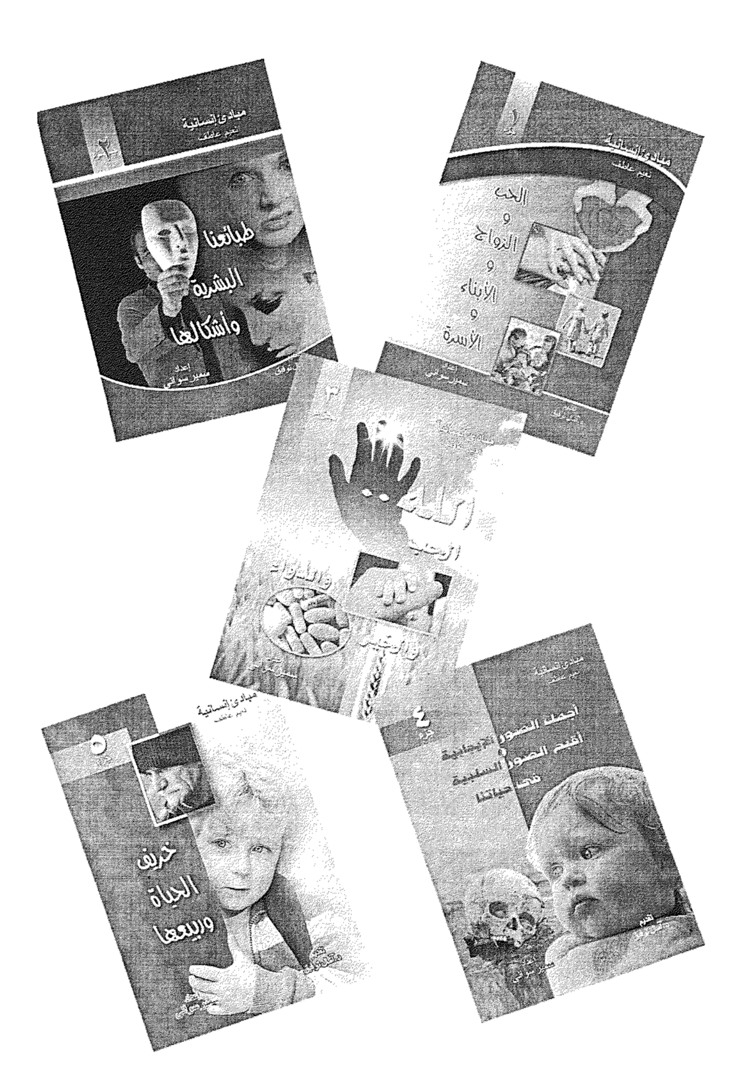
(والجمال .. والنجاح .. والسعادة .. والسلام .. والأمل ..)

٢. طبائعنا البشرية .. وأشكالها .

٣. الله : الحب والخير والدواء .

٤. أجمل الصور الإيجابية .. وأقبح الصور السلبية فى حياتنا .

٥. خريف الحياة .. وربيعها .



مبادئ إنسانية
نعيم عاطف
طبائعنا
البشرية
واشكالها
اعداد
سمير سواني
مبادئ إنسانية
نعيم عاطف
الحب
و
الزواج
و
الأبناء
و
الأسرة
مبادئ إنسانية
نعيم عاطف
أجمل الصور الإيجابية
و
أقبح الصور السلبية
نحو حياتنا
مبادئ إنسانية
نعيم عاطف
خريف
الحياة
وربيعها

إصدارات

سمير سوانى

١. كيف تهزم ذاتك .. وتصير متواضعاً .

٢. كيف تهزم .. ؟ ذوقاً صالحاً علمنى .

٣. ٣٥ كتاب × كتاب .

٤. عظات لا تقرأ ! . (جزء ١) .

٥. خلاصات وخبرات فى الحياة . (جزء ١) .

٦. من جعبة هؤلاء . (جزء ١) .

٧. ألغاز وأحجية كتابية . (جزء ١) .

٨. ألغاز وأحجية كتابية . (جزء ٢) .

٩. قصاقيص ورق . (جزء ١) .

١٠. قطرات الندى . (جزء ١) .

١١. يا رب .. (جزء ١) .

١٢. شخصيات لا تنسى . (جزء ١) .

١٣. شخصيات لا تنسى . (جزء ٢) .

١٤. إتيكيت .. الحياة اليومية .

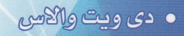
شخصيات لا تنسى ..

لازال التاريخ يذكرها .. والإنسانية أيضاً .

إنها قصص واقعية ، تتناول حياة رجال ونساء معروفين ومجهولين حقق بعضهم شهرة واسعة ، على حين مات بعضهم الآخر مغموراً . ومع ذلك كان لهم دور بارز فى أحد الجوانب المؤثرة على المجتمع البشرى والإنسانية.

منهم :

- فلورنس نايتنجيل
- فنسنت ڤان جوخ
- جان جاك روسو
- فولف جانج موتزارت
- بابلو بيكاسو
- موهانداس غاندى
- تشارلز ديكنز
- وليم جون شكسبير
- هيلين آدامز كيللر
- لويس بريل



- دى ويت والاس
- جريجور مندل
- إرنست رذرفورد
- إليزابيث جاريت
- داڤيد هارتمان
- جوستاف دالين
- بارنى رو...
- جو ديكس...
- أغلانتين...
- ألان برا...

